الحارس الأخير للقاهرة القديمة

مايكل ديفيد لوكاس

◆ المؤلف: مايكل ديفيد لوكاس

◆ العنوان: الحارس الأخير للقاهرة القديمة

◆ ترجمة: إيناس التركي

◆ الطبعة الأولى 2020

◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ مستشار النشر: سوسن بشير

◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٥٠٢ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 251 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مايكل ديفيد لوكاس

الحارس الأخير للقاهرة القديمة

رواية

ترجمة

إيناس التركي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

لوكاس، مايكل ديفيد.

مايكل ديفيد لوكاس : الحارس الأخير للقاهرة القديمة

ترجمة: إيناس التركي

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2020

320 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20502 / 2019

الترقيم الدولي 3 - 251 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - لوكاس، مايكل ديفيد

في العصور الخالية،
عندما تهددتنا العواصف،
ارتحلنا من مكان لآخر؛
لكن برحمة الرب تمكنًّا من العثور على مستقرٍ
في هذه المدينة.

موسى بن ميمون

- ١ -

منذ زمن طويل مضى، قبل مبارك والثورة، وقبل السادات وبيجين، وقبل ناصر والضباط الأحرار، وقبل أزمة السويس وقبل قناة السويس، وقبل هرتزل، وقبل دريفوس، وقبل سولومون شيختر ومكتبة جامعة كامبريدج، وقبل إسماعيل باشا ومحمد علي باشا، وقبل الإنجليز والفرنسيين والعثمانيين والمماليك والأيوبيين، وقبل الطاعون الكبير وصلاح الدين، وقبل الحكيم العظيم ابن ميمون –تقدست ذكراه– تبدأ حكايتنا قبل كل ذلك، في عهد المستنصر، عندما كانت القاهرة لا تزال مدينتين تحيا بينهما طائفة اليهود.

كان الوقت قرب نهاية الصيف، في العام ٤٨٠٠ منذ بدء الخليقة، بعد أربعة قرون من هجرة محمد للمدينة، وبعد أكثر من ألف عام من ميلاد عيسى. بلغت مياه النيل أعلى منسوب لها منذ بضعة أيام، والتمع الوادي المنبسط بأكمله وهو يتألق من الرطوبة، تحت الظلال الداكنة التي ألقتها اللقالق في طيرانها، وامتزج رنين مطرقة حدَّاد يعمل بهمة مع صوت الأذان ورائحة الخبز في أحد الأفران. في ذلك النهار تحديدًا كانت هناك رائحة أخرى أيضًا، رائحة نفَّاذة وغير مألوفة في بادئ الأمر.

لم يستطع أحدهم تحديد كنهها حتى قاموا من أسِرَّتهم، وأعينهم لا تزال غائمة، ودفء الفراش ما زال يحيط بأجسادهم، وخرجوا ليشاهدوا خيطًا رفيعًا من الدخان الأسود يتصاعد من معبد بن عزرا اليهودي.

بعد فترة وجيزة تجمع حشد من الناس في ساحة المعبد: النساء والأطفال، والصبَّاغون وصُنَّاع الزجاج، والصيادلة والصرافون والصيادون. بالنسبة للغالبية منهم كانت هذه هي أول مرة يشاهدون فيها المعبد المبني حديثًا. لم يكن بناؤه قد انتهى، ولم يتم تكريسه كمعبد بعد، وعلى الرغم من ذلك كان هذا المبنى الجديد بكل جماله قد اسوّد لونه من آثار الحريق. كان أمرًا مروعًا، لكن القدر تلطف؛ فلم يقع ما هو أسوأ. فيما عدا رائحة الدخان في قاعة الصلاة، فقد اقتصرت الخسائر على آثار السناج أسفل السقالات حيث بدأ الحريق.

من عساه يفعل شيئًا كهذا؟ تراءى للبعض من المتفائلين وسط الحشد أن هناك دلائل على أن الحادث غير مقصود؛ ربما كان بعض الفحم المشتعل الذي ضلت شراراته الطريق أو ربة منزل مهملة. بينما أصر البعض الآخر أن الحادث من فعل مخربين متعصبين. وكان هناك من عدوا الأمر برمته نذير شؤم يذكرهم بما يدّخره لهم المستقبل، على الرغم من أنهم لم يكونوا بحاجة للتذكير. فمن عساه يستطيع أن ينسى عهد الحاكم بأمر الله بكل فظاعته؟ من عساه لا تعتريه رعدة عندما يتذكر ذلك النبي الكاذب وعلاقته الغريبة بأخته، والذي دمر حوالي دستة من المعابد اليهودية والكنائس، بما في ذلك معبد بن عزرا الأصلي؟ من بإمكانه أن ينسى ذلك الطاغية الكريه الذي بلغ طغيانه لدرجة أنه حرَّم

تناول الملوخية بأوراقها الخضراء المعروفة أيضًا باسم خبيزة اليهود؟ مضى على وفاة الحاكم الآن حوالي عشرين عامًا، وأثبت الخليفة الحالي، المستنصر، أنه صديق لليهود. لكن على الرغم من ذلك، لم يكن بإمكان أحد أن يجزم تمامًا بالأمر.

استمر الجدل الدائر حول الحريق لفترة، وطوال ذلك الوقت ظل علي بن المرواني واقفًا عند حافة الساحة منتظرًا اللحظة المناسبة حتى يتقدم للأمام. أخذ يعبث بكم ثوبه وهو يحاول أن يتذكر الرسالة التي طُلب منه توصيلها ومن الذي عليه أن يبحث عنه. لكن انشغاله بمحاولة تذكر الطريق للمعبد –ينحرف يمينًا بعد القصر القديم، ثم يسارًا عند كنيسة أبي سرجة– جعله ينسى ما عليه فعله عندما يصل لوجهته.

في النهاية، عندما بدأ الحشد يتفرق، لاحظ أحدهم وجوده. فجأة، شعر بمركز الاهتمام يتحول نحوه. كانوا يتحدثون عنه –صبي غريب يرتدي ثوبًا خفيفًا من القطن وخُفًّا رخيصًا في قدميه، لا يزيد عمره عن الثالثة عشر– تزايد غليان الهمهمات المليئة بالتلميحات، وشكّلوا حلقة أحاطت به. للحظة، كان علي يقف وحيدًا وسط الساحة حتى تقدم شاب للأمام وأمسك به من مؤخرة عنقه.

سأله الشاب بلهجة آمرة: «هل أنت من فعل هذا؟»، مما أجبر علي أن يحول نظره تجاه ما بقي من النار المشتعلة. فتح علي فمه، لكنه لم يتمكن من الحديث.

واصل الشاب حديثه قائلًا: «يقولون إن اللص يعود لمكان جريمته. هل يمكن أن ينطبق هذا القول على مشعل الحرائق أيضًا؟».

انتشرت غمغمات توافق قوله، تلاها بعض الصيحات المكتومة التي تطالب بالانتقام.

«لِمَ لا يجيب عن السؤال؟ لماذا لم يعلن عن وجوده بيننا؟ ما الذي يريده منا؟».

توقف الشاب عن الحديث ووجّه نظراته للحشد وكأنه يتوقع منهم جوابًا. بدلًا من ذلك، تخلل الصمت صوت رجل أكبر سنًّا وهو يتنحنح.

قال أحدهم: «شيماريا الورع»، فانتحى الجميع جانبًا مفسحين الطريق لرجل له ظهر محني وشعر أبيض طويل تشابك مع لحيته. عندما وصل لمنتصف الحلقة، وجَّه حديثه للشاب الذي كان ما زال يمسك بعلي من مؤخرة عنقه.

قال: «عمرام، ألا يجب علينا أن نفترض أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته؟».

«بلى يا أبي، لكن ألن تقوم أنت بـ ...».

قال شيماريا الورع: «أطلق سراحه»، ثم استدار نحو علِيّ.

لم يبتسم، لكن تعاطفه انعكس في عينيه.

«أخبرنا ما الذي أتى بك هنا يا بني؟».

ساد الصمت طويلًا قبل أن يتمكن علي من أن يحمل نفسه على الحديث.

أخيرا نطق قائلًا: «معي رسالة من أبي سعد».

حل الصمت عميقًا على الحشد، بينما علي يخرج الرسالة من كُمّ

جلبابه. كان أبو سعد هو كبير مستشاري الخليفة وأهم حليف لليهود داخل القصر. كانت رسائل أبي سعد دومًا على قدر كبير من الأهمية، لكن في هذا اليوم المليء بالشك تحديدًا كان يهود الفسطاط متلهفين بصورة أكبر على سماع رسالته حتى يبث فيهم الطمأنينة.

أبدى شيماريا الورع ملحوظة، فقال: «أنت لست الرسول المعتاد الذي يرسله أبو سعد. ما اسمك يا بني؟».

«علي بن المرواني».

«أنت مسلم».

هز علي رأسه.

«وماذا يعمل أبوك؟».

«لقد كان يعمل كسقاء، لكنه توفي قبل ولادتي. أنا الآن أعيش مع خالي قرب باب زويلة».

قال شيماريا الورع: «فليرحم الرب اليتامى». وانتشرت همهمة بين الحشد تؤمن على قوله.

بعد أن تم التحقق من مهمة علي واسمه وديانته ونسبه، فتح شيماريا الورع رسالة أبي سعد وقرأها مرتين. أغلق عينيه لحظة وهو يفكر، ثم أخرج من جيبه قلمًا صُنِع من الغاب وطلب بعض الحبر، وكتب رده على الجهة المقابلة من الرسالة.

قال وهو يمد يده بالرسالة نحو علي:«هذه لأبي سعد. يجب ألا تسلمها لأي شخص سواه. هل تفهم؟».

قال علي: «أجل». وأعاد الرسالة داخل ثنايا كُمّه.

أنهى شيماريا الورع الموقف برمته بإلقاء كلمة للحشد المتجمع حوله، على الرغم من أن كلماته كانت موجهة بوضوح لابنه عمرام تحديدًا: «لا يجب علينا أن نوجه اتهامات مرسلة دون دليل، خاصة في يوم كهذا. لدينا الكثير من العمل الذي يتوجب علينا إنجازه».

* * *

بينما كان يهود الفسطاط يزيلون آثار السناج من على سطح أحجار المعبد الرمادية الفاتحة اللون، ركض علي عائدًا للقاهرة وهو يحمل الرسالة لأبي سعد. مر بين قطيع الحيوانات المختلطة الواقفة بأحمالها خارج باب زويلة، وأمام منزل خاله، ومر بسوق النحاسين وبالطلبة المتجمعين حول الأزهر، واندفع وسط باعة الطعام والجمال والسحرة والعبيد، وعبر من خلال سوق صرَّافي الأموال حتى وصل للمدخل الخلفي لقصر أبي سعد.

كان قصر أبي سعد أكبر من معظم المساجد عدا أفخمها على الإطلاق، وكان من أعظم بنايات القاهرة بأكملها. زينت جدران القصر الخارجية رايات لها لون الفيروز وشريط عريض من الخط العربي حفرت أحرفه بطريقة معقدة بدت مثل وكر للأفاعي. في وقت باكر من صباح ذلك اليوم، كان الرسول المعتاد لأبي سعد –جار علي– قد رفع رأسه من فراش مرضه ليصف المدخل الخلفي للقصر، ببابه المرتفع المصنوع من خشب الأرز في نهاية شارع جانبي ليس به ما يميزه. كان يسكن الشارع جزار ورجل يعمل بسن السكاكين وبعض صرافي

الأموال البادي عليهم انعدام الضمير.

توجه علي نحو المدخل للمرة الثانية في صباح ذلك اليوم وهو يلتقط أنفاسه. اقترب من الباب وطرقه. انتظر فترة من الوقت قبل أن يطرق الباب ثانية بصوت أكثر ارتفاعًا هذه المرة. عندها، انفتح الباب ليظهر حارس ضخم الجثة يرتدي ثوبًا من الكتان الأبيض المزين بلون فيروزي يشبه لون الرايات المعلقة بالخارج. كان هذا الحارس ذا مهابة أكبر من الحارس الذي تحدث معه علي قبل ذلك في الصباح، كما كان أكثر قبحًا أيضًا.

«ماذا تريد؟».

«معي رسالة لأبي سعد، من شيماريا الورع».

مد له الحارس يده، فأخذ علي خطوة صغيرة للوراء.

«قال شيماريا إنني لا يجب عليَّ تسليم الرسالة لأي شخص سوى لأبي سعد نفسه».

«بالنسبة لك فأنا مثل أبي سعد تمامًا».

حدَّق علي في كف الحارس السمينة، وشعر بلسعة الشمس على مؤخرة عنقه. أحكم قبضته على الرسالة بينما انزلقت قطرة من العرق على عموده الفقري.

«قال شيماريا إنني لا يجب عليَّ تسليم الرسالة لأي شخص سوى لأبي سعد نفسه». كرر علي قوله ثانية. كان طلبه جريئًا، لكن كانت لديه تعليمات واضحة وكان ينتوي الالتزام بها.

زمجر الحارس قائلًا: «أبو سعد نفسه!».

بعد بضع دقائق وجد علي نفسه واقفًا على مبعدة أقل من ذراع من أبي سعد، كبير مستشاري الخليفة. كان رجلًا قصير القامة له كرش ضخم، ويرتدي قفطانًا فاخرًا من الحرير البنفسجي له طوق مطرز بزهور لونها أبيض وفيروزي. قدم نفسه وأخذ الرسالة من يد علي الممدودة، ثم عاد بعد بضع دقائق ومعه رقعة مطوية من الجلد.

قال له: «الرسالة لشيماريا الورع. وهذا من أجلك أنت».

تقدم خادم، وناول عليًّا كأسًا من الفضة ممتلئة حتى حافتها بسائل له لون أحمر داكن.

قال أبو سعد عندما لاحظ تردد علي: «هذا عصير رمان؛ تقديرًا لالتزامك الحذر في تصرفك. أتمنى أن يمنحك بعضًا من الطاقة».

ركض علي سبع مرات خلال اليوم جيئة وذهابًا ما بين الفسطاط والقاهرة. تفادى الاصطدام بالعربات التي تجرها الحمير وبأكوام القمامة والكلاب الضالة. قام بتوصيل عشرات الرسائل من يهود الفسطاط لإخوتهم في الدين وشركائهم في العمل وأنصارهم الآخرين في أرجاء المدينة. حمل علي الرسائل لأصحاب الدكاكين والقضاة والتجار والكهنة. عبر خلال أزقة خلفية عفنة التمعت فيها مياه الصرف، وانزلق داخلًا من أسفل البوابات المغلقة، وتسلل عبر الساحات الظليلة للقصور الكبيرة. وصَّل الرسائل للكنيسة المعلقة ولسوق صانعي الزجاج ولحديقة كافور وللدهاليز الداخلية السرية للأزهر. في يوم واحد رأى علي من مدينته التي وُلِد بها أكثر مما رآه من قبل خلال عمره كله.

أدى علي مهامه طوال اليوم بحذر وعناية. في كل مرة، قام بتقديم نفسه على الفور، ولم يتسكع أو يبادل أحدهم النظر مباشرة بطريقة غير لائقة، ولم يفكر ولو لمرة واحدة في فتح أي من الرسائل التي يحملها. في نهاية اليوم، بينما هو يركض عائدًا للفسطاط ومعه رسالة أخيرة من أبي سعد، تعثر علي في جذر شجرة مكشوف وجرح حجر صغير يده. لم يلحظ الجرح في بادئ الأمر، لكن عندما أخرج رسالة أبي سعد من كمه رأى طرف الرسالة العلوي وقد تلطخ باللون الأحمر.

«أنا آسف». غمغم معتذرًا لشيماريا الورع وهو يشعر بالخزي من مرأى الورقة الأنيقة وقد تلوثت بدمائه اللزجة.

جلس علي في ركن معتم من الساحة وشاهد الرسالة وهي تمر بين يدي أعضاء المجلس الذي يدير شؤون الطائفة اليهودية، من شيماريا لابنيه عمرام وإفرايم، لتاجر عطارة تونسي معروف باسم ابن كمونة، ثم للطبيب ميفوراخ، والكاتب، وقائد جوقة الترتيل، ثم أخيرًا للزكري الحلاق الذي كان في ذات الوقت يعمل كحارس للمعبد. كتم علي أنفاسه وهو يستعد لتلقي توبيخهم، لكن لم يبد على أحد من الرجال أنه قد لاحظ بقعة الدماء. كان جلّ اهتمامهم مُنْصَبًّا على الرسالة ذاتها.

بينما أعضاء المجلس يتشاورون بهمهمات مكتومة تغلب عليها نبرة الأهمية، ارتاح علي قليلًا وتجول بنظراته عبر واجهة المعبد الحديث البناء. فيما عدا الحَفر الرقيق في الجدار الحجري أسفل السقف مباشرة، كانت الزخرفة الوحيدة للبناء من الخارج تقع عند المدخل الرئيس المكون من لوحين ضخمين من الخشب تزينهما

صورة كرمة تلتف حول أربعة أحرف كبيرة من الأحرف العبرية تراصت في شكل مربع. سرح علي وهو يتفحص تلك الأحرف الغامضة، فلم يلحظ أن الصمت قد حل على المجلس. عندما رفع عينيه لاحظ أن نظرات الرجال جميعهم قد تركزت عليه.

قال شيماريا الورع: «لدينا اقتراح».

استمر إفرايم بن شيماريا في الحديث قائلًا: «لقد قررنا أنه سيكون من المفيد تعيين حارس ليلي للمعبد. لدينا الزكري، بالطبع، لكنه لا يمكنه تولي مسؤولية الحراسة ليلًا ونهارًا».

قال ابن كمونة: «حيث إنك أثبتَّ أنك أهل للثقة وأنك قادر على الكتمان، نود أن نعرض عليك المنصب. بالإضافة لثلاثة دنانير هي راتبك الشهري، سيكون لك الحرية في السكن في حجرة الدراسة القديمة الكائنة في الطرف الآخر للساحة».

أضاف الزكري قائلًا وهو يشير للمبنى الصغير: «أعتقد أنها ستفي بالغرض. وبعد إعادة طلائها ستصبح صالحة للغاية للسكنى».

«شكرًا». قالها علي وهو لا يدري كيف يجيبهم سوى ذلك.

كان مبلغ ثلاثة الدنانير يفوق ما يجنيه من عمله كسقاء طوال ستة أشهر، وكانت حجرة الدرس أكبر من المنزل الذي يتشارك في سكنه حاليًا مع أسرة خاله. كان عرضًا سخيًّا وغير متوقع؛ ضربة حظ. لكنّ عليًّا تعلم ألا يثق بالمصادفات. وعلى الرغم من حسن معاملة اليهود له، إلا أنه لم يكن يعلم شيئًا عنهم ولا عن ممارساتهم. لم يرَ أي شائبة في

العرض، لكنه على الرغم من ذلك لم يكن مستعدًّا لقبوله على الفور. وبطبيعة الحال فقد تفهم يهود الفسطاط حذره. كان أمرًا متوقعًا، بل وموضع تقدير، وزاد من اقتناعهم بصواب اقتراح أبي سعد.

قال الطبيب ميفوراخ: «لا داعي لأن تتخذ قرارك الآن. نم وفكر في الأمر جيدًا».

سرت همهمات تتفق مع قوله، وقرروا أن يرسل لهم علي جوابه في صباح اليوم التالي.

❋ ❋ ❋

سهر علي حتى وقت متأخر في تلك الليلة وهو يحدّق في الجدران الطينية لحجرة المخزن التي ينام بها. كان يرغب بشدة في ترك منزل خاله راشد وخالته فاطمة. وعلى الرغم من ميله لابنة خاله فوزية، ومن شعوره أنه مدين بالكثير للأسرة التي قامت بتنشئته، إلا أن الحياة في بيت خاله قد صارت شاقة للغاية منذ فترة طويلة مضت. منذ بضع سنوات، خلفت ركلة حمار طائشة خاله بيد يمنى مشلولة، مما جعله عاجزًا عن ممارسة عمله كحدَّاد. صارت الأسرة تعتمد على الصدقات، وأُجبر علي على العمل كسقّاء. وفي تلك الأثناء اشتد شعور خاله راشد بالمرارة، فبات يقضي معظم أيامه جالسًا على مقهى الحي يأكل التسالي، ويشرب نبيذ النخيل، ويضيع أي مال يحصل عليه في لعب القمار.

بدا عرض اليهود وكأنه الحل المثالي لمشكلة علي. على الرغم من ذلك، كان متحفظًا. لم يعلم إذا كان بإمكانه الوثوق بهم –لم يكن يعلم أي شيء عنهم في واقع الأمر– وفي كل الأحوال لم يكن يعلم كيف

سيكون رد فعل خاله. تتبع علي الظلال الطويلة التي شكلها الظلام على سقف المخزن وهو يفكر في قائمة طويلة من الأجوبة للأسئلة المحتملة التي قد يطرحها خاله. في نهاية المطاف، لم يكن أي من هذا ضروريًّا. سأل خاله راشد سؤالًا واحدًا فقط عندما علم بالمبلغ الذي سيحصل عليه علي، عما إذا كان سيستمر في المساهمة في الإنفاق على أقاربه الفقراء الذين تكفلوا برعايته من قبل.

قال وفمه مليء بالطعمية واللفت المخلل: «هذا ثمن زهيد للغاية مقابل كل ما فعلناه من أجلك».

في النهاية وافق علي على أن يرسل لأسرة خاله دينارًا واحدًا كل شهر، على أن يتم ادخار جزء من هذا المبلغ لجهاز ابنة خاله فوزية. كان المبلغ يقارب ضعف ما يساهم به في ميزانية الأسرة حاليًا، وكان علي على يقين أن معظم المبلغ سيتبدد للإنفاق على رذائل خاله. على الرغم من ذلك كان خاله محقًّا، فهو ثمن زهيد مقابل كل ما فعلوه من أجله.

قال علي: «سأظل للأبد مدينًا لكم ولكرمكم». وهكذا اتفقوا على الأمر. أرسل رسالة للفسطاط، ثم رحل في عصر اليوم التالي.

شعر علي كأنه أمير يغادر دياره للحرب في بلاد بعيدة، بينما يقف على العربة التي يجرها حمار ويلوِّح مودعًا. كانت العربة رفاهية بالنسبة له؛ فقد كان بإمكانه حمل ممتلكاته الضئيلة كلها -بعض الملابس وفرش السرير، وسلة من الطعام، وبراد شاي قديم قدمته له خالته فاطمة كهدية وداع- على ظهر حمار، لكنه في اللحظة الأخيرة قرر اختيار عربة وشعر بالسعادة لقراره هذا.

سار علي بحذاء الشاطئ الشرقي للنيل متجاوزًا قنطرة السباع. استند على مرتبة فراشه وهو يراقب أشعة شمس منتصف النهار المنعكسة على الأشرعة البيضاء للمراكب التي تراصت لإفراغ حمولتها. كان يومًا جميلًا، وشعر أن كل الأمور على ما يرام. الشيء الوحيد الذي شعر بالأسف من أجله هو أنه خلف ابنة خاله فوزية وراءه. كان يعلم جيدًا مدى كرهها للبقاء وحيدة مع أسرتها. ونظرًا لافتقارها للجمال، لم يكن بمقدورها الاعتماد على الزواج لانتشالها من ظروفها تلك لظروف أفضل. كانت في الرابعة عشر من العمر، وكانت الخاطبة تجلب لها أرامل وعجزة للزواج منهم. لذا كان من المتوقع أن تصير حياة فوزية إذا ما تزوجت أسوأ حالًا مما هي عليه بالفعل الآن. شعر علي بالرغبة في مساعدة ابنة خاله، وبأن يهبها بعضًا من حسن الحظ الذي صادفه. لكن بخلاف مساهمته في تجهيزها للزواج، لم يكن بمقدوره فعل شيء آخر. كان على أبواب حياة جديدة في الفسطاط، ولم يكن هناك مكان لفوزية في حياته تلك.

* * *

– ٢ –

وصل الطرد في يوم ثلاثاء في أوائل شهر أغسطس، بعد أقل من ثلاثة أشهر من وفاة والدي. لا بد أنني نمت حتى وقت متأخر من ذلك الصباح؛ لأنني استيقظت على الصرير المعدني لغطاء صندوق البريد يليه صوت رنين جرس الباب. كانت عاملة البريد قد رحلت عندما نزلت أنا، لكن هناك في منتصف قطعة السجاد الصغيرة المصنوعة من البلاستيك الأخضر والموضوعة أمام الباب، كان يوجد طرد بحجم صندوق الأحذية ملفوف بالكامل بشريط لاصق، وتغطيه أختام هيئة البريد المصري. كان اسمي وعنواني مكتوبين أعلاه بخط دقيق بدا وكأنه لتلميذ في مدرسة، وعرفت على الفور أنه خط أبي. كتب شخص آخر عنوان الراسل، مع تعليمات باللغتين الإنجليزية والعربية للتعامل مع الطرد بعناية.

كان أحد الأيام الصيفية الرائعة في بيركلي. أخفت مجموعة من السحب البيضاء الهشة تقدم طائرة بعيدًا في الأفق، وطارد زوج من السناجب بعضهما من قمة سطح لآخر قبل أن يختفيا وسط أفرع شجرة بلوط في الحديقة الخلفية لأحد المنازل. لا أدري كم من الوقت ظللت

واقفًا على الشرفة الأمامية للمنزل -أحدق في خط يده، وأتخيله مُنْحنيًا على مكتبه وهو يخط عنواني، ويكور صفحات من الصحف التي كان دومًا ما يستغل أوراقها للتغليف والتعبئة- لكن في لحظة من اللحظات اخترق الصمت صوت سيارة من سيارات الإسعاف. أفقت من شرودي وأخذت الطرد للداخل وأخليت مساحة له على طاولة المطبخ.

طالت فترة مرضه فاستمرت حوالي سبع أو ثمان سنوات، تبعًا للطريقة التي يحسب بها المرء الأمر. على الرغم من ذلك فوجئت باتصال ابنة عمي عائشة في ذلك الربيع قبل نهاية الفصل الدراسي ببضعة أسابيع لتخبرني أنه في المستشفى، وأنه سينقطع عن تلقي العلاج الكيماوي.

بعدها بأسبوعين اتصلت ثانية.

قالت: «توفي أثناء نومه».

تبعًا لعادات المسلمين، فإنه من الواجب دفن المتوفى بأسرع ما يمكن؛ لذا كان من المستحيل أن أتمكن من الذهاب للقاهرة في وقت يمكنني أن ألحق جنازته، إلا لو استقليت الطائرة في عصر اليوم نفسه.

قالت عائشة في محاولة منها للتخفيف عني؛ نظرًا لأنني لن أتمكن من الحضور: «سوف تكون جنازة صغيرة».

إلى جانب أفراد الأسرة، كانوا يتوقعون حضور بعض موظفي شركة عمي حسن لتوزيع الحاصلات الزراعية، وربما بعض الأفراد من معبد بن عزرا. كانت هذه هي حياة والدي بأكملها على حد علمي: أسرته وعمله، والمعبد الذي قام بحراسته في شبابه.

«أخبريني لو كان هناك أي شيء يمكنني القيام به».

قالت: «سأفعل».

لكن ماذا كان بمقدوري أن أفعله؟ ما الذي كان بوسعنا القيام به؟ ما حدث قد حدث بالفعل، أليس كذلك؟ بعد أن انتهيت من المكالمة، تمددت على الأريكة وألقيت وسادة صغيرة على رأسي. أذكر أنني لاحظت الرائحة المكتومة للوسادة الرخيصة، ولاحظت وميضًا منعكسًا لصورة من جهاز تليفزيون على الجهة المقابلة من الطريق. كنت أعلم أنه يتوجب عليَّ الاتصال بوالدتي كي أخبرها ما حدث. لكن قبل أن أفعل، كنت بحاجة للحظات كي أتأمل الخبر وحدي. لم نكن أنا ووالدي مقربين من بعضنا. بخلاف بعض أشهر الصيف التي قضيتها في القاهرة عندما كنت أصغر سنًّا، كانت علاقتنا تتألف كليًّا من الاتصالات الهاتفية وبطاقات أعياد الميلاد. على الرغم من ذلك، كان دومًا هناك على الجانب الآخر من العالم، يشغل منصب الأب، حتى الآن.

لم يكن لديَّ الكثير من المسؤوليات ذلك الصيف -ورقة بحثية بحاجة لمراجعة بسيطة قبل تقديمها للنشر، وكومة الكتب التي كان عليَّ قراءتها قبل الامتحانات التمهيدية- لم يكن هناك شيء لا يمكن تأجيله بضعة أشهر. بالإضافة لذلك فقد تفهم الناس وضعي وكانوا متسامحين للغاية. اتفق أصدقائي في بيركلي على أنني يجب أن أتقبل مرحلة الحزن، وأن أشبع كل نزوات هذه المرحلة.

قال ستيف المشرف على رسالتي: «يجب عليك أن تفعل ما تشعر أنك بحاجة إليه».

لذا كان ذلك بالتحديد هو ما أقدمت على فعله.

قضيت معظم شهر يونيو في البيت في نيو مكسيكو مع أمي وبيل، ونمت في حجرتي القديمة الكائنة أعلى الجراج. ركضت لمسافات طويلة عبر التلال الواقعة خلف المنزل، وقرأت بعض الروايات البوليسية التي تدور أحداثها بين أفراد قبائل السكان المحليين للمنطقة والتي كان بيل يحب قراءتها قبل النوم. لم نتحدث كثيرًا عن أبي. كانت الصدمة لا تزال قوية. لكن في ليلة من الليالي قرب نهاية زيارتي، جلست أمي بجواري على الشرفة الخلفية للمنزل وأعادت حكاية كيف التقت هي وأبي لأول مرة، منذ سنوات طويلة في ساحة معبد بن عزرا.

قالت: «ما زلت أذكر. أراه وكأنه أمامي هنا الآن».

كان الوقت متأخرًا، بينما نحن جالسان على طرف الشرفة البعيد نحتسي الشاي، ونتأمل العروق البيضاء اللامعة للبرق وهي تلتمع في سماء الصحراء.

قالت: «لطالما كان حنونًا»، وشرعت تحكي حكاية لم أكن قد سمعتها من قبل، عن قط صغير نحيف كان والدي يرعاه، وكيف كان يطعمه ويحميه من باقي الأولاد.

قالت: «يا له من قلب حنون. كان رجلًا طيبًا»

عندما التفت ناحيتها رأيتها تبكي، وقد تخطط وجهها بالانعكاسات الفضية لضوء الشرفة. وضعت كفي فوق كفها وظللنا جالسين هكذا لفترة طويلة من الوقت.

كنت دومًا أشعر بغرابة الأمر عندما أسمعها تتحدث عنه هكذا، وعندما أفكر أنهما كانا حبيبين من قبل. عندما كنت أصغر سنًّا، كنت أتخيلهما كوكبين متباعدين في طرفين متقابلين من أطراف الكون: أبي المسلم وأمي اليهودية، تاجر الحاصلات الزراعية ذو الشنب الكث، وأستاذة اللغة الفرنسية ذات الشعر الفضي ونظارات القراءة المستطيلة حمراء اللون. معظم الوقت كنت أخبر الناس أنهما قد حصلا على الطلاق، لكن في واقع الأمر هما لم يتزوجا أبدًا. على حسب ما فهمت، فقد دامت علاقتهما لفترة قصيرة نسبيًّا. التقيا في طفولتهما وتبادلا الرسائل بعد أن رحلت أسرة أمي عن القاهرة في أواخر الخمسينيات. زارها والدي في باريس في خريف عام ١٩٧٣، بعد حرب يوم كيبور مباشرة. حملت أمي بي، وبعدها تركت دراساتها العليا وانتقلت لكاليفورنيا حيث التقت ببيل. تلك هي الحكاية التي كنت أعرفها من قبل، لكن شيئًا ما في نبرة أمي تلك الليلة –تهدج صوتها بعض الشيء من المشاعر– جعلني أفكر أنه ربما كان هناك جانب خفي آخر للحكاية. على أي حال، لم تكن طبيعة علاقة والدي هي ما يشغل بالي.

بنهاية شهر يونيو، عدت إلى بيركلي وقضيت ما تبقى من الصيف مع الأصدقاء نتسلى في الحانات وحفلات الشواء في الحديقة الخلفية للمنزل. أطلقت لحيتي وشاهدت الأفلام الأجنبية القديمة في السينما الكائنة على ناصية سكني. ثملت كثيرًا واتخذت الكثير من القرارات السيئة، وقرأت المجلات الرخيصة وتركت عبوات الأطعمة التي طلبتها من المطاعم تتراكم على طاولة المطبخ. في بعض الأيام، كنت أقضي

الوقت كله أفكر في أبي، بينما في أيام أخرى، كنت بالكاد أفكر فيه. لكن بينما أنا أكسر بيضة على حافة المقلاة، كان يمكنني أن أتذكر نبرة صوته، أو الطريقة التي التف بها شاربه على جانبي شفته العليا.

لم تكن هناك مراحل للحزن الذي شعرت به، أو على الأقل لم أستطع تمييزها. لم يكن هناك تتابع منتظم من الإنكار للغضب، ثم المساومة والاكتئاب الذين يليهم تقبل الأمور. عوضًا عن ذلك، طاردتني مشاعري كلها مجتمعة كقطيع من الحيوانات المفترسة، وكأنهم في لحظة يسترخون متكاسلين على تل من التلال البعيدة، ثم فجأة في اللحظة التي تليها يهاجمونني جميعهم دفعة واحدة.

وفي تلك الأثناء، تحت ذلك الركام من المشاعر، كان يغلي إحساس ملحّ آخر بالترقب، أو ربما كان شعورًا بالأمل. أخبرت نفسي أنه بالتأكيد كان هناك شيء آخر. كيف لا يكون هناك شيء آخر؟ طوال الصيف، كنت آمل أن تصلني رسالة من والدي، كلمات أخيرة تحمل وصية منه أو كلمات يصالحني بها، أو بطاقة متأخرة للتهنئة بعيد ميلادي، أو رسالة صوتية مسجلة ضلت طريقها عبر الأسلاك بين القاهرة وكاليفورنيا. ظللت أنتظر طوال الصيف - ثم فجأة، هكذا، وصل هنا، ذلك الطرد القابع على منتصف الطاولة في مطبخي.

مزقت الشريط اللاصق بمفتاح وفتحت الكرتونة. أطل بداخلها من أسفل طبقة من صفحات الصحف المصرية المكورة رسالة من والدي وعلبة قديمة من الجلد الأحمر بدا من مظهرها أنها قد تحتوي على نص بيان من المحافظ أو جائزة للخدمة من نادي الروتاري. كانت الرسالة

مكتوبة باللغة الإنجليزية، بحبر أزرق داكن على ظهر بطاقة فهرسة.

عزيزي جوزيف،

أعتقد أنك قد ترغب في الاحتفاظ بهذا.

والدك،

أحمد الراقب

كانت هناك ورقة لها مظهر عتيق ترقد وسط البطانة المخملية السوداء للعلبة، وقد غلفها لوحان من الزجاج. كانت بحجم صفحة اقتطعت من رواية من القَطْع الصغير، وقد اهترأت أطرافها وامتلأت بالثقوب التي بدت وكأنها تنبت من الأحرف نفسها. كان أحد وجهي الصفحة مغطى بالكامل تقريبًا بخط عربي أنيق يميل ناحية الأسفل، بينما آخر بضع كلمات قد التفت جهة الأعلى في الهامش. احتوت الجهة المقابلة من الصفحة على خمسة أسطر باللغة العبرية وتوقيع أحدهم. بدت وكأنها رسالة، أو ربما زوج من الرسائل، لكنني لم أكن أجيد قراءة اللغة العربية بدرجة تمكنني من فهم أكثر من بضع كلمات. أما بالنسبة للغة العبرية، فقد كانت غامضة تمامًا بالنسبة لي.

قلبتها بين يدي محاولًا أن أستكشف أهمية ذلك الشيء الذي أرسله إليَّ والدي، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور ببعض خيبة الأمل. ملأ صدري شعور بالانقباض، وبدأت مشاعر الرثاء للذات تطل برأسها. كنت أدرك أنني يجب أن أشعر بالامتنان لكوني حصلت على أي شيء من والدي. وكنت أدرك أيضًا أنه لا يوجد ما يستدعي شعوري

ذاك بالرثاء للنفس. لكن كان هناك شيء ما بخصوص الطرد وقصاصة الورق تلك، ورسالة والدي الموجزة يثير شعورًا بالغًا بخيبة الأمل. حصلت على ما تمنيته تمامًا، لكنني لم أكن أملك أدنى فكرة عن ماهيته.

تبعًا للوحة نحاسية صغيرة مثبتة داخل الصندوق، فإن قصاصة الورق العتيقة هذه قد تم إهداؤها للسيد محمد الراقب، صديق العلم وحارس معبد بن عزرا، من قبل السيدتين مارجريت جيبسون وأجنيس لويس، في فبراير عام ١٨٩٧. تمثلت المعلومات الوحيدة الأخرى التي نجحت في العثور عليها في بطاقة مثبتة بشريط لاصق في قاع الصندوق. كانت البطاقة مطبوعة على ورق سميك له لون كريمي ولم يكن موضحًا عليها أي مهنة أو اسم شركة، فقط اسم شخص –السيد كلود موصيري– ورقم هاتف وعنوان. على ظهر البطاقة، كتب السيد موصيري رسالة موجزة. «طلب مني والدك أن أرسل لك هذا. كان صديقًا رائعًا. أرجو أن تتصل بي إذا جئت للقاهرة في أي وقت».

افترضت أن محمد الراقب هو أحد الأقارب البعيدين من العائلة. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن هوية مارجريت جيبسون وأجنيس لويس. أما فيما يتعلق بالسيد موصيري، فغالبًا ما كان أحد معارف والدي من المعبد اليهودي. لم أسمع اسمه من قبل، لكن لم يكن هذا أمرًا غريبًا. فلطالما كان ماضي أبي غامضًا نوعًا ما، خاصة فيما يتعلق بتلك السنوات قبل مولدي أنا.

مررت بأناملي على البطانة المخملية المبرقشة للصندوق بينما أنا أتفحص الطرد ثانية؛ على أمل أن أجد دلالة خفية ما تشير لمغزاه أو

مصدره أو كيف وجد طريقه لطاولة مطبخي. أخرجت كل صفحات الصحف المكورة وفردتها الواحدة بعد الأخرى. نظرت أسفل الكرتونة وتفحصتها من الخارج علّني أعثر على أي علامات مميزة. كان ختم البريد بتاريخ ١٤ يونيو، ٢٠٠٠ –حوالي شهر بعد وفاة والدي– لكن هذه كانت هي المعلومة الوحيدة التي تمكنت من العثور عليها. لم يكن هناك أي شيء آخر، لا تفسير ولا تعليمات، ولا وصية أخيرة. فقط هذه القصاصة العتيقة من الورق في صندوقها، ورسالة من جملة واحدة.

كان الأمر ملائمًا بطريقة ما. فبعد ستة وعشرين عامًا من علاقة الأبوة بدوام جزئي عن بعد، كانت هذه هي كلماته الأخيرة لي. أعتقد أنك قد ترغب في الاحتفاظ بهذا. ألم يكن الحال بيننا هكذا على الدوام؟ كان يرسل لي شيئًا –بطاقة معايدة، أو هدية عيد ميلاد، أو قصاصة ورقية عتيقة– وكان عليَّ أن أفسر أهميتها. كنت أعلم أنه بذل قصارى جهده، وأنه لم يكن من السهل عليه دومًا التعبير عن نفسه كتابة باللغة الإنجليزية. لكن هل كان من الصعب حقًّا كتابة بضع جمل أخرى؟ هل كان من الصعب حقًّا تفسير لماذا اختار أن يرسل لي هذا الشيء، دونًا عن كل الأشياء الأخرى التي كان بإمكانه أن يرسلها إليَّ –مشبك رابطة عنق، أو كنزة قديمة، أو ألبوم صور، أو مسبحة ذات حبات مصنوعة من الخشب؟

«هل كان حقًّا؟» سألت والدتي لاحقًا بعد ظهر ذلك اليوم وأنا أحادثها هاتفيا: «هل كان حقًّا أمرًا عسيرًا لهذا الحد؟».

«ربما كان كذلك بالفعل». قالتها وهي تجيب المعنى الظاهري للسؤال فقط. «فمن الجائز أنه هو نفسه لم يكن يعرف كنهها».

«إذَنْ لِمَ أرسلها إليَّ؟ لماذا قال إنه يعتقد أنني قد أرغب فيها؟».

كان بمقدوري أن أقوم بالاتصال بالسيد موصيري أو بعائشة، أو بعمي حسن، أو بأحد أصدقائي الذين يدرسون الأدب العبري والأدب العربي. لكن أمي كانت هي الشخص الأول الذي اتصلت به، ليس لأنني اعتقدت أنها ربما يكون بمقدورها إفادتي بأي معلومات عن الطرد، فهي لم تستطع ذلك، لكنني اتصلت بها لأنني كنت على ثقة أنها ستتفهم الأمر.

قالت بعد أن صمتت لحظة: «كان طبعه يستعصي على الفهم أحيانًا».

«لكن في الغالب كانت لديه أسبابه الخاصة. وكان يحبك كثيرًا. أنت تعلم ذلك يا جوزيف، أليس كذلك؟».

قلت: «أجل، أعرف». وعلى الرغم من شعوري بالإحباط، كنت أعرف ذلك بالفعل.

بعد أن أنهيت المكالمة، تأملت بطاقة السيد موصيري وحاولت أن أحسب التوقيت في القاهرة، وفكرت فيمن عساي أتصل به من القسم ليساعدني بخصوص الترجمة. لكن أعتقد أنني حتى ساعتها كنت أدرك جيدًا، ولو لا شعوريًّا، ما يتحتم عليَّ فعله.

* * *

لفترة طويلة من طفولتي ظل والدي يحتل مساحة في مخيلتي مخصصة عادة لأبطال الخرافات والأساطير، ويقبع في منطقة ما تتوسط الملك أرثر وزيوس. كان في مرتبة نصف إله خير يحيا بعيدًا، ويشرف على عالم الخطابات البريدية والمكالمات الهاتفية، ومختصًّا بإرسال التماثيل الفرعونية وثقالات الأوراق التي لها شكل هرم. وبمناسبة عيد ميلادي التاسع، أرسل لي جعرانًا مصريًّا حقيقيًّا. كان لعب الكرة وتوصيلي للمدرسة، ومحاولة تشجيعي عندما أخطئ تصويب الكرة أو أجرح ركبتي – وكل ما شابه ذلك من المهام الأبوية العادية، من اختصاص أمي أو بيل. إذا أخذنا كل شيء في الاعتبار، فقد قاما بمهمتهما على نحو جيد. لم يكن هناك شيء ملموس افتقدته في طفولتي. لكنني على الرغم من ذلك كنت دومًا أشعر بنوع من الفصام الناتج عن تلك الثغرة التي خلفها غياب الأب.

لم يكن لديَّ أدنى شك أنه بذل قصارى جهده رغم بُعد المسافات. كان يرسل لي بطاقات المعايدة ويقوم بزيارتي، وكانت هداياه لي في أعياد الميلاد تصل في وقتها الصحيح تمامًا. ولطالما تذكرت اتصالاته الهاتفية كل ليلة أحد قبل موعد نومي. عادة ما كانت محادثاتنا تدور حول نفس المواضيع. كان يسألني عن الدراسة أو تمرين كرة القدم. وأحيانًا كان يحكي طرفة مسلية سمعها من عمي حسن أو من الرجل الذي كان يبيع الصحف على ناصية الشارع أمام شقته. وفي كل أسبوع بينما أنا ممدد في الفراش وسماعة الهاتف البلاستيكية الصلبة مستقرة بين رأسي والوسادة، كان يسألني إذا ما كنت أرغب في سماع حكاية.

كان أبي يحكي قصصًا عن التنانين والجن، وعن الكنوز الدفينة والصيادين، وعن الأمراء صعاب المراس. لكن أفضل حكاياته كانت تلك المستوحاة من تاريخ عائلتنا: حكايات عن السلالة الممتدة لرجال عائلة الراقب الذين عملوا لحوالي ألف سنة في حراسة معبد بن عزرا. كانت هناك حكاية أحمد الراقب، الذي سُمِّي والدي على اسمه، والذي واجه بمفرده حشدًا غاضبًا من الناس الذين كانوا مقتنعين أن الطائفة اليهودية لديها مناعة ضد وباء الطاعون. وكانت هناك حكاية إبراهيم الراقب، الذي أقنع الحاكم المملوكي المستبد بيبرس بقبول غرامة مالية بدلًا من تدمير المعبد. وبالطبع كانت هناك حكاية علي الراقب، أول وأنبل الحراس الذي أسست شجاعته لقب عائلتنا.

عادة ما كنت أغرق في النوم قبل نهاية الحكاية، وكنت أستيقظ ثانية عندما تأتي أمي لتطبع على خدي قبلة قبل النوم. كانت تأخذ سماعة الهاتف من يدي، ويتسلل إليَّ صوتها وهي تحادث والدي من غرفة المعيشة بينما أغرق في النوم مجددًا. كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي أسمعها فيه وهي تتحدث بالعربية، وما زلت أذكر كيف بدا صوتها مختلفًا آنذاك وهي تتحدث بلغتها الأم. لم تكن تشبه إطلاقًا تلك المرأة التي تجهز لي طعامي للمدرسة كل صباح، وتقبّل جبيني ثم تذهب لتدريس اللغة الفرنسية في الجامعة.

استمر الوضع هكذا لسنوات طويلة. مرت حفلات أعياد الميلاد وليالي المبيت عند الأصدقاء، ورحلات التزلج على الجليد، وامتلأ أحد الأرفف بكؤوس التفوق المصنوعة من البلاستيك. وفي يوم أحد قرب

نهاية العام الدراسي وأنا في الصف الخامس الابتدائي، سألني والدي إذا ما كنت أرغب في قضاء الصيف معه في مصر. كان هو ووالدتي قد اتفقا بالفعل على كل التفاصيل. سأقيم معه في القاهرة لمدة شهرين، ثم أعود لسانتا في لبضعة أسابيع قبل بداية العام الدراسي الجديد.

قالت والدتي صباح اليوم التالي ساعة الإفطار: «الأمر يعود لك».

كانت تحبذ الفكرة، فهي فرصة عظيمة كي أقضي بعض الوقت مع والدي. «فقط أريد أن أتأكد أنك واثق من قرارك».

أضاف بيل قائلًا: «إنها رحلة طويلة».

لم أفهم لِمَ كان عليهم طرح السؤال من أساسه. فلماذا لا أرغب في قضاء الصيف مع والدي في مصر؟

قلت وأنا أرفع عيني عن طبق الحبوب بنخالة القمح والزبيب الذي أتناوله: «أنا متأكد. وأنا واثق أنني متأكد تمامًا».

هكذا اتفقنا على الأمر.

بالتأكيد كانت هناك محادثات أخرى، ونقاشات لاختيار ما أحزمه في حقيبتي وما إذا كان من الملائم شرب ماء الصنبور في القاهرة، بالإضافة لزيارة الطبيب قبل السفر. لكنني لا أذكر أي شيء من ذلك. لا أذكر كيف وصلت لمطار لوس أنجلوس، ولا إذا كان هناك من ساعدني في تغيير الطائرة في أمستردام.

ما أذكره بوضوح هو هبوطي على ممر الإقلاع في القاهرة بحقيبتي الصغيرة التي لها نقش مربعات حمراء وسوداء في يد، واستمارة

جمارك خالية في اليد الأخرى. انتظرني والدي بعد صف الجوازات، مستندًا إلى عامود أبيض وهو يدخن سيجارة. كان يرتدي بدلة قديمة لها لون رمادي، وأذكر أنني فكرت أن شاربه يبدو وكأنه حيوان مائي صغير، مثل قندس الماء، أو ربما ابن مقرض. لمحته قبل أن يراني هو، ووقفت هناك لوهلة أراقبه وهو يدخن سيجارته. والدي. كررت الكلمة بضع مرات بصوت خفيض، وكأنني أتمرن عليها. بعدها تقدمت خطوة للأمام حتى رآني.

قال وهو ينحني للأمام كي يعانقني:«أنت هنا». ودار رأسي من تلك الرائحة الشرقية القوية التي هي مزيج من دخان السجائر والعطر والعرق. «مرحبًا بك يا بني».

شعر بالإثارة أثناء رحلة العودة من المطار مستقلين سيارة من سيارات الأجرة، وأخذ يداعب شعري وهو يحادثني بلكنته الإنجليزية المتكسرة عن خططه لقضاء الصيف معي. حاولت التركيز في كلامه، لكنني كنت متعبًا من الرحلة، وقضيت معظم الوقت أحملق في المدينة وفي أكوام القمامة، والعمارات السكنية التي لم ينْتَهِ بناؤها بعد، والكباري العلوية المزدحمة بسيارات الأجرة وصوت آلات التنبيه، واللوحات الإعلانية الزاهية باللغة العربية وهي تصور أنواعًا غريبة من مساحيق الغسيل وعصير الفواكه.

قال والدي بفخر عندما توقفت سيارة الأجرة أمام عمارة سكنية ضخمة من الأسمنت: «ها قد وصلنا. ما رأيك؟».

لم يكن الأمر كما تخيلته. لم يكن أي شيء كما تخيلته. لكن آخر

ما كنت أود أن يراه هو خيبة الأمل مرتسمة على وجهي.

قلت وأنا أبذل قصارى جهدي كي أبتســـم: «إنها لطيفة. حقًّا رائعة».

لم يكن ذلك الأسبوع الأول في القاهرة سهلًا. عالقًا في مدينة غريبة حارَّة مليئة بالتلوث مع أب وأسرة أعرفهم بالكاد، أصبت بطفح جلدي من أثر الحرارة وإسهال بسيط لكن مستمر، وزاد من سوء الوضع وصفات عمتي بسيمة للعلاج المنزلي. كان والدي يعيش مع أخيه -عمي حسن- وأسرته، مما كان يعني اضطراري لمشاركة غرفتي مع عائشة. أو ربما كان الأكثر دقة هو القول بأنها هي من اضطرت لمشاركتي غرفتها. على أي حال، لم تخف ضيقها من الإزعاج الذي سببته لها بوجودي في غرفتها.

قالت في تلك الليلة الأولى التي قضيناها ممددين كلٌّ في طرف مقابل للآخر من الغرفة: «هل من الضروري أن تتنفس بصوت مرتفع لهذا الحد؟». أضفت لكنتها البريطانية الطفيفة على العبارة درجة أشد من الحدة.

«ما الذي تعنينه؟».

قالت: «لا عليك»، ثم همهمت لنفسها بشيء باللغة العربية، وجذبت الوسادة فوق رأسها.

أخبرت والدتي أنني أرغب في العودة مبكرًا، لكنها طلبت مني أن أمهل الأمر بضعة أيام أخرى. وكالعادة، كانت محقة. في نهاية المطاف اعتاد جسدي على الميكروبات، واعتدت اسم يوسف الذي يناديني به

الجميع. بدا الجو الحار والتلوث أمرًا طبيعيًّا، وبنهاية ذلك الأسبوع صرت أنا وعائشة لا نفترق.

قضينا معظم أيامنا نهارًا ونحن نسترخي في المنزل، ونشاهد الأفلام المصرية القديمة بالأبيض والأسود على شاشة التلفزيون، ونقرأ سلسلة تاريخ العالم المصور، أو نساعد عمتي بسيمة في المطبخ. لعبنا ألعاب الألواح المختلفة، وكتبنا حكايات مغامرات تدور في سيبيريا وفي الصحراء. وعلمتني عائشة النسخة المصرية من لعبة الحقيقة والتحدي، وسهرنا نلعبها حتى وقت متأخر من الليل، بينما باقي أفراد الأسرة غارقين في النوم.

لكن على الرغم من استمتاعي بقضاء الوقت مع ابنة عمي، فإن أفضل الأيام كانت تلك التي يوافق فيها والدي أن يصطحبني معه في جولات عمله. بعد الغداء، كنا نستقل سيارة أجرة لمدينة نصر، أو الدقي، أو حي آخر مجهول بالنسبة لي، وكنا نسير معًا عبر الشوارع الرئيسة، نروج لتجارة الحاصلات الزراعية المزدهرة الخاصة بعمي حسن. كان والدي تاجرًا بالفطرة، وكان من الممتع مشاهدته أثناء عمله. بينما هو يتبادل المجاملات ويمزح ويدخن السجائر ويشرب كوبًا بعد كوب من الشاي الأسود المحلى، جلست أنا بهدوء في ركن المطعم أو كشك الخضراوات، أقرأ قصصي المصورة وأفكر في الأرز باللبن الذي كنا نتشارك في أكله عند نهاية كل يوم. وفي بعض الأحيان، كان أحد الندل الودودين أو أحد أصحاب الدكاكين يوجه دفة الحديث نحوي، فكنت أرد بالعبارات العربية التقليدية التي لقنتني إياها عائشة.

«أنا لا أتحدث العربية بصورة جيدة. أنا أمريكي من أصل مصري. وأحب القاهرة كثيرًا».

كان هذا كافيًا في العادة ليرضي فضولهم، وكان حقيقيًّا بالفعل. بخلاف تلك الأسابيع الأولى، قضيت إجازة صيفية رائعة. ركبت جَمَلًا مع أبي وراء الأهرامات، وزرنا المومياوات في المتحف المصري، وصعدنا الدرج حتى قمة برج القاهرة، حيث شاهدنا المدينة بأكملها ممتدة أمام أعيننا مثل الخريطة. لكن دونًا عن كل أيام تلك الإجازة الصيفية، فإن ما ظل عالقًا في ذهني هو عصر ذلك اليوم الذي اصطحبنا فيه أبي، أنا وعمي حسن وبعض أبناء العمومة البعيدين من الذكور، لنستقل فلوكة في النيل.

كان يومًا مشرقًا بسماء بيضاء وزرقاء. هب نسيم خفيف عبر صفحة النهر، والتمعت نوافذ العمارات العالية على ضفته بأشعة الشمس المنعكسة. جلست مع والدي في مؤخرة المركب بينما جلس عمي حسن وأبناء عمومتي في المقدمة. سار بنا المركب في النيل قرابة الساعة حتى ألقى الريس الهلب قرب الطرف السفلي لجزيرة الزمالك وخلع الجميع ملابسهم عدا الملابس الداخلية، وقفزوا في الماء. أشاروا لي كي أنضم إليهم، لكن على الرغم من طمأنة والدي لي، إلا أنني لم تكن لديَّ ثقة في النهر. بدا لي وكأنه ذلك النوع من الأنهار -بلون طميه الشبيه بالقهوة- الذي يمكنك أن تجد فيه العلق أو أسماك البيرانا، أو على الأقل ذلك النوع من الأسماك الصغيرة الزلقة التي تأكل خلايا الجلد الميتة من قدميك.

«لا، شكرًا». اعتذرت باللغة العربية وملت مستندًا على جانب المركب لأوضح أنني أشعر بالراحة في مكاني هكذا.

صعد عمي حسن للمركب ثانية بعد بضع دقائق قضاها في الماء. أذكر أنه ابتسم وبدا وكأنه يستعد ليشعل سيجارة. فجأة، مال للأمام ولف ذراعيه حول صدري وألقاني في النيل. انقطع نفسي من المفاجأة، وعندما صعدت لسطح الماء وأنا أبصق وأسعل بينما أحاول أن أطفو بحذاء وملابس مبللة كان الجميع يضحكون. غنى أبناء عمومتي أغنية هزلية لأجلي، وضحكت معهم رغم علمي أنني كنت محل سخرية.

عندما عدت لسطح المركب، خلعت ملابسي المبللة وفرشتها حتى تجف. امتلأت عيني بدموع الغضب، لكنني حبستها بدافع من خبرتي التي علمتني أن البكاء يزيد الأمور تعقيدًا. شعرت بالغضب تجاه عمي حسن، لكنني كنت ألوم والدي أكثر منه لأنه سمح بحدوث ذلك، ولم يقم بحمايتي، ولأنه كان يضحك بصوت خفيض وهو يلف كتفي بالفوطة. النقطة التي كانت في صالحه هي أنه لم يقل شيئًا عندما رآني أشعر بالغضب هكذا. لم يحاول أن يفسر موقفه أو يقدم اعتذارًا. فقط اكتفى بالجلوس معي في مؤخرة المركب بينما نتأمل المياه البنية القاتمة وهي تمر على مبعدة بضعة أقدام بالأسفل.

أخيرًا نطق قائلًا: «هناك مثل يقول بأنك لو شربت من ماء النيل فسوف تعود إليه دومًا، أما لو سبحت فيه فإنك لن تغادره أبدًا».

ثم مال على جانب المركب وملأ كفيه بالماء. «هذه دماؤنا». استمر في حديثه وهو يجعل الماء يتسرب من يديه على ركبتي، «عاشت أسرتنا

على ضفاف النيل قرابة الألف عام، فهذا النهر يجري في عروقنا».

أشعل سيجارة، وساد الصمت بيننا لفترة من الوقت.

قال وهو يلقي عقب السيجارة التي دخن نصفها في النيل: «نحن حرَّاس». عندما لم أرد، واصل قائلًا: «لقب عائلتنا، الراقب، معناه الحارس أو الذي يقوم بالحراسة».

«الذي يقوم بالحراسة». كررتها فابتسم.

«الرقيب هو الاسم الثالث والأربعون من أسماء الله».

سرح لوهلة وهو يحمي عينيه بيده من وهج الشمس، ثم سألني نفس السؤال الذي كان يسأله لي كل ليلة أحد: «هل تود أن تسمع حكاية؟».

قلت: «أجل». فشرع يحكي.

«كان هناك صبي اسمه علي...».

لا بد وأنني قد سمعت تلك الحكاية أكثر من عشر مرات من قبل. لكن في عصر ذلك اليوم تحديدًا -وأنا أشاهد الضباب وهو ينقشع عن المدينة- بدت الحكاية أقرب وأصدق وقعًا. كان النهر الذي يجري أسفل منا على مسافة بضعة أقدام هو ذات النهر الذي سرى عبر المدينة منذ ألف عام مضت، عندما شغل علي الراقب منصب الحارس لأول مرة، وكان هو ذات النهر الذي فاض على جانبي الوادي كل ربيع لمئات السنين.

قال والدي وهو ينهي الحكاية: «نحن نحرس المعبد، ونحمي أسراره».

قلت متسائلًا: «أسرار؟».

اعتدل في جلسته وألقى نظرة وراء كتفه وهو يخفض صوته بعض الشيء؛ حتى لا يسمع شخص آخر على ظهر المركب ما يقوله.

أخبرني أنه في أحد أركان ساحة المعبد تقع البئر التي تحدد مكان انتشال موسى من النيل وهو رضيع. وأسفل بلاطات المدخل الرئيس، كانت هناك حجرة مخزن مليئة بالآثار المقدسة بما في ذلك لوح خشبي من سفينة نوح. وفي حجرة العلية، خلف لوح يخفي خزانة سرية، يقبع أعظم سر في الأسرار كلها، وهو لفافة عزرا.

مال للأمام واقترب مني لدرجة أنني شعرت بأنفاسه على وجهي.

قال إنه منذ أكثر من ألف عام مضت، في عصر الأنبياء، عاش كاتب متقد الحماسة اسمه عزرا أخذ على عاتقه مهمة كتابة التوراة بصورة مثالية لا يشوبها خطأ أو تحريف. عمل على كتابة اللفافة لسنوات طويلة وعندما انتهى من عمله أخيرًا، قدمها للمجتمع بأكمله. اجتمع الناس خارج أسوار القدس، وعندما فتح عزرا اللفافة نهضوا جميعًا واقفين، فقد كانوا يعلمون أن هذه هي النسخة الوحيدة الحقيقية من كلام الرب. كان كتابًا مثاليًّا، يلتمع بقوة سحرية بإمكانها شفاء المرضى وهداية الحيارى وجلب أرواح الموتى من العالم الآخر.

«هل رأيته؟» سألته: «هل هو حقيقي بالفعل؟».

أشعل والدي سيجارة أخرى، وحملق في صفحة الماء، وكأنه بإمكانه رؤية حكايته منعكسة هناك.

في النهاية قال: «يكفي هذا القدر اليوم». وأدركت أنه يجب عليَّ أَلَّا ألح أكثر من ذلك.

جلست بجوار والدي في مؤخرة المركب طوال الطريق ونحن نبحر عائدين تجاه كوبري ١٥ مايو، وأنا أتأمل صفحة النهر وأفكر في تاريخ عائلتنا البطولي، وفي لفافة عزرا وأجيال الحراس الذين قاموا على حمايتها.

لفترة طويلة من طفولتي كان لقب أسرتي –الراقب– يبدو وكأنه عبء ثقيل. لطالما كرهت الأسئلة التي أثارها، والسخرية، والتساؤلات من البالغين حسني النية الذين تعجبوا من أين أتى مثل هذا الاسم. كنت أكره تلك اللحظة التي لم يكن هناك مفر منها، عندما يتوقف أحد المدرسين ويرفع نظره عن كشف الغياب ويعتذر مقدمًا عن نطقه الخاطئ للاسم. حتى مظهره بالأحرف الإنجليزية بدا غريبًا –*al-Raqb*– بالشرطة الفاصلة في منتصفه والحرف المصغر في بدايته، والحرفين الساكنين اللذين يصعب نطقهما في نهايته. في الصف الثالث الابتدائي، وبعد حادث محرج للغاية مع أحد المدرسين الجدد، شننت حملة مطولة نوعًا ما كدت أنجح فيها، لتغيير لقبي لشيماريا مثل أمي، أو ليفي مثل بيل. لكن عصر ذلك اليوم على صفحة النيل لم أكن لأبدل لقب الراقب بأي لقب غيره.

قلت لنفسي، أنا الحارس. الذي يقوم بالحراسة.

* * *

كثيرًا ما ناقشت مع أبي بعدها الخطط كي أقوم بالزيارة مرة ثانية. لكنّ أسبابًا متنوعة مثل المال أو المعسكرات الصيفية أو تعارض جدول أعمالنا، حالت دون تكرار الأمر. بمرور السنوات، انحسرت القاهرة عن مخيلتي. أنهيت دراستي الإعدادية ودخلت المدرسة الثانوية. حلت تمارين الركض واختبارات المستوى الرفيع ومحاولات كتابة الشعر الرديء محل ألعاب الفيديو ومرحلة البلوغ والنمو. بدأت دراستي الجامعية، وأعلنت ميولي المثلية، وكونت صداقة مع مجموعة من طلبة الفنون في سكن الطلاب الذي أقيم به، ودون أن أشغل بالي كثيرًا بما يحمله لي المستقبل، قررت التخصص في دراسة اللغة الإنجليزية. اعتدت ارتداء الكوفيات الصوفية الطويلة والكنزات السميكة، ومعطف قصير من الصوف أسمر اللون اشتريته من أحد محال الملابس المستعملة في سومرفيل. بدلًا من قضاء الوقت في المكتبة مع باقي أصدقائي، قرأت الكتب المقررة عليّ -السيدة دالواي، وجون دون، والرجل الخفي- في مقهى رطب في شارع كومونويلث، بينما أحاول إخفاء نظراتي المختلسة للعامل الذي يقوم بإعداد القهوة، أو للرجل الجالس في الطرف المقابل من الغرفة.

كان كل شيء يسير على ما يرام. وفي ليلة أحد قرب نهاية عامي الجامعي الأول، تلقيت اتصالًا هاتفيًا من عائشة. قالت إن أبي مريض وإنني ربما أرغب في زيارته.

سألتها وأنا أرفع إصبعي لألفت نظر أصدقائي أنني قد أتأخر لبضع دقائق: «هل يمكنني أن أتحدث إليه؟».

قالت: «إنه لا يريدنا أن نخبرك بالأمر، لكن يجب عليك أن تأتي. ستفيده رؤيتك».

قال كل من أمي وبيل إنهما سيتكفلان بثمن تذكرة الطائرة، ووافقت المجلة الأدبية التي كنت سأتدرب على العمل فيها ذلك الصيف أن أتأخر في استلام عملي بضعة أسابيع، لذا سافرت. عدت للقاهرة ثانية بعد ثمان سنوات وقد ازداد طولي اثنتي عشرة بوصة. تحول الصبي النحيف الحساس ذو الأحد عشر عامًا إلى طالب جامعي يتمتع بالثقة بالنفس إلى حد كبير، له هيئة مشعثة ومعتد بنفسه، ومتطلع لما قد تسفر عنه الأمور.

في تلك الأثناء كان والدي يذوي من المرض. أخبرتني عمتي بسيمة بما قاله الأطباء، لكنني لم أكن بحاجة لأن أعرف عدد كريات دمه الحمراء لأعرف أنه ليس على ما يرام. ظهر الإرهاق على وجهه، وبدت بشرته شاحبة كأنها نوع من أنواع الجبن الطري. في معظم الأيام كان يفتقد للطاقة التي تساعده على الخروج، لذا قضيت معظم أيام زيارتي له وأنا جالس بجواره على الأريكة، ونحن نشاهد الأفلام المصرية القديمة بالأبيض والأسود، بينما هو يحتسي الشاي ويعد أقراص الدواء الموضوعة أمامه على الصينية.

«لا داعي لأن تجلس هنا طوال اليوم». كررها أكثر من مرة. «اخرج واستمتع بوقتك».

لكنني كنت أعلم أنه سعيد بوجودي، كما كنت أعلم أنني في يوم من الأيام سأشعر بالسعادة أنا أيضًا لأنني مكثت بجواره. تحدثنا عن دراستي وعن خططي للمستقبل. حكيت له عن بوسطن وعن

فترة تدريبي في المجلة. تناقشنا في السياسة المصرية بطبيعة الحال، وشرحت له معنى مصطلح «ما بعد الكولونيالية». لكنه لم يرغب في الحديث عن صحته. عندما كنت أسأله عن حاله وعن إذا كان العلاج الكيماوي يؤثر على شهيته، كان يغمض عينيه كأن السؤال نفسه يؤلمه، ويقوم بتغيير الموضوع.

قال عصرًا ذات يوم عندما ألححت عليه بصورة زائدة: «دومًا هو نفس الفيلم». نظر تجاهي، ثم التفت ثانية إلى التليفزيون حيث كان رجل وسيم كبير في السن يرتدي حلة سهرة ويحادث امرأة شابة يبدو عليها اليأس. «دومًا نفس الفيلم، حتى عندما يكون مختلفًا».

بطريقة ما، شعرت بالارتياح لعدم رغبة والدي في الحديث عن مرضه بالسرطان. كنت لا أزال أحاول تفهم الوضع، وأحاول التوفيق بين صورة ذلك الرجل الجالس على الأريكة وصورة والدي التي في مخيلتي. بالإضافة لذلك، كنت أتفهم أنك عندما تنطق بشيء ما فإنك تجعله أمرًا واقعًا. عندما تنطق بشيء ما، يصير عليك التعامل معه.

قالت عائشة بعدها ببضعة أيام: «يبدو سعيدًا للغاية لوجودك هنا». كنا في البار على سطح فندق فور سيزونز في حفل عيد ميلاد أحد أصدقائها من الجامعة: «يمكنك رؤية الفارق في ملامح وجهه».

على الطرف الآخر للمائدة انتقل الحديث من الغطس في شرم الشيخ إلى الحديث عن شقيق أحدهم الذي يعمل في قسم التسويق في شركة يونيليفر. كان أحد أصدقاء عائشة يحكي حكاية عن خادمة أسرته اللاجئة من السودان والتي تعيش على سطح منزلهم.

«فقط أتمنى لو...».

لم أكمل الجملة، لكنها كانت تعرف ما أود قوله.

«إنه لا يتحدث في الأمر مع أي شخص، لو كان هذا سيجعلك تشعر ببعض الراحة».

انزلقت بنظري للأسفل ناحية طبق من قشور الفستق ثم حولته بعيدًا وراء حافة السطح. في الأسفل امتزجت أنوار المدينة بعضها ببعض كأحاديث بعيدة لا يقطعها سوى الفراغ الأسود للنيل.

قالت عائشة وهي تتتبع نظراتي: «دومًا ما يكون التظاهر أسهل بالنسبة للجميع».

قلت: «أجل، أعتقد أنك على حق».

كان لتعليقها ذاك معنى مزدوج، لكنني لم أفسره سوى بعدها بعدة أيام عندما خرجنا جميعًا لتناول العشاء في المطعم المفضل لعمي حسن؛ مطعم لبناني فاخر في المهندسين له مفارش مائدة بيضاء ويرتدي فيه النُّدُل سترات قرمزية اللون. عندما شارفنا على الانتهاء من الوجبة -والمائدة مغطاة بالأطباق التي بها بقايا الحمص وبابا غنوج والكبة وورق العنب المحشي- شرع عمي يسألني بلكنته الإنجليزية المتكسرة عن رأيي في الشابات الجالسات على الطاولة المجاورة لنا.

قلت: «يبدو أنهن لطاف».

أصر عمي قائلًا: «لطاف للغاية».

«أجل». وافقته وأنا أجمع كومة من فتات الطعام في يدي. «لطاف للغاية».

كنت قد صارحت عائشة بميولي المثلية منذ بضعة أشهر مضت –بعد أن أخبرت أمي وبيل مباشرة – وأعتقد أن عمتي بسيمة أيضًا كانت تشك في الأمر. لكنني لم أكن أنتوي إخبار أبي ولا عمي حسن، على الأقل في الوقت الحالي. لم أكن متأكدًا من رد فعلهما، ولم أرغب في إضفاء المزيد من التوتر العصبي على أبي.

لكن بالطبع كان ذلك تحديدًا هو ما حدث في نهاية المطاف.

«ماذا هناك؟» ألحّ عمي حسن في السؤال عندما شعر بافتقادي للحماس. «ألا تعتقد أن الفتيات المصريات يلقن بك بما فيه الكفاية؟».

تدخلت عمتي بسيمة قائلة: «إنه مشغول للغاية بدراسته. أما أنت يا يوسف، فيجب عليك الاستمتاع بوقتك قليلًا. أنت في إجازة».

بذلت عائشة ما بوسعها لتغيير الموضوع.

«ما هذه التوابل؟» تساءلت وهي تقضم قطعة من الكبة. «قرفة؟ أو ربما جوزة الطيب؟».

لكن عمي حسن لم يتخلَ عن الموضوع.

قال عمي وهو يميل للأمام واضعًا يده على ساعدي: «أنت في إجازة. لو كنت ترغب يا يوسف، فأنا أعرف بعض الفتيات اللطاف».

قلت وأنا أبتعد عنه: «لا أريد أي فتيات لطاف».

«ما الذي تريده إذَنْ؟».

ترك سؤاله يتدلى أمامي مثل الطعم المغري، وأدركت في تلك اللحظة أن أمامي خيارًا. بإمكاني الاستمرار في إخفاء الأمر، والاستمرار

في حمايتهم وحماية نفسي. أو بإمكاني أن أصارحهم بكل شيء وآمل أن تصير الأمور على ما يرام. في لحظات الصمت التي تلت ذلك، تناولت رشفة من الماء، ووضعت الكوب بينما أنظر مباشرة في عيني عمي حسن. رفع حاجبيه منتظرًا جوابي، وشعرت برعدة تعتريني.

في حقيقة الأمر، لم تكن هوية من أقيم معه علاقة لتشكل أي فارق. لو حصلت على صديقة أمام الناس في العلن وأقمت علاقات مع الشباب في الخفاء لم يكن الأمر ليسبب مشكلة. كانت هذه هي طبيعة سير الأمور في مصر، على الأقل حسب فهمي الشخصي. كانت الخطيئة تكمن في الاعتراف نفسه.

قلت بنبرة صوت هادئة بقدر ما استطعت: «شبابًا. أريد بعض الشباب اللطاف».

في تلك اللحظة، قام أبي الذي كان يراقب الموقف كله في صمت ونهض ببطء من مقعده فاردًا كفيه على المائدة. حدج أخاه بنظرة احتقار ثم استدار وهو يترنح قليلًا من أثر جلسة العلاج بالإشعاع التي تلقاها في وقت سابق ذلك الأسبوع، وتوجه نحو الحمام.

عاد بعدها ببضع دقائق وجلس في مقعده وهو يمسح شفتيه بمنديل. لم ينطق بشيء، لا هو ولا أحد غيره. تناولنا التحلية ثم ركبنا السيارة عائدين للمنزل. جلس أبي وعمي حسن صامتين في مقدمة السيارة بينما أخذت عمتي بسيمة تحكي عن عمة والدها التي تزوجت رجلًا لبنانيًّا وعاشت في بيروت لأكثر من أربعين عامًا حتى ماتت في انفجار سيارة مفخخة كانت تستهدف أحد زعماء منظمة التحرير الفلسطينية

كان يشتري الكرواسون كل صباح من المخبز الكائن في نفس الشارع الذي تقطن به.

قالت عائشة بعد أن آوى الجميع للفراش: «يتصرف والدي كوغد أحمق في بعض الأحيان». وجهت ركلة لقدم مكتبها. «هل أنت متأكد أنك على ما يرام؟».

قلت وأنا أحملق في يدي: «أجل. أعتقد ذلك».

شعرت بوخز خفيف في أطراف أناملي، وبدت أنفاسي متسارعة أكثر من المعتاد. فيما عدا ذلك، كنت بخير. لم يتبرأوا مني، ولم يقم أحدهم بتكسير الصحون أو إطلاق الصيحات الغاضبة. لم يكن هناك حتى أي استهجان واضح للأمر. لكن عندما جلست بجوار والدي صباح اليوم التالي، بدت وسادة الأريكة الفاصلة بيننا وكأنها جدار حجري صلد. قضينا الأسبوع التالي في جو صامت يشوبه التوتر. خرجت بضع مرات مع عائشة وأصدقائها، واشتريت بعض التذكارات السياحية من خان الخليلي، ثم عدت لبوسطن وبدأت فترة التدريب في المجلة.

بعدها بأسبوعين، اتصلت عمتي بسيمة لتخبرني بتطورات الحالة الصحية لأبي.

قالت عند نهاية المكالمة: «إنه يرسل لك التحية».

«هل هو إلى جوارك؟» سألت: «هل يمكنني أن أتحدث إليه؟».

قالت سريعًا: «إنه نائم الآن. لكنه أخبرني أنه يريدني أن أوصل لك تحياته».

ظل الوضع هكذا طوال الصيف. في كل مرة كنت أتصل هاتفيًّا بعائشة أو عمتي بسيمة، كنت أطلب محادثة أبي عند نهاية المكالمة، وفي كل مرة كان إما نائمًا وإما يشعر بالإرهاق وإما لا يستطيع الحديث. كان يرسل تحياته ويسأل عن أحوالي لكنه لم يتمكن أبدًا من الحديث. قالت عائشة إنه فقط بحاجة لبعض الوقت، وفي نهاية المطاف أقنعت نفسي أن الأمور ستصير على ما يرام. يومًا ما سيتصل بي وسيعود كل شيء لطبيعته. لكن عائشة كانت مخطئة بالطبع. فلم يكن من الممكن أبدًا أن تعود الأمور لطبيعتها.

عندما سمحت حالته الصحية أخيرًا بالحديث في أواخر شهر أغسطس، كان حديثنا باردًا ومتكلفًا. كنا كزملاء دراسة قدامى تفرقت بنا سبل الحياة. تحدثنا عن الطقس والأخبار، وعن تجارة عمي حسن وطهو عمتي بسيمة. سألني عن فترة التدريب التي أقضيها وأخبرته أن واحدة من القصص التي قمت باختيارها من بين الخطابات المرسلة للمجلة قد يتم نشرها.

سألني: «عما تدور الحكاية؟».

حاولت أن أصف القصة، لكن انتهى بي الأمر مشتتًا بين الخطوط المختلفة للحكاية.

قال: «تبدو شيقة».

فهمت ساعتها -من الاهتمام المهذب الذي يبديه ومن التوتر البادي في تنفسه- أن الأمور قد لا تتحسن بيننا عن هذا الحد.

لكن الوضع لم يكن سيئًا للغاية. خلال سنتي الدراسية الثانية في الجامعة، خفَّت أعراض مرض أبي بعض الشيء، واستقرينا على نظام جديد، حيث كنا نتحادث مرة أو مرتين كل شهر صباح يوم الأحد. كان لتلك المحادثات دفؤها حتى لو لم تكن عميقة. أخبرته عن محاضرات اللغة العربية التي كنت أدرسها، وعن تفكيري في الالتحاق بالدراسات العليا. وعندما التحقت بها، تناقشت معه بخصوص مميزات وعيوب كل برنامج. تحدثنا عن الأسرة والسياسة والأدب وكرة القدم. لكننا تفادينا أي نقاشات عميقة، وحرصنا على الابتعاد عن أي مواضيع قد تفسد العلاقة بيننا. طوال سبع سنوات، لم نتناقش ولو لمرة واحدة بخصوص حياتي الشخصية. لم أذكر أبدًا أيًّا ممن كنت على علاقة بهم ولا أي انفصال عنهم. لم أتحدث حتى عن أصدقائي. ولم أسأله أبدًا عن علاجه ولا كيف يشعر. ولم أسأله أبدًا عما دار في باله ذلك المساء في المطعم اللبناني في المهندسين. لم أسأله أبدًا عن تركه للمعبد اليهودي ولا عن لقائه بأمي. لم أسأله أبدًا عن علي الراقب ولا عن لفافة عزرا. ولم أطلب منه أبدًا أن يقص عليَّ حكاية أخرى.

❊ ❊ ❊

- ٣ -

وصلت السيدتان أجنيس لويس ومارجريت جيبسون إلي القاهرة على متن القطار السريع القادم من الإسكندرية في الساعة الثانية والربع. هكذا أشار له جدول مواعيد القطارات: قطار الساعة الثانية والربع السريع، لكن في الواقع كان القطار بطيئًا لدرجة كبيرة. عندما وصلتا أخيرًا لمحطة القاهرة -بعد أن أخرتهما رياح شديدة وسيول وعطل في أحد المفاتيح الكهربائية لشريط القطار، إلى جانب بقرة هاربة وقفت تجتر طعامها في منتصف شريط القطار- كان المساء قد حل. أشارت ساعة جيب أجنيس للسابعة والنصف إلا خمس دقائق مساء، أي أنهما قد تأخرتا لأكثر من ثلاث ساعات عن جدول مواعيدهما.

بمعزل عن غيرها من الأمور، لم تكن متاعب السفر بقطار الساعة الثانية والربع السريع لتشكل مصدر إزعاج بالغ. لكن الشقيقتين التوأم كانتا على سفر لستة أيام متواصلة دون راحة أو نظافة كما ينبغي، وكان مزاجهما متعكرًا. منذ خمسة عشر عامًا مضت، ربما كانتا تشعران بإثارة المغامرة - عبور القناة، ورحلة القطار عبر فرنسا، ثم السفر على متن السفينة من مارسيليا. منذ خمسة عشر عامًا مضت ربما كانتا ستتغاضيان عن إزعاج البراغيث والرطوبة والشعور بدوار البحر. ربما

كانتا ستتناسيان كل ذلك بمجرد أن تلوح في الأفق هيئة القلعة بكل ضخامتها. لكن كل هذا لم يحدث منذ خمسة عشر عامًا مضت. كان ذلك في الشهر الأول من عام ١٨٩٧ وقد بلغتا الرابعة والخمسين من العمر منذ بضعة أسابيع مضت، وكانت أعوام عمرهما الطويلة تثقل عليهما. بصرف النظر عما قد تسفر عنه الأحداث، وبصرف النظر عما إذا نجحتا في العثور على الوثائق التي تسعيان للبحث عنها أم لا، فقد كانت هذه في الغالب هي رحلتهما الأخيرة لمصر.

هبطت أجنيس من القطار أولًا، تلتها مارجريت، ووقفتا بجوار حافة رصيف المحطة. لم يكن من السهل التمييز بينهما عن بُعد؛ فقد كانت كل واحدة منهما سيدة ذات مكانة تلتف بالفراء، قصيرة ولها عينان حادتان وشعر بني وخطه الشيب، التصقت خصلاته ببعضها وقد تم تصفيفه بحيث يصير مشدودًا برفق خلف الرأس. لكن لو تفحصهما المرء عن كثب فسوف يكتشف وحمة مارجريت الجلدية، وصرير ركب أجنيس في مشيتها، والاختلاف الطفيف في درجة خضار أعينهما. لكنهما بصفة عامة كانتا نسختين متطابقتين من بعضهما؛ أرملتين بريطانيتين لهما مهابة ويبدو عليهما التدين.

دون أن تدعا الضجيج المحيط بهما على رصيف المحطة يزعجهما، تأملت أجنيس ومارجريت القوس الحديدي لسقف المحطة الجديد، وصوت الطقطقة الصادر عن لوحة إعلانات الوصول والذي لم يكن له فائدة تُذكر. مر الباشوات المعممون بالأخضر بجوار عمال السفن نصف العرايا والفلاحين الذين غطتهم الأتربة بينما يرزحون

تحت أحمالهم من أجولة القطن الضخمة. عند أطراف الحشد، كان هناك بعض السيدات المحجبات اللاتي ترتدين ملابس داكنة اللون، واللاتي مررن بين جماعة من السياح البريطانيين الذين كانوا دون شك في طريقهم إلى فندق شبرد، أو ذاهبين لتناول الغداء في نادي الجزيرة أو لرحلة نيلية على متن سفينة بخارية. أشارت أجنيس بحركة بسيطة من ذقنها تجاه حمّال نوبي عجوز وقف يدخن سيجارة بجوار كشك بيع الصحف، فعبرتا رصيف المحطة متجهتين نحوه.

قالت مارجريت بلكنة عربية معسولة: «عذرًا. لدينا عشرة صناديق في قطار الثانية والربع القادم من الإسكندرية، كلها عليها اسما لويس وجيبسون. سنكون شاكرتين للغاية لو حملتهم للعربة التي تنتظرنا في الخارج».

تردد الرجل لحظة وهو يتفحص هيئتهما، ثم سحق سيجارته بكعب خُفه وذهب ليجلب أشياءهما.

نادته أجنيس قائلة: «بها أشياء قابلة للكسر». لكن لم يبدُ عليه أنه قد سمعها.

بعد أن تم تحميل صناديقهما وأخذ الحمّال أجره، انطلق سائق العربة عبر شارع كلوت بك تجاه فندق أنجلوتير. سلك الطريق الأطول عبر حدائق الأزبكية كما طلبت مارجريت.

قالت وهي تتوقع احتجاج شقيقتها: «سننعطف لمسافة بسيطة فقط عن طريقنا. لكن هذا الطريق ألطف كثيرًا، ألا تتفقين معي في ذلك؟».

قالت أجنيس وهي تسترخي في مقعدها: «أجل، أتفق معك».

فلم يكن هناك ما يضاهي المرور بين الحدائق في ضوء الغسق وسط الظلال التي يلقيها النخيل ونسيم الليل الدافئ مع صوت عجلات العربة فوق الحصى. أعاد كل ذلك نفس الشعور بالإثارة التي شعرتا بها في شبابهما عند أول زيارة للقاهرة منذ سنوات طويلة مضت. بدت المدينة القديمة تحت الأضواء الصفراء المتراقصة لمصابيح الغاز وكأنها مجرد خطوط عامة غير محددة: مجموعة من المآذن الغريبة المتناثرة في الظلام. وعندما ظهر الفندق من بين سياج من الشجيرات وسعف النخيل المقوس، بدا وكأنه كعكة ضخمة وردية اللون.

لم تكن هذه أول مرة لهما للإقامة في فندق أنجلوتير، لكن ديكورات المكان تغيرت لحد كبير خلال الأعوام الماضية. اكتست النوافذ في ردهة الفندق بستائر سميكة لها لون أزرق مائل للخضرة، وزين أحدهم جدران الغرفة بلوحات تصور مشاهد مصرية تقليدية، وكأنه يود أن يوحي أن النيل والأهرامات وجبل موسى وتماثيل أبي سمبل كلها تقبع على الجهة المقابلة من الجدار. تبعتا الفتى الذي يحمل أمتعتهما عبر ردهة الفندق، بينما تتأملان فوجًا سياحيًّا تجمع حول المدفأة الكبيرة وهم يتناولون المشروبات ويتحدثون بحماس عن العطور عالية الجودة التي يمكنهم شراؤها من خان الخليلي. بادلتهم مارجريت ابتسامة سريعة لطيفة، تكاد توحي أنها ترغب في التوقف لتبادل الحديث.

قال الفتى بعد أن قادهما أعلى الدرج: «تفضلا، غرفتكما». توقفت أجنيس أمام عتبة الغرفة رقم ٣٢٧ ومالت للأمام؛ حتى تتمكن من رؤية رقم الغرفة بصورة أوضح.

«غرفتكما». كررها الفتى فاردًا ذراعه ليشير لهما بالدخول قبله. تبادلت الشقيقتان نظرة، ثم رجعت أجنيس خطوة للخلف في الردهة.

قالت شارحة باللغة العربية: «للأسف، هذه ليست غرفتنا. فقد طلبنا غرفة بحرية بفراشين كبيرين وحوض استحمام. وهذه الغرفة قبلية، وربما أكون مخطئة، لكنني لا أرى أي حوض استحمام بها».

نظر الفتى لمارجريت التي هزت رأسها تؤيد شقيقتها.

قال بالإنجليزية رافعًا إصبعه: «لحظة من فضلكما». ثم هرول عائدًا لردهة الاستقبال في الفندق.

عاد بعد بضع دقائق ومعه أحد موظفي الاستقبال. كان ضخم الجثة وله مظهر شبيه بثمرة من ثمار الفاكهة الاستوائية الناضجة حد العطب. وصل لعتبة الغرفة رقم ٣٢٧ وهو يمسح العرق عن جبينه بمنديل وألقى نظرة داخل الغرفة.

«هل الغرفة لا تروق للسيدتين؟».

قالت أجنيس: «الغرفة لطيفة إلى حد كبير، لكنها للأسف ليست غرفتنا».

أوضحت له مارجريت أنهما قد طلبتا غرفة بحرية بفراشين كبيرين وحوض استحمام، بينما موظف الاستقبال يمص طرف شاربه ويراقب مسبحته وهي تدور بين أصابعه.

رد قائلًا: «هناك حجرة أخرى في هذا الطابق يمكنني أن أمنحكما إياها. متسعة للغاية ذات واجهة بحرية وبها فراشان كبيران».

كانت الغرفة رقم ٣٢٢ على الجهة المقابلة من الردهة، وكانت بالفعل أكثر اتساعًا من الغرفة رقم ٣٢٧ بواجهة بحرية وفراشين كبيرين وحوض استحمام له أقدام مخلبية في الحمام.

قال الموظف عندما لاحظ أن السيدتين تروقهما الغرفة الجديدة: «بالطبع فإن هذه الغرفة أعلى سعرًا إلى حد ما عن الغرفة الأخرى».

قالت مارجريت توافقه، بينما تلمس بيدها ساعد شقيقتها: «بالطبع».

أثناء أسفارهما في الشرق دون أن يكون لديهما أي دعم متمثل في أي رفقة من الذكور، تكونت لدى كلًّا من أجنيس ومارجريت غريزة قوية تساعدهما على كشف محاولات الاحتيال وقدرة على الفصال تضاهي قدرة أكثر التجار إلحاحًا في خان الخليلي. لم تكونا بحاجة إلى التقشف، فقد ترك لهما والدهما العزيز ميراثًا يكفي ويفيض كي تتعرضا لمحاولات الاحتيال ما تبقى لهما من العمر. بالنسبة للشقيقتين، كان الاقتصاد في النفقات مسألة مبدأ. وبالإضافة لذلك فقد كان بمقدورهما التبرع بكل جنيه تتمكنان من ادخاره للأغراض الخيرية. ففي حقيقة الأمر، كان موظف الاستقبال المتملق هذا يحاول سرقة التبرعات المخصصة لمساعدة الأيتام من ضحايا الحرب، وإنقاذ الوثائق والمخطوطات القديمة، وإنشاء سنودس جديد للكنيسة المشيخية في كامبريدج.

قالت مارجريت: «نرحب بدفع السعر الذي اتفقنا عليه في الشهر الماضي». مدت يدها في حقيبتها وأخرجت رسالة من صاحب الفندق،

بها تفاصيل الاتفاق بينهما. «سبعون قرشًا في الليلة على ما أعتقد».

قال موظف الاستقبال دون النظر في محتويات الرسالة: «أجل، سبعون قرشًا في الليلة بالإضافة إلى الضرائب والبقشيش».

* * *

بعد أن نقلتا الصناديق الخاصة بهما للغرفة ووزعتا البقشيش على كل من كان له ولو علاقة طفيفة بالأمر، تمددت أجنيس في فراشها لبعض الوقت، وتشاغلت مارجريت بالتأكد من أن كل متاعهما قد وصل بحالة جيدة. كانت الشقيقتان قد جلبتا معهما عشرة صناديق، امتلأت أربعة منها بمختلف الفساتين والتنانير الداخلية والأحذية والفراء والقبعات ومختلف الملابس الأخرى التي قد تحتاجان إليها في رحلة قد تتنقلان خلالها من غرفة الطعام في فندق شبرد إلى مجاهل صحراء سيناء. وامتلأ صندوقان آخران بالمعاجم والأناجيل والقواميس وكتب الرحلات والعديد من الكتب الأخرى الضرورية للتعرف على المخطوطات القديمة. واحتوى صندوق منهم على كل أنواع الأطعمة والأدوية التي كانتا تعلمان أنه لا يمكن الحصول عليها في القاهرة. بينما كان صندوق آخر يحتوي على حامل الكاميرا ومائتين لوح من ألواح التصوير الفوتوغرافي بالإضافة للكاميرا ذاتها وقطع خاصة بها جلباها من فالوفيلد. وامتلأ صندوق آخر بالمواد الكيميائية والمعدات التي ستحتاجان إليها في رحلتهما لسانت كاترين. واحتوى الصندوق الأخير على الأشياء التي طلبت منهما السيدة شيختر توصيلها لزوجها: جهاز تنفس وقطع الغيار الخاصة به، ومادة الكينين وعدسة مكبرة ضخمة.

بعد أن اطمأنت أن كل شيء على ما يرام، أخرجت مارجريت الشطرنج الخاص بهما من أحد الصناديق التي تحتوي على الكتب، وبدأت ترتب القطع فوق اللوح على طاولة جانبية صغيرة. كانت قد شارفت على الانتهاء من ترتيب القطع الخاصة بها، عندما طرق الفتى الذي حمل متاعهما الباب وقام بإدخال رسالة من تحت الباب.

سألت أجنيس وهي ترفع رأسها من فوق الوسادة لترى ما الذي تمسك به مارجريت في يدها: «أهي رسالة؟».

أمنت مارجريت على قولها قائلة: «من الدكتور شيختر».

قدمت الشقيقتان إلى القاهرة لمساعدة الدكتور شيختر في الحصول على الوثائق المخبأة في غرفة العلية بأحد المعابد في المدينة القديمة. كان من المخطط أن ترافقاه في سفره منذ البداية، لكنهما تعرضتا للتأخير في اللحظة الأخيرة في كامبريدج بسبب أحد الشؤون الهامة المتعلقة بتأسيس السنودس الكنسي، فاتفق الجميع أنه من الأفضل أن يسبقهما الدكتور شيختر حتى يتمكن من الشروع في العمل، والحصول على التصاريح اللازمة من الطائفة اليهودية. وبسبب ظروف السفر وسوء حالة نظام البريد في مصر، لم تصلهما أي أخبار منه منذ أن غادرتا كامبريدج من حوالي شهر مضى، وكانتا متلهفتين على سماع ما لديه من أخبار.

قالت أجنيس: «هلّا قرأتيها؟».

ألقت مارجريت نظرة على الرسالة التي كتبها الدكتور شيختر على عجالة بخط كبير، ثم جلست على حافة الفراش وشرعت تقرأ بصوت مرتفع.

بعد التحيات التقليدية والترحيب بهما في القاهرة، والاستفسار عن رحلتهما، قال الدكتور شيختر إن الشقيقتين ستسعدان لسماع تطورات عمله مع الحاخام بن شيمون، وإنه يتطلع لمناقشة هذه الأمور معهما بتفصيل أكثر في مساء اليوم التالي، حيث إنه يأمل أن تتمكنا من الانضمام إليه هو والآنسة دو ويت على العشاء.

قالت أجنيس عندما انتهت شقيقتها من القراءة: «أعتقد أن الحاخام بن شيمون هو كبير حاخامات القاهرة. لكن بحق السماء، من هي الآنسة دو ويت؟».

قالت مارجريت: «ليست لديَّ أدنى فكرة. لكن يبدو أن الدكتور شيختر كان منشغلًا للغاية طوال الفترة الماضية».

«لا يبدو هذا أمرًا مفاجئًا».

«ليس مفاجئًا على الإطلاق».

كانت أجنيس ومارجريت على معرفة بالدكتور شيختر منذ سنوات طويلة؛ فقد كانوا يرتادون نفس الدوائر في كامبريدج ويلتقون كثيرًا في منزل الدكتور تايلور. بالإضافة لاهتمامهم المشترك بالدراسات الإنجيلية، كان هناك رابط خفي آخر يجمعهم: الشعور بالمرارة لعلمهم أنه على الرغم من كل إنجازاتهم الأكاديمية، فإن ثلاثتهم سوف يظلون محاصرين في أطراف دائرة الدكتور تايلر، ولن يتمكن أحدهم أبدًا من الانضمام لعضوية هيئة التدريس بكامبريدج؛ الدكتور شيختر بسبب ديانته والشقيقتان بسبب جنسهما. لكن معرفتهم بهذا الأمر لم تشجعهم على تقوية أواصر علاقتهم، بل على العكس تمامًا. بين حين وآخر كانت

الشقيقتان تقومان بدعوة الدكتور شيختر لتناول الشاي مع مجموعة أخرى من الأشخاص، لكن علاقتهم لم تتطور أبعد من تلك المرحلة من الود والشعور المشترك بالمرارة، على الأقل حتى وقت قريب.

ففي عصر يوم من أيام فصل الربيع الماضي، دعت أجنيس ومارجريت الدكتور شيختر ليلقي نظرة على كومة من الوثائق التي جلبتاها معهما من رحلتهما الأخيرة لمصر. في مرحلة الفحص الأوّليّ، وجدتا بعض المخطوطات المثيرة للاهتمام، بما في ذلك كتاب أدعية من القرن الخامس عشر ومجموعة من المخطوطات التي يبدو أنها نوع من التعاويذ القديمة. عندما وصفتا له الوثائق قبلها ببضعة أيام في منزل الدكتور تايلور، شعر الدكتور شيختر بالإثارة، لكن عندما رآهم بنفسه بدا عليه عدم الاهتمام. أخذ يقلب مزيج الرسائل القديمة وعقود العمل وهو يتوقف بين وقت وآخر ليبتسم ابتسامة مهذبة أو ليقرأ بعض الكلمات بصوت مرتفع. لم يثبت نظرته على أي ورقة من الأوراق لأكثر من لحظة، حتى وجد في أسفل الكومة ما بدا وكأنه صفحة غير مميزة من أحد الأسفار العبرية القديمة. بعد أن حدق فيها لثلاث دقائق كاملة، طلب الدكتور شيختر أن يأخذ المخطوطة ليتفحصها بدقة أكثر. عندما عاد لاحقًا في مساء ذلك اليوم، كان في حالة أقل ما توصف به أنها هيستيرية. بعد أن تمكن من السيطرة على انفعالاته، قال إن المخطوطة تبدو وكأنها صفحة من النص العبري الأصلي لسفر حكمة يشوع بن سيراخ.

تبادلت الشقيقتان نظرة.

«النص العبري الأصلي؟».

قال الدكتور شيختر: «أعتقد ذلك».

كانت تداعيات الأمر كبيرة للغاية. فلو تم إثبات أن المخطوطة أصلية، فإنها ستمثل مصدرًا موثوقًا به لنص من نصوص سفر حكمة يشوع بن سيراخ، وقد تثبت أيضًا نظرية الدكتور شيختر الخاصة باللغة التي كتب بها السفر. لكن أكثر ما ولّد لديه شعورًا بالإثارة، هو احتمال وجود المزيد من المخطوطات من نفس المصدر الذي جاءت منه هذه المخطوطة. قادت حالة المخطوطة وحجمها والورق الذي كُتبت عليه الدكتور شيختر لأن يشك بأن هذه الصفحة من سفر حكمة يشوع بن سيراخ ما هي إلا زهرة واحدة في حقل ضخم من الزهور كما وصف هو الأمر. ارتعشت يداه بشدة لدرجة أنه لم يتمكن من تناول الشاي بينما هو يحاول شرح التحريم اليهودي للتخلص من لفافات التوراة وكتب الأدعية وأي أوراق أخرى قد تحوي اسم الرب، وكيف أن معظم الطوائف اليهودية كانت تدفن هذه الوثائق في ركن مخصص لها من المدافن، بينما اختار آخرون تخزين مثل هذه الوثائق الدينية في غرفة علية أو مخزن يعرف باسم الجنيزة؛ حتى يتمكنوا من التصرف فيها بشكل لائق فيما بعد.

على الرغم من عدم ترابط حديثه، إلا أن سبب شعوره بالإثارة بدا واضحًا. في مكان ما بالقاهرة القديمة كان هناك معبد يهودي امتلأت حجرة العلية به بالمخطوطات العتيقة التي لم ترَ ضوء الشمس منذ مئات السنين. لو تمكنوا من الحصول على هذه المخطوطات وجلبها إلى كامبريدج، فسيكون ذلك من أهم الاكتشافات خلال العشرين عامًا الماضية، وسيكون له تبعات كبيرة على الشعائر الدينية وعلم اللغويات

والدراسات الإنجيلية. لكنهم كانوا بحاجة للتحرك السريع، فإذا كانت أجنيس ومارجريت قد تمكنتا من شراء هذه المخطوطة من أحد تجار المخطوطات، فإن هذا يعني أن بإمكان أي شخص آخر شراؤهم أيضًا. كان هناك شخص ما له صلة بالمعبد -أحد أفراد الطائفة اليهودية أو ربما أحد العاملين هناك- يبيع الوثائق في السوق السوداء، ومن دون تدخل سريع منهم، فقد يتفرق هذا الكنز الدفين من المخطوطات في جهات العالم الأربعة.

كانت لدى أجنيس ومارجريت شكوك بأن المعبد قد يحتوي أيضًا على كنز أكبر: لفافة عزرا. ففي ذلك الصباح يوم رحلتهما من الإسكندرية إلى القاهرة وجدت مارجريت فقرة في كتاب من كتب الرحلات يعود للقرن السابع عشر تذكر أن الخزانة التي يتم حفظ لفائف التوراة بداخلها في معبد بن عزرا بها «فجوة بداخلها نسخة من شريعة موسى كتبت بخط يد عزرا الكاتب نفسه، تقدست ذكراه». أطلقت صيحة فرح صغيرة عندما قرأت تلك الكلمات وعرضت الفقرة على شقيقتها التي أبدت رد فعل مماثلًا لها. مجرد فكرة وجود لفافة عزرا -النسخة المثالية من الكتاب المقدس اليهودي بخط النبي عزرا نفسه من آلاف السنين- كانت كفيلة بإصابة المرء بالقشعريرة من شدة الإثارة. لو كانت موجودة حقًّا، ولو تمكنتا من العثور عليها وإحضارها لكامبريدج فستصير تبعات ذلك الأمر بالغة للغاية. بدت الفكرة رائعة لحد يجعل مجرد التفكير فيها أمرًا مشوقًا. كانت لفافة عزرا التي تمثل مصدرًا لا يمكن التشكيك فيه للعهد القديم دون أي خطأ أو تحريف، ستصبح

أكبر كشف أثري في ذلك القرن إن لم يكن خلال الألفية كلها. ستشتهر أسماء السيدة أجنيس لويس والسيدة مارجريت جيبسون، وسيذكرهما التاريخ لسنوات طويلة. والأهم من ذلك أن اللفافة ستشكل دليلًا على كلمة الرب الحق، نسخة مثالية لا يرقى إليها شك من التوراة اليهودية دون تدخل أو تحريف. وهكذا جلستا هناك في الغرفة رقم ٣٢٢ بفندق أنجلوتير، وهما تشعران بالتعب وتعكُّر المزاج، بينما تئن عظامهما بعد حوالي أسبوع من السفر. كانتا تتوقان للشروع في البحث، لكن تعبهما الراهن حال دون ذلك.

«هل تشعرين بالجوع؟» ألقت أجنيس بالسؤال فهزت مارجريت رأسها بالنفي.

«ليس على وجه الخصوص».

«إذن لا أرى سببًا يمنعنا من الخلود للنوم».

«كلا». وافقتها مارجريت قائلة: «ولا أنا».

بعد الانتهاء من تمارين المساء الرياضية، اغتسلتا وبدلتا ملابسهما لترتديا ملابس النوم.

سألت أجنيس وهي تستلقي نائمة على بطنها: «هل تمانعين يا ميجي؟».

«بالطبع لا أمانع يا نسطور».

في الصندوق المخصص للطعام والأدوية، وجدت مارجريت زجاجة صغيرة من الدهان الذي تم تركيبه خصيصًا لهما، والذي كان

يخفف إلى حد كبير من حدة آلام الروماتيزم الذي تعاني منه شقيقتها، رغم رائحة الأفيون والفلفل الحار التي تفوح منه. فركت الدهان بين كفيها ثم حلت أزرار ثوب شقيقتها ودهنت ظهرها العاري بطبقة منه.

كانتا وحيدتين منذ زمن طويل مضى؛ فقد توفي زوج مارجريت الحبيب، السيد جيبسون، بعد ثلاث سنوات فقط من زواجهما، كما توفي صامويل زوج أجنيس العزيز بعده بأقل من خمس سنوات. لم تكن هذه هي الحياة التي تخيلتاها لأنفسهما -بلا أزواج ولا أولاد ولا اهتمامات منزلية- لكنهما قضيتا حياتهما بصورة جيدة في السعي وراء المعرفة والصالح العام. وشكلت ثقتهما أن إنجازاتهما كانت ستصبح مدعاة لفخر زوجيهما، مصدرًا للراحة بالنسبة لهما. كانت لهما قضاياهما التي تناصرانها، وكانتا تدعمان كنيستهما وترسلان الخطابات لصحيفة التايمز. وعندما لم تكونا منشغلتين بالسفر في الشرق الأدنى بحثًا عن المخطوطات القديمة التي قد تلقي بعض الضوء على أصول دينهما، كانتا تقضيان جل أيامهما في هدوء، سواء في القراءة أو دراسة قواعد اللغة العربية في حجرة الصالون. مثل أي شراكة، كانت تجري بينهما المفاوضات، وكانت علاقتهما مبنية على توازن دقيق بين الخدمات المتبادلة والحالات المزاجية المتقلبة. بالطبع كانت تقع بينهما بعض الخلافات، لكن بصورة عامة كانت علاقتهما طيبة إلى حد كبير؛ فقد كانت كل واحدة منهما تعرف طريقة تفكير شقيقتها، كما تعرف طريقة تفكيرها هي شخصيًّا.

في تلك اللحظة تحديدًا -بينما أجنيس ممددة نائمة على بطنها ومارجريت تقوم بدهان ظهر شقيقتها- كانتا تفكران كما هي عادتهما في كثير من الأحيان في والدهما الحبيب. مضت على وفاته سنوات طويلة، لكنهما كانتا تتذكرانه بوضوح، وهو منحنٍ أثناء عمله على مكتبه، ويوبخهما لإظهار الكبر بصورة مبالغة، أو يمتدحهما لنص قامتا بترجمته بصورة جيدة.

أين كان سيصل بهما الحال لولا إرشاده وأحيانًا توبيخه؟ كان هو من هيأ لهما الفرصة للحصول على تعليم مناسب، وهو من أوقد فيهما شعلة الإيمان، وهو من رسخ في ذهنهما أهمية العمل بجد والاهتمام بما يدور حولهما في العالم فيما وراء جلاسجو وأدنبرة ولندن. فعلى الرغم من أنه لم يكن من أنصار تعليم الفتيات بصفة عامة، فقد رأى مواهبهما الكامنة منذ سن مبكر وعزم على القيام بتعليمهما بنفسه. بدأ بتعليمهما اللغتين اللاتينية واليونانية عندما كانتا في الخامسة من العمر، ثم انتقل للعبرية والعربية والآرامية. لمدة ستة أيام من كل أسبوع، منذ الإفطار وحتى العشاء، كانت أجنيس ومارجريت تعملان جنبًا إلى جنب تترجمان بهمة أعمال شيشرون وسفر الخروج وابن سينا. كانت طبيعة أحاديثهم على مائدة العشاء في الغالب تعليمية، لكن كل ليلة بعد الانتهاء من رفع الأطباق عن المائدة وغسلها، كان والدهما يقرأ لهما بصوت مرتفع من الأوديسة أو ألف ليلة وليلة. وبينما هما تخلدان للنوم، امتلأت أحلامهما بصوته مع السفن الخشبية والقصور الرخامية والمصابيح السحرية والمغارات المظلمة المليئة بالكنوز.

* * *

في المساء التالي -بعد يوم لطيف قضيتا معظمه في القراءة والتنزه في الحدائق والحديث مع أصدقائهما في سوق الكتب القديمة- استقلت أجنيس ومارجريت عربة إلى فندق الدكتور شيختر.

قال وهو يثب قائمًا من مقعده، بينما هما تدلفان إلى ردهة الفندق: «كم أنا سعيد لرؤيتكما».

بشعره المهوش ولحيته الضخمة ذات اللون الفضي، بدا الدكتور شيختر وكأنه ينتمي إلى رهبان جبل موسى، أكثر مما ينتمي إلى السياح الذين يملأون ردهة فندق حديث.

واصل حديثه قائلًا: «من الرائع أن ألتقيكما أخيرًا. يجب عليَّ الاعتذار عن عدم التواصل بالرسائل في الفترة السابقة، لكننا كنا منشغلين للغاية هنا. لقد حققت تقدمًا كبيرًا مع الحاخام بن شيمون، تقدمًا كبيرًا للغاية».

طوال الأشهر الستة الماضية، تحول الدكتور شيختر الذي كانت له شخصية محمومة بطبعه، ليصير وكأن به مسًّا وهو يهمهم محادثًا نفسه في شارع كينجز باريد، أو وسط الكتب في مكتبة جامعة كامبريدج دون أن يهتم بالاغتسال أو بهندمة ملابسه، فظهر للناس من حوله وكأنه أصيب بالجنون. وبدا من مظهره أن وجوده في القاهرة لم يعمل على تهدئة أعصابه، على الرغم من أنه قد اشترى لنفسه بدلة جديدة على ما يبدو.

قال للشقيقتين: «لدينا بعض الأخبار المثيرة. في غاية الإثارة».

قالت أجنيس وهي تحول نظرتها للشابة البادية الجمال التي كانت برفقة الدكتور شيختر: «لدينا؟».

قال ووجهه تشوبه حمرة خفيفة: «أستميحك عذرًا . فلتسمحا لي أن أقدم لكما الآنسة إميلي دو ويت، من كلية جيرتون. ألم أذكر من قبل أن برفقتي إحدى الطالبات للمساعدة في أعمال النسخ؟».

قالت أجنيس: «لا يمكنني القول بأنني أذكر أي شيء بخصوص إحدى الطالبات، لكنني في الواقع أجد صعوبة حتى في تذكر اسم كلبي الأليف».

بادلت مارجريت شقيقتها ابتسامة.

«شرفت بلقائك يا آنسة دو ويت».

قالت وهي تنحني بلطف انحناءة طفيفة: «الشرف كله لي أنا».

«لدينا بعض الأخبار المثيرة». كرر الدكتور شيختر قوله وهو يقودهما لغرفة الطعام بالفندق. «لقد حققت تقدمًا كبيرًا مع الحاخام بن شيمون».

كان أسلوب حديث الدكتور شيختر عن المشروع يثير الإزعاج إلى حد ما. ففي خلال الأشهر الماضية، استولى على مسؤولية الرحلة وكأنها تخصه وحده، وهو يشير للوثائق وكأنه هو من وجدها ويكرر شكره للشقيقتين على مساعدتهما إياه. كانتا بالطبع قد حصلتا على نصيبهما من التكريم منذ بضع سنوات بعد اكتشافهما لمخطوطة دير سانت كاترين. طلب من أجنيس إلقاء كلمة أمام الجمعية الملكية الآسيوية، وكتبت

الصحف حول العالم تمتدح حكاية مارجريت بخصوص الكشف. قال الكثيرون إنه واحد من أهم الاكتشافات منذ العثور على المخطوطة السينائية. لكن الشهرة كانت مجرد عرض جانبي. لو كانت تجربتهما -اكتشاف المخطوطة وجلبها وتردد اسمهما في الصحف- قد أفادتهما في شيء، فهي أنها قد ذكرتهما بقول والدهما الذي اعتاد ترديده: «ما يهم هو النص، وليس الكاتب». لم تكن الشهرة هي الهدف من عملهما أو من أي نشاط علمي، بل المهم هو التراكم المستمر للمعرفة وإلقاء الضوء على نص من النصوص القديمة، واكتشاف ما يرقد ملتفًّا حول نفسه مختبئًا في المخطوطات القديمة التي تعلوها الأتربة.

كرر الدكتور شيختر مرة ثانية: «تقدمًا كبيرًا».

لم يستطع السيطرة على انفعالاته أكثر من ذلك، فشرع يحكي بصورة مسرحية عن الوقت الذي قضاه في القاهرة، ويشرح تفاصيل سلسلة لقاءات جمعته بكبير الحاخامات وبعض الأشخاص الآخرين ذوي الحيثية من الطائفة اليهودية. كان هناك مجلس إدارة غير رسمي مؤلف من السيد بيخو والسيد موصيري وثلاثة أو أربعة أفراد آخرين إلى جانب الحاخام بن شيمون. نظرًا لمعرفته بطبيعة الشخصية الشرقية، قضى الدكتور شيختر معظم الأسبوعين الماضيين في تبادل الزيارات وشرب القهوة وتدخين السجائر، وفي الجولات حول أرجاء المدينة. اعترف أن الأمر في بعض الأوقات بدا وكأنه مجرد تضييع للوقت. وأخيرًا منذ ثلاثة أيام مضت، بدت جهوده وكأنها قد أثمرت. منحه الحاخام بن شيمون تصريحًا بدخول الجنيزة، وألمح له أنه سوف يؤيد

فكرة الاحتفاظ بمجموعة الوثائق بأكملها في مكتبة جامعة كامبريدج.

سألت أجنيس: «وما الذي يريده في المقابل؟».

بعد أن تعاملت مع مختلف المصريين من تجار الإبل البدو حتى البطاركة الأقباط، وجدت صعوبة في تصديق أن الحاخام بن شيمون سوف يتخلى عن مثل هذه المجموعة الثمينة من الوثائق دون مقابل.

قال الدكتور شيختر: «لا يريد شيئًا. على الأقل ليس على حد علمي. فالحاخام بن شيمون يعرف القيمة العلمية الكبيرة لوثائق الجنيزة، وقد نجحت في إقناعه أننا سنحافظ عليها بصورة جيدة في كامبريدج. إنه شخصية رائعة ومستنيرة. أنا واثق أنكما ستتفقان معي في الرأي عندما تلتقيان به».

«وأنا أيضًا واثقة من هذا». قالتها مارجريت على الرغم من أنها كانت تشارك شقيقتها في شكوكها؛ فقد أكدت لهما تجاربهما أن أكثر الشخصيات دهاء، هي تلك التي كان يبدو عليها في بادئ الأمر أنها ليست لديها أي دوافع خفية.

قال الدكتور شيختر وهو يعيد توجيه دفة الحديث: «قمت بزيارة المعبد مرتين. وفي الواقع فإن الجنيزة تفوق كل ما تخيلته عنها».

توقف ليسعل بينما النادل يقدم لهم وجبة العشاء -وجبة من اللحم للسيدات، وللسيد وجبة حلال طبقًا للشريعة اليهودية وفرها له كرم مجلس إدارة الطائفة اليهودية- ثم واصل الدكتور شيختر حديثه ليصف لهم الكم الضخم من الأوراق والكتب والرسائل والتراب الذي يعلو كل

شيء، وقد اختلطوا جميعًا دون أي ترتيب على الإطلاق. لم تكن لمعظم الوثائق أي قيمة علمية تذكر -عقود عمل وعقود زواج وصكوك ملكية ومحاضر عمل المحكمة الدينية- لكن كانت هناك وسط ذلك الركام بعض الجواهر الثمينة المدهشة. بعد زيارتين فقط تمكن من الكشف عن العديد من الوثائق الثمينة: صفحة من أحد كتب الهاجادا التي يتلوها اليهود في عيد الفصح تعود للقرن الرابع عشر، والنصف الأول من رسالة كتبها الشاعر الكبير والعلامة شموئيل بن يوسف الناجيد.

قالت أجنيس متعجبة: «شموئيل بن يوسف الناجيد». لكن قبل أن تتمكن من السؤال عن الرسالة، انتابت الدكتور شيختر نوبة أخرى من السعال.

قال: «إنها الجنيزة. لم أرَ مثل هذا الكم من الأتربة من قبل».

استمر في السعال حتى ناولته الآنسة دو ويت كوبًا من الماء.

قالت مارجريت: «لقد تركنا جهاز التنفس الخاص بك عند مكتب الاستقبال بالفندق. لو كنا نعلم أنك بحاجة ضرورية إليه، لجلبناه معنا».

ألقت أجنيس نظرة على الآنسة دو ويت التي كانت تراقب الدكتور شيختر بقلق بالغ يشارف حد الحميمية.

«أرسلت السيدة شيختر معنا بعض الأغراض الأخرى أيضًا».

قال الدكتور شيختر وهو يتمالك نفسه ويدير دفة الحديث للجنيزة مرة أخرى: «شكرًا. كل تلك القاذورات تجعل المرء يشعر

وكأنه خادم يقوم بتنظيف غرفة العلية الخاصة بالتاريخ، عوضًا عن كونه عالمًا».

قالت مارجريت: «نحن مستعدتان لتقديم العون بأي طريقة تراها مناسبة. فكما تعلم، أنا وشقيقتي لا نتعالى عن القيام بالتنظيف، ولغتنا العربية جيدة إلى حد كبير».

قال الدكتور شيختر دون أن يلحظ نبرتها المليئة بالسخرية: «حقًّا، إنها جيدة لدرجة كبيرة. لكن علينا أن ننجح أولًا في الحصول على موافقة الحاخام بن شيمون حتى نقوم بنقل الوثائق. لقد وافق من ناحية المبدأ، لكن مثل هذه الأمور تستغرق الكثير من الوقت».

تدخلت أجنيس قائلة: «سيسعدنا كثيرًا زيارة المعبد، لو كنت تعتقد أنه من الممكن القيام بذلك».

كانتا تتوقان لرؤية الجنيزة بأنفسهما، وقطعتا المسافة مسافرتين عبر نصف الكرة الأرضية. وبعد سماع الدكتور شيختر وهو يصف محتوياتها، شعرتا برغبة أشد للمضي قُدُمًا في عملهما لتأمين الجنيزة، وحماية هذه الوثائق التي لا تقدر بثمن من الشخص الذي يقوم ببيعها أيًّا كان.

قال الدكتور شيختر: «أجل، بالطبع». توقف للحظة وهو يدق بإصبعه على جانب رأسه، مثل تلميذ يحاول تذكر كلمات أحد النصوص الصعبة. «المشكلة الوحيدة هي أن السيد بيخو عرض أن يصطحبنا جميعًا في جولة عبر أرجاء المدينة غدًا. وهو عضو مهم من أعضاء مجلس إدارة الطائفة اليهودية. ربما كان بمقدورنا أن نقوم بزيارة المعبد في المساء التالي؟».

برغم أنهما كانتا تتوقان بشدة لمواصلة عملهما -وبرغم أنهما لم تكن لديهما أدنى رغبة في القيام بجولة عبر أرجاء مدينة زارتاها من قبل أكثر من عشر مرات- إلا أن الشقيقتين كانتا تعلمان أنه لا يمكنهما رفض دعوة أحد الأعضاء المهمين من مجلس إدارة الطائفة اليهودية. لذا وافقتا على مضض على اللقاء في ردهة فندقهما صباح اليوم التالي.

بعد تناول التحلية، تمنت الشقيقتان لكل من الدكتور شيختر والآنسة دو ويت أمسية طيبة، وركبتا عربة مفتوحة عائدتين لفندقهما. كانت ليلة مظلمة، بسماء صافية وجو بارد. التمعت النجوم مثل ذرات ملتهبة من الرمال.

قالت مارجريت بعد بضع دقائق من الصمت: «إنها جميلة للغاية».

«بالقطع لم أتخيلها هكذا عندما ذكر الدكتور شيختر أنه سيجلب معه باحثًا مساعدًا».

«ربما كانت تجيد اللغة العبرية».

«أشك أنها تجيد أي شيء بخلاف مفاتنها البادية».

تركت مارجريت هذا التعليق القاسي يتلاشى قبل أن تعاود الحديث.

«والحاخام بن شيمون». سألت: «ما الذي تعتقدين أنه يريده؟».

قالت أجنيس وهي تعبث بقطعة غير مثبتة من قماش المقعد المجاور لها: «المال. في الغالب يكون المال، أليس كذلك؟».

«في تسع حالات من كل عشر».

«أو ربما خدمة سياسية مثل الحماية من نزوات عباس الثاني».

خمنت مارجريت قائلة: «أو ربما كان لا يكترث لأمر الوثائق على الإطلاق. ربما كان يعتقد أنها مجرد كومة من النفايات، وأننا مجموعة من الحمقى للسعي وراءها».

«أو ربما كان يكترث لأمرها لحد كبير، ويؤمن حقًّا أنها ستكون محل عناية أفضل في كامبريدج».

«وهذه هي الحقيقة بالفعل».

«إن الأمر لا يهم حقًّا، أليس كذلك؟ طالما سوف يمنحنا التصاريح اللازمة».

أضافت مارجريت قائلة: «وعلى وجه السرعة».

«وعلى وجه السرعة».

بقيتا صامتتين لبقية الرحلة وهما تفكران في الحاخام بن شيمون والسيد بيخو، واحتمال العثور على لفافة عزرا، والعادة السيئة للدكتور شيختر التي تجعله يحسن الظن بنوايا الآخرين. كان الحصول على التصريح بدخول الجنيزة أمرًا رائعًا، لكن كان لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يتوجب عليهم إنجازه. بدا من الواضح تمامًا للشقيقتين الآن أن هناك فجوة في تأمين الجنيزة. كان أحدهم يقوم ببيع الوثائق شيئًا فشيئًا. وأيًّا كانت هوية ذلك الشخص –سواء عضوًا من أعضاء مجلس إدارة الطائفة اليهودية، أو حارس المعبد، أو الحاخام بن شيمون، أو شخصًا آخر تمامًا– فلن تتوقف الشقيقتان حتى تنتهيا من نقل الوثائق

لمكان آخر أكثر أمانًا. وحتى ذلك الحين، حتى يصير العصفور بيدهما، كما يقول المثل، فسوف تظل الجنيزة عرضة للنهب، وتباع محتوياتها في أكشاك الكتب القديمة في السوق. وسوف يتفرق واحد من أعظم اكتشافات القرن والآلاف من الوثائق التي لا تقدر بثمن، بين يدي الهواة من السياح الذين لا يستطيعون حتى التفرقة بين اللغتين السريانية والآرامية.

* * *

- ٤ -

كانت مهام الحارس الليلي بسيطة نسبيًّا. شرح الزكري لعلي أن عليه السير حول محيط المعبد ست مرات خلال الليل. كما يتوجب عليه أن يقوم ثلاث مرات بتفحص الساحة والحمامات الخاصة بالاستحمام التعبدي وقاعة الصلاة، بما في ذلك القسم الخاص بالسيدات والمخزن الكائن في غرفة العلية. أما بين جولاته فعليه الجلوس أمام المدخل الرئيس ومعه مجمرة بها فحم مشتعل. وفر له المجلس القائم على إدارة شؤون الطائفة اليهودية أيضًا مقعدًا خشبيًّا دون ظهر وبطانية، على الرغم من تحذير الزكري له من استخدام تلك الأخيرة.

«لو استخدمت البطانية فمن السهل الخلود للنوم».

غمغم علي بكلمات تنم عن تفهمه للأمر، حتى وضع الزكري يده على كتفه.

«تعال، سوف أريك المكان بالداخل».

فُرشت بالداخل حلقة من سجاجيد الصلاة التي اتجهت جميعها ناحية منبر خشبي ارتفع في المنتصف، وقد أُنير المعبد بعشرات

المصابيح التي يتراقص ضوؤها. شعر علي بالحيرة من ذلك المكان غير المألوف وهو لا يدري بالتحديد أين يخطو بقدمه، وإلى أي درجة عليه أن يخفض صوته. تجوَّل مع الزكري حول قاعة الصلاة وهو يهز رأسه، بينما الزكري يشرح له التفاصيل الهندسية المختلفة للمكان. تسللت أشعة ضوء القمر عبر النوافذ التي تعلو القسم المخصص للنساء، فأضاءت المشربيات الخشبية المحفورة التي قال الزكري إنها تصور حكايات نوح ويوسف وموسى. شعر علي بنوع من الراحة لرؤية أولئك الرسل المعروفين على جدران المعبد.

قال: «يبدو أن لدينا نفس الحكايات».

«نفس الحكايات». ابتسم الزكري قائلًا: «ويمكنك القول نفس الإله لكن باسم مختلف».

هز علي رأسه على الرغم من أنه لم يفهم الأمر بوضوح. هل كان اليهود يعبدون نفس الإله الذي يعبده هو؟ ولو كان الأمر هكذا، فما الفرق بين المسلم واليهودي؟

بعد بضع خطوات توقف الزكري أمام خزانة خشبية ضخمة يعلوها مصباح مزخرف. أوضح أن هذه هي الخزانة التي يحفظون داخلها سفر التوراة. تأمل علي أبواب الخزانة بالنقوش الهندسية المعقدة التي حفرت على أطرافها، بينما زيَّن المنتصف بعض الأحرف الهجائية من الصدف اللامع.

كرر علي الكلمة قائلًا: «سفر التوراة».

قال الزكري: «هذا كتابنا المقدس. مثل القرآن».

«هل يمكنني رؤيته؟».

قال الزكري متجاهلًا إجابة السؤال: «يمكن لسفر توراة واحد أن يستغرق عامًا كاملًا حتى يتم الانتهاء من كتابته. وعندما تبلى نقوم بدفن اللفافة في مكان مخصص لها في المدافن».

بعد مشاهدة الخزانة التي تحتوي على سفر التوراة، هبط كلٌّ من علي والزكري نحو الحمامات الخاصة بالاستحمام التعبدي، ثم عادا ليصعدا ناحية القسم المخصص للنساء والذي كان عبارة عن شرفة ضيقة مطلة على المنصة التي تتوسط قاعة الصلاة. في الطرف البعيد للقسم المخصص للنساء كانت هناك فتحة مربعة الشكل أسفل السقف مباشرة. حمل الزكري مصباحه بين أسنانه وصعد السلم المؤدي للفتحة وأشار لعلي أن يتبعه.

قال وهو يهبط لداخل الغرفة: «مطلوب منك أن تتفحص الجنيزة ثلاث مرات فقط كل ليلة. لكن من المهم للغاية أن تتذكر القيام بذلك».

على الرغم من أنها كانت خاوية سوى من بعض الأكوام التي بدت وكأنها وثائق مهملة، إلا أن الغرفة كان يغمرها إحساس بأهمية المكان. فكر علي في السؤال عن الغرض من المكان وأكوام الأوراق تلك، وعن ذلك الشعور الغريب بالوخز الذي أحس به في أطراف أنامله، إلا أن الزكري استدار مغادرًا قبل أن يتمكن من صياغة السؤال.

«لو سمعت أي شيء مثير للشك، أي شيء على الإطلاق، لا تتردد في إيقاظي».

قال علي: «لن أتردد».

وبهذا بدأ علي ليلته الأولى في العمل كحارس ليلي لمعبد بن عزرا. جلس القرفصاء أسفل قوس المدخل الرئيس، محملقًا في فراغ الساحة الباردة. تمثلت رفقته الوحيدة في نقيق الضفادع القادم عن بُعد، والقمر بطلته الثابتة، وقط مراوغ يتسلل بحذاء الجدار الشمالي. لم يكن يألف تعاقب ساعات الليل، ولم تكن لديه وسيلة ليحسب بها مرور الوقت. ألقى بعض الحصى تجاه البئر الذي يحدد المكان الذي يُقال إن ابنة فرعون انتشلت منه موسى من الماء. دندن لنفسه بلحن وحملق في اللهب المتراقص للمصباح حتى دمعت عيناه. بعد مرور ما بدا وكأنه فترة مناسبة من الوقت، نهض واقفًا وانتعل خُفه. دار حول محيط الساحة رافعًا مصباحه ليرى خلف جذوع أشجار النخيل والأركان المظلمة المحيطة بالبئر. حاول أن يتخيل الأماكن التي كان هو نفسه سيختبئ بها، وأنار بمصباحه كل هذه الأماكن. بعد ذلك تفحص المعبد من الداخل والحمامات المظلمة الكائنة تحت الأرض، بالإضافة للقسم المخصص للسيدات.

بقيت الجنيزة هي محطته الأخيرة. كانت لا تزال دافئة حتى في منتصف الليل، والظلام يسودها تمامًا، فيما عدا الفتحة الموجودة أعلى رأسه وشعاع الضوء الأصفر الساقط من مصباحه. كما حدث سابقًا، شعر بطاقة غريبة تملأ الغرفة، وإحساس غريب يسري حتى أطراف

أنامله. خطا خطوة للأمام بحذر حتى منتصف الغرفة ورفع مصباحه لينير أركانها ويغمر أكوام الأوراق بضوء باهت. خُيِّل لعلي أنه لمح رسالة أبي سعد لمجلس إدارة شؤون الطائفة اليهودية وبقعة دمه على طرفها. لكن قبل أن يلقي نظرة فاحصة، سمع صوت شيء يصدر خشخشة عند ركن الغرفة الخلفي.

حبس علي أنفاسه ووقف في سكون تام وهو ينصت بإمعان في الظلام. عندما سمع الصوت ثانية، عبر الغرفة سائرًا بحذاء الجدار حتى انحدر السقف مائلًا لدرجة تمنعه من البقاء واقفًا. مسح الركن الخلفي للغرفة بضوء مصباحه ثلاث مرات قبل أن يكتشف مصدر الصوت. كانت هناك مجموعة من القطط الصغيرة لها لون رمادي فاتح مختبئة في العوارض الخشبية للسقف تحت مستوى نظره مباشرة. تجول علي في محيط الغرفة مرة أخرى، لكن لم يكن هناك أي أثر للقطة الأم. بعد أن فكر في الأمر لبضع دقائق، شكل ما يشبه سلة صغيرة بجلبابه ونزل حاملًا القطط الصغيرة معه. كان بيت علي الجديد كبيرًا بما فيه الكفاية ليسعه هو ورفاقه الجدد. في ركن الحجرة الرئيسة بجوار مرتبة نومه، صنع فراشًا للقطط باستخدام بقايا بطانية قديمة. أطعمهم بقايا الخبز المنقوعة في الماء، ثم عاد لمهام عمله.

قام علي بخمس جولات أخرى في تلك الليلة. وعلى الرغم من إحساسه بالتعب، فإن شعوره بالبرد وبالإثارة أبقياه مستيقظًا، بينما النجوم تعبر صفحة السماء السوداء الشاسعة. وعندما شق أول ضوء للنهار طريقه من وسط النخيل، أتى الزكري ليعفيه من عمله. سأله كيف

سارت الأمور؟ وأخبره علي أنه لا يوجد هناك ما يستلزم إبلاغه به. لم يتذكر القطط الصغيرة حتى سمع مواءهم في فراشهم بجوار قدميه، وكان ساعتها قد آوى لفراشه هو بينما يشعر بالسعادة لحسن طالعه وينزلق شيئًا فشيئًا في أعماق النوم الذي استحقه عن جدارة بعد ليلة عمل طويلة.

* * *

بمرور الأيام والأسابيع، بدأ علي يألف حياته في الفسطاط، وعالم اليهود، ونظام يومه المقلوب. بات يستمتع بالتأمل الهادئ الذي يفرضه جدول مواعيد عمله، وهو يحرس المعبد، بينما بقية المدينة تخلد للنوم حتى شروق الشمس. في معظم الأيام كان يستيقظ بعد الظهر مباشرة على صوت الأطفال وهم يلعبون في الطريق. بعد الاغتسال، كان يصلي ويعد لنفسه برادًا من الشاي، ويقوم بتسخين صحن من الفول أو بعض العشاء المتبقي من الليلة السابقة، بعدها يطعم القطط ويخرج لجولته اليومية حول الفسطاط. يشق طريقه عبر الحي الكائن حول حصن بابليون القديم والذي يقطنه غالبية من السكان الأقباط؛ ليشتري بعض الخضراوات من السوق، أو بعض الخبز من المخبز الذي نصحه به الزكري. وفي تلك الأيام التي كان يملك فيها فائضًا من المال، كان يشتري عشاءه من أحد الباعة الجائلين الذين تفوح من قدورهم رائحة الملوخية النفاذة، أو رائحة مرق اللحم بالخضراوات، والذين كان يزدحم بهم مدخل السوق.

عند انتهائه من التسوق، كان علي يتجه عادة نحو شارع ضيق

يشغل غالبيته العاملين في مجال النسيج. وراء صناع الخيام والخياطين والعاملين بالتطريز، كان يقع دكان صغير للأقمشة مملوك لإفرايم بن شيماريا، والذي صار لأسباب لم يعد أحد يذكرها مكانًا لتجمع بعض الأفراد البارزين من رواد المعبد، وكأنه اجتماع غير رسمي للمجلس. عثر علي على مقر الاجتماع لأول مرة عن طريق المصادفة، بينما هو يحاول العثور على طريق مختصر من سوق الخضراوات حتى بيته، فصمم إفرايم على بقائه لتناول كوب من الشاي.

في الأسابيع التي تلت ذلك، اكتشف علي طريقًا أقرب لبيته، لكنه كثيرًا ما كان يجد نفسه يمر بدكان الأقمشة ليجلس ويتناول كوبًا من الشاي الثقيل المحلى، ويستمع للرجال وهم يتبادلون الحديث حول شؤون الحي والفسطاط والقاهرة، والعالم الأكبر من حولهم. ومن وقت لآخر، كان أحد الرجال يوجه سؤالًا لعلي، لكنه في الغالب كان يكتفي بالجلوس والاستماع للحديث.

وبمرور الوقت أخذ علي يفهم بصورة أكبر العديد من الأشياء المتعلقة بتلك الطائفة التي صار يعمل لديها. لكن على الرغم من كثرة ما تعلمه، ظلت العديد من جوانب الحياة اليهودية لغزًا غامضًا بالنسبة له. كان يعلم أن اليهود يوزعون صلواتهم خلال اليوم، وكثيرًا ما كان يراقب أحدهم وهو يغمغم بكلمات دعاء قبل تناول الشاي أو قطعة من الخبز، لكن فهمه كان قاصرًا فيما يتعلق بأوقات صلواتهم وأسبابها. لم يفهم بوضوح الغرض من سفر التوراة ولا السبب الذي يدعوهم لحفظه في خزانة مغلقة، بينما كانت أسئلته حول الحمامات الخاصة

بالاستحمام التعبدي، تقابل بالضحكات والإيحاءات الفاحشة. لكن أكثر الطقوس اليهودية المحيرة بالنسبة له، كانت عادتهم في الاحتفاظ بالأوراق في غرفة المخزن بجوار القسم المخصص للنساء في المعبد. حتى بعد أن شرح له إفرايم إيمانهم الخاص بأن الوثائق التي تحوي اسم الرب لا يجب التخلص منها مثلما يتم التخلص من باقي القمامة، ظل علي يعاني من صعوبة في فهم السبب وراء الاحتفاظ بمثل تلك الأوراق في غرفة العلية، وكثيرًا ما تساءل عن ذلك الشعور بالوخز الخفيف الذي ينتابه كلما تواجد في الحجرة. لكنه كان يعرف أنه من الأفضل أن يحتفظ بأسئلته لنفسه، وأن يقوم بعمله ويدع اليهود لشؤونهم. إلا أنه كان سيكتشف إجابات تلك الأسئلة والكثير غيرها بعد فترة قصيرة.

* * *

بعد حوالي شهر من تولي علي لمهام عمله في معبد بن عزرا، تم الانتهاء من تجديدات المعبد. أخيرًا، وبعد شهور طويلة قضوها وهم يقيمون صلواتهم في مكان آخر، صار ليهود معبد بن عزرا مكانٌ خاص بهم في الوقت المناسب بالتزامن مع رأس السنة اليهودية الجديدة. انشغل الحي بالاستعداد والتجهيزات طوال الأسبوع. تم خياطة ملابس جديدة، وكنست الغرف الخاصة بزيارة الضيوف، وامتلأ الجو بعبق الخبز الطازج. تم تنظيف واجهة المعبد الخارجية المرة تلو الأخرى، وغُسلت النوافذ الكائنة أعلى القسم الخاص بالسيدات في المعبد. أُنزلت النسجيات المعلقة على الجدران لتنظيفها ثم أُعيد تعليقها ثانية. تم تركيب منصة خشبية جديدة في منتصف قاعة الصلاة، هدية من أبي

سعد، وملئت المصابيح بالزيت. نال الابن الأكبر لابن كمونة شرف التلاوة من سفر التوراة، وقيل إن تلاوته سيليها تفسير نادر من قبل شيماريا الورع.

في صبيحة العام الجديد، أرغم علي نفسه على البقاء مستيقظًا. جلس على السلم الأمامي لبيته وهو يداعب قطة جلست في حجره، بينما هو يراقب يهود المعبد يتدفقون للساحة مرتدين أجمل ملابسهم، وتعلو وجوههم الابتسامة استبشارًا بالعام الجديد. استمع علي لصلواتهم، وعندما شرع ابن ابن كمونة في القراءة من سفر التوراة، شعر علي بصدره يمتلئ بشيء أشبه بالفخر. فعلى الرغم من كونه لا يزال مسلمًا -يؤدي صلواته خمس مرات في اليوم، ويؤمن بكل قلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا خاتم الأنبياء- إلا أن عليًّا بات يعد نفسه عضوًا من أعضاء هذا المجتمع. فعندما تقوم بحماية شيء، أيًّا كانت طبيعة هذا الشيء، فهو يصير ملكًا لك.

بعد انتهاء الشعائر، خرج المصلون للساحة والرجال يتناقشون في المميزات العديدة لتفسير شيماريا الورع، بينما النساء تقمن برعاية الأطفال. كان علي يراقب واحدة من قططه وهي تلعب حول حافة البئر في ركن الساحة عندما امتدت يد نحيلة لا تزينها أي نوع من الحلي لتداعب القطة بين أذنيها. لاحظ علي أن اليد لفتاة لا تكبره في العمر، وكانت العباءة الفاخرة التي ترتديها توحي أنها ابنة أحد التجار الأثرياء. في تلك المرحلة من العمر على الحافة بين الطفولة وسن الزواج، ظلت واقفة بجوار البئر وهي ترد التحية لإحدى السيدات الأكبر سنًّا بين حين

وآخر، أو توبخ برقة أحد الأطفال المشاغبين. كان متأكدًا أنه لم يرها من قبل. كيف يمكنه أن ينسى تلك الشفاه، وذلك الجبين الرقيق في استدارته؟ لكن ملامحها بدت مألوفة بطريقة ما.

كان علي يعرف أنه من سوء الأدب أن يحدق بها، لكنه لم يستطع انتزاع نظره عنها. كان على وشك القيام من مكانه؛ ليبعد نفسه عن إغواء التحديق بها، عندما استدارت بدرجة بسيطة لتنظر إليه مباشرة. بينما هو يستدعي تلك اللحظة في عقله لاحقًا، كان باستطاعة علي أن يرى أنفها وحاجبيها المائلين بشكل مثالي، لكنه لم يتمكن من تذكر لون عينيها. دارت دوامات الألوان في ذاكرته ما بين الأخضر والأزرق والعسلي، كانعكاس الشمس على صفحة الماء. ما كان يذكره -بوضوح شديد- هو ذلك الشعور بالقدر، مثل صاعقة من السماء تضرب الأرض. وعندما ترددت، موجهة نظرتها لظهر القطة مرة ثانية، كان الأمر وكأنها قامت بقطع العصب الواصل بين عينيها وقلبه.

بذل علي أقصى جهده للتركيز في عمله تلك الليلة. أعد لنفسه برادًا من الشاي الثقيل وكان يقظًا أكثر من المعتاد في جولاته، وهو يتوقف بين حين وآخر ليصيخ السمع وسط الظلام وينشر ضوء مصباحه خلف أحجار أصغر حجمًا من أن تخفي وراءها قطًّا. على الرغم من كل ذلك، تطلَّب منه الأمر بذل جهد كبير كي يمنع عقله من أن يسرح في محبوبته، تلك الشابة التي شرفت بوجودها منذ بضع ساعات مضت الساحة التي يقوم هو على حراستها.

كان علي يعرف جيدًا أن الابن غير الشرعي لسقَّاء مسلم، لن يتمكن

أبدًا من الزواج من شابة يهودية ثرية وجميلة. على الرغم من علمه بذلك، إلا أنه شعر بتقلصات في معدته. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه وجود احتمال ولو ضئيل بأن تكون هي الأخرى قد شعرت بما شعر به هو، وأن قوة نظراتهما المتبادلة كانت تعني شيئًا ما بالنسبة لها هي أيضًا. بقي طوال الأسبوع يعاني من رغبته الحارقة. أراد بشدة أن يصارح أحدهم بالأمر، لكنه كان يعلم أنه لا جدوى من وراء ذلك الاعتراف، لذا احتفظ بشعوره لنفسه، وظل يكرر مرة وراء الأخرى كلمات النبي محمد الذي قال بحكمته إن من عشق فعف فكتم فمات، مات شهيدًا. وجد علي في تلك الكلمات، وفي فكرة أن الرسول كان يتفهم تمامًا ما يشعر هو به، مصدر راحة بالغة. لكنه وجد راحة أكبر في علمه أن محبوبته ستعود لزيارة المعبد خلال أقل من عشرة أيام للاحتفال بعيد الغفران.

عندما أتى ذلك اليوم أخيرًا، جلس علي على سلم بيته يراقب اليهود وهم يتدفقون للمعبد. أخذ يتابع صوت الصلوات التي باتت مألوفة له إلى حد ما. وفي ذلك المساء، عندما انطلق نفير الشوفار، بدا تردده الثاقب وكأنه صوت نابع من داخل علي ذاته. أخيرًا انفتحت أبواب المعبد، وامتلأت الساحة بالملابس الرسمية البيضاء التي التمعت بلون فضي تحت ضوء القمر. أخذ علي نفسًا عميقًا وهو يردد لنفسه كلمات الرسول، بينما يقبض بكفه على حصاة صغيرة بقوة لدرجة جرحت يده.

لم يرها في بادئ الأمر، ثم ظهرت على مبعدة أقل من عشر خطوات، جميلة تمامًا كما كانت في رأس السنة الجديدة. لكن هذه المرة لم تلق محبوبته بنظرها على أي شيء بخلاف قدميها. لا بد وأنها

شعرت به وهو يراقبها. فكيف لا تشعر بحرارة نظراته؟ أراد علي أن يصيح، ويلوح بذراعيه فوق رأسه، معلنًا حبه لجميع الحضور. لكنه لحسن الحظ تمكن من السيطرة على انفعالاته.

تفادت نظراته طوال المساء. وعندما بدأ الحشد يخف، انفلتت خصلة شعر هاربة من غطاء رأسها. عندما مدت يدها لتعيدها لمكانها، رفعت عينيها تجاه علي ونظرت له بعينيها العسليتين للحظة لم تَطُلْ لأكثر من تردد نفس، لكن تلك النظرة أكدت لعلي آماله المتوقدة؛ فقد كانت تذكره، وإلا لِمَ تعمدت النظر نحوه مباشرة؟ وإذا كانت تذكره، ألم يكن من المحتمل أنها كانت تفكر فيه هي الأخرى؟ أسقط علي الحصاة التي كان يقبض عليها وأغمض عينيه. عندما فتحهما ثانية، رآها وهي تتبادل الحديث مع عمرام بن شيماريا. لوهلة خطر على باله أنهما ربما يكونا قد تمت خطبتهما حديثًا، لكن الحقيقة كانت أسوأ كثيرًا من ذلك. عندما غادرت الساحة برفقة عمرام وباقي أسرته، أدرك علي أن محبوبته هي أصغر وأجمل بنات شيماريا الورع.

* * *

كانت الأسابيع التالية مشوشة تمامًا. استمر علي في جولات حراسته، وفي مشاويره لسوق الخضراوات وتناول الشاي أمام دكان إفرايم للأقمشة. حاول قدر استطاعته أن يحافظ على نظام حياته، لكنه فشل في التحكم في أفكاره. عند خلوده للنوم كان يحلم بمحبوبته وهي تنتظر بجوار البئر أو تتسلل في الشوارع المظلمة بملابس نومها الفاتحة اللون. بدت أحلامه حقيقية لدرجة أنه تخيلها واقعًا بالفعل، في هذا العالم أو في سواه.

على الرغم من ذلك استمرت الأيام في دورتها. انحسر النيل وفقدت صغار طائر أبي ملعقة زغبها. وبحلول الخريف، بدأ اليهود الاستعداد للاحتفال بعيد العرش، أو عيد المظلة. ساعد علي الزكري في تشييد بناء مؤقت من خشب الجميز وقماش قطني خفيف في منتصف الساحة. شرح له الزكري أن اليهود في الفسطاط وحول العالم كله يقيمون منشآت مشابهة في حقولهم وفي الساحات والأماكن المفتوحة التي لا يقيم بها المرء عادة. في الليلة الأولى من العيد الذي قال الزكري إنه يستمر طوال أسبوع كامل، راقب علي ابن كمونة وهو يهز سعفة رفيعة من سعف نخيل في الجهات الأربعة، بينما باقي أعضاء المجلس يقومون بتلاوة سلسلة من الأدعية. بعد ذلك، ناول الرجال بعضهم بعضًا ثمرة ضخمة من الفاكهة لها لون أصفر، وتشاركوا في تناول وجبة تحت البناء المقام في الساحة. دعا الطبيب ميفوراخ عليًّا ليشاركهم، لكنه اعتذر؛ كي لا يعطل احتفالهم.

مرت أربعة أيام ويهود الفسطاط يتناولون الطعام ويقيمون الصلوات في أبنيتهم المؤقتة دون حادث يذكر. وفي صبيحة اليوم الخامس، استيقظ علي على صوت الزكري وهو يحادث ابن كمونة في الساحة بنبرة يشوبها الاضطراب. قال الزكري عندما خرج علي إن بعض الأبنية المؤقتة قد تضررت. تم تدمير البناء الخاص بيشماريا الورع تمامًا، وكذلك البناء المقام خارج المعبد الكائن قرب حصن بابليون.

«فلتبق عينيك مفتوحتين». قالها الزكري لعلي لاحقًا في تلك الليلة وهو يسلمه نوبة الحراسة. وقام علي بذلك بالفعل.

خلال جولته الثانية بينما هو خارج من قاعة الصلاة، لمح علي ظلًّا يتماوج بالقرب من مدخل المعبد. أطفأ مصباحه وجلس القرفصاء خلف البئر في ركن الساحة. تحت ضوء القمر، رأي خيال ثلاثة أولاد يقاربونه في العمر. كان اثنان منهما يحملان العصي بينما الثالث يحمل حجرًا. شعر علي بغصة باردة في حلقه بسبب الخوف، بينما هو يسمع ضحكاتهم المكتومة. كان يعرف أن الاختباء ينم عن الجبن، لكنه تساءل: ألم يكن الأكثر أمانًا هو أن يترك الصبية يفعلون ما يريدونه ثم يبلغ الزكري بعد ذلك أنه كان داخل المعبد عندما حدث الأمر؟ شاهد علي الصبية وهم يقتربون من البناء المؤقت في وسط الساحة. حبس أنفاسه وهو يفكر في محبوبته، متخيلًا إياها واقفة هناك بجواره. ما الذي ستفكر فيه إذا ما رأته قابعًا هكذا مختبئًا خلف البئر؟

دون تفكير، ودون تأمل عواقب ما هو مقدم على فعله، قفز علي خارجًا من وراء البئر ملوحًا بذراعيه، وهو يصيح بصوت مرتفع كأنه عفريت أو جني. بعد لحظة من الصمت، ركض اثنان من الصبية هاربين. أما الثالث الذي كان يحمل حجرًا، فقد وقف متسمرًا لوهلة، ثم استدار ملقيًا الحجر باتجاه علي قبل أن يركض ليلحق بزميليه. شعر علي بالحجر يحتك بساعده، لكنه لم يلحظ أنه ينزف حتى ظهر الزكري بعدها بلحظات.

سأله الزكري: «ما هذا؟» ثم ألقى بضوء مصباحه على ذراع علي. «ما الذي حدث؟».

قال علي وهو يضغط على جرحه بطرف كم جلبابه: «لقد أخفتهم. قفزت صائحًا فهربوا».

في الأيام التالية، حضر العديد من الناس ليشكروه وليسمعوا منه الحكاية. أحضر له ابن كمونة علبة من الحلوى المنكهة بماء الورد، وأعطاه الطبيب ميفوراخ عبوة من أجود أنواع الشاي. لكن أكثر ما أسعد علي هو رؤية إفرايم وعمرام ابني شيماريا. فعلى الرغم من أنهما لم يجلبا له أي هدايا للتعبير عن الامتنان، إلا أنهما جلبا له اليقين أن شقيقتهما الصغرى قد سمعت عن شجاعته. وكانت هذه أجمل هدية يمكنه تخيلها.

❋ ❋ ❋

عندما انتهى عيد المظلة، طلب الزكري من علي أن يأخذ إجازة لليلة تقديرًا لجهوده. لم يشك علي في الأمر، ولم يتساءل لِمَ عرض عليه أن يأخذ إجازة في تلك الليلة تحديدًا، ولم يفكر فيمن عساه يقوم بحراسة المعبد في غيابه. ببساطة، مسح جبينه وهو يشكر الزكري لكرمه، بينما يشعر بالسعادة لأن الفرصة سنحت له للتمشية لفترة أطول من المعتاد.

بعد صلاة الظهر، ارتدى علي ملابس نظيفة ثم خرج. دون أن تكون لديه وجهة محددة، تجول في شوارع الفسطاط وهو يدرك أن هناك دومًا فرصة ولو ضئيلة لأن يلتقي بمحبوبته عن طريق المصادفة. قاده منعطف جهة اليسار عند سوق العاملين بنحت الخشب إلى طريق مسدود. في نهاية المطاف، خرج لممر ضيق تظلله أغصان شجرة زيتون. لم تكن لديه أدنى فكرة عن مكانه، لكن تداخل الضوء مع الظلال ذكره بسوق الحدادين حيث كان خاله راشد يعمل منذ سنوات طويلة مضت.

«علي».

لوهلة، خُيِّل لعلي أنه سمع صوت محبوبته الرقيق، لكنه ما لبث أن أدرك أنه لم يسمعها تتحدث من قبل.

«علي. تعال هنا».

استدار ليرى أن مصدر الصوت هو همس رجل يقف في مدخل دكان صغير. لم يكن طول قامة الرجل يزيد عن قامة طفل، وعلى الرغم من أنه لم يبدُ وكأنه متقدم في السن، إلا أن شعره ولحيته كان لهما بياض السحب. أعلى باب الدكان كانت هناك لافتة حفر عليها اسم حاسدي السيفاردي. لم توضح اللافتة أي لقب أو مهنة، بل مجرد اسمه وحرف واحد من الأحرف الهجائية العبرية يتوسط دائرة.

قال وهو يشير لعلي حتى يأتي للداخل: «تعال».

كان دكان حاسدي السيفاردي متربًا وتعمه الفوضى، وله تقريبًا نفس مساحة الغرفة الأمامية بمنزل علي، وهواؤه مثقل برائحة الكبريت. في الخلف، غطت سطح طاولة خشبية منخفضة مجموعة من التمائم المصنوعة من الفخار، وشرائط من الرقاع الجلدية المخصصة للكتابة، والموازين، بالإضافة لمجموعة من البراميل متنوعة الأحجام. بجوار الباب كان هناك مقعد يعلوه كومة من الكتب وقفص صغير مصنوع من القصب ممتلئ بالضفادع. عندما خطا للداخل، شعر علي بوخز خفيف في أصابع قدميه وأطراف أنامله، يشبه تلك الشحنة الغامضة من الطاقة التي استشعرها في غرفة العلية بالمعبد.

«هل هذا...؟» بدأ علي سؤاله ثم توقف، غير واثق من الطريقة التي يصيغ بها باقي السؤال، أو ما إذا كان عليه أن يسأل من الأساس.

كان يعرف أقل القليل عن السحر، لكنه كان يعرف ما يكفي لالتزام الحذر. سمع حكايات كثيرة عن الفتيات اللاتي تلبسهن الجن والأطفال الذين اختطفوا لبلاد بعيدة، والرجال الذين يتيهون في صحارى العقل الشاسعة. لم يكن السحر أمرًا يُستهان به، حيث إن كل أشكال السحر في العالم مشتقة من أسماء الرب بطريقة أو بأخرى. بإعادة ترتيب الأحرف أو إعادة كتابتها ونقلها بطرق جديدة، كان بإمكان السحرة استغلال جزء صغير من طاقة الاسم الإلهي.

قال حاسدي: «أرى أنك وقعت في الحب».

«ماذا؟» شعر علي بالصدمة من أن هذا الرجل -الذي التقاه للتو- يمكنه رؤية العذاب الذي يعتمل بداخله بكل سهولة هكذا.

«من هي؟» ألح الساحر: «ما اسمها؟».

تراجع علي خطوة للوراء وكاد يسقط كومة الكتب الموضوعة على الكرسي خلفه. كان يعلم أنه لا يمكنه الكشف عن هوية محبوبته. مجرد اسمها على شفتيه سيصير فضيحة، قد تكلفه عمله كحارس. لكن فكرة إزاحة ذلك العبء عن كاهله بالمصارحة -ولو لغريب، خاصة لغريب- منحه إحساسًا بالراحة لم يستشعره لشهور طويلة.

نطق علي أخيرًا قائلًا: «هناك شخص ما».

ضحك حاسدي.

«لا داعي لأن تشعر بالخجل، فأنا أعرف من هي. بإمكاني قراءة اسمها على وجهك».

استدار علي تجاه قفص الضفادع التي كانت تصدر نقيقًا خافتًا بجوار مدخل الدكان.

«بتعويذة بسيطة، يمكنني أن أجعلها تقع في غرامك».

ازدرد علي لعابه، وسرح بعقله في ذلك الطريق الذي طالما سلكه: سوف تعيش معه في بيته الصغير بجوار المعبد، وفي كل مساء سيستيقظ على ابتسامتها. أكثر من أي شيء آخر، أراد أن يجعل هذا الحلم حقيقة. لكن في ذات الوقت، كان يخشى أن تؤذي التعويذة محبوبته.

منذ بضعة أيام مضت، حكى الطبيب ميفوراخ للرجال المجتمعين خارج دكان الأقمشة عن مريضة قبطية كبيرة في السن قام بعلاجها. قال الطبيب ميفوراخ إنه عندما رآها كانت عيناها صفراوين وقبضتاها مكورتين بقوة. قال أبناؤها إنها ظلت محمومة وترتعش لأيام. جرب جميع أنواع العلاجات الطبية المتاحة، لكنه لم تكن لديه أدنى فكرة عما أصاب المرأة، حتى تعثر في طريقه بينما هو خارج من الباب في حجاب تغطيه الأحرف الهجائية القبطية والعبرية. اتضح أنها أصيبت بمس من سحر أسود كان يستهدف جارتها.

قال حاسدي وكأنه يقرأ أفكار علي: «إنها تعويذة بسيطة. ولن تكلفك أي مال. فأنا أستمتع بمساعدة العشاق».

قبل أن يتمكن علي من التفكير في أي سبب آخر يدعوه للرفض،

شرع حاسدي يبحث في محتويات رف خلف الطاولة. جلب قصاصة صغيرة من القماش بالإضافة لشظية من الفخار. أخذ يتمتم، بينما يقوم بكتابة حرف من الحروف الهجائية العبرية في كل ركن من أركان القصاصة، ثم لفها حول الشظية وأحاط التعويذة بأكملها بخيط.

قال وهو يناولها لعلي عبر الطاولة: «خذ هذه. احتفظ بها معك في جميع الأوقات. عن قريب ستصير لا تقاوم بالنسبة لمحبوبتك، وربما بالنسبة لبعض النساء الأخريات أيضًا».

«لكنني...».

«لو لم ينجح الأمر عد إليَّ بعد أسبوع وسأعطيك تعويذة أقوى».

شعر علي بحواف التميمة الحادة وهي تحتك به داخل جيبه بينما هو في طريق عودته للمعبد. أخبر نفسه أنه لم يقترف أي خطأ. فقد وقع في الحب وضل الطريق وتقبل هدية من أحد الغرباء. كانت تصرفاته تخلو تمامًا من نية الأذى أو سبق الإصرار. لم يسع لحيازة التميمة ولم يطلبها بنفسه. فقط قبلها ووافق على الاحتفاظ بها في جيبه. كان علي يدرك أن مثل هذه التصرفات - سواء مع سبق الإصرار أم لا - قد تؤدي لتجاوزات أخرى أكبر كثيرًا، لكنه في اللحظة الراهنة على الأقل خلد لنوم عميق.

* * *

في وقت لاحق من تلك الليلة استيقظ علي على صوت طنين غريب قادم من مسافة قريبة. على الرغم من أنها كانت ليلة إجازته، إلا أنه لم يتردد في القيام من فراشه ليرى أين مصدر ذلك الصوت. ارتدى

جلبابه وحمل مصباحه وتوجه خارجًا. لم يكن هناك أحد في الساحة. كان الباب الأمامي للمعبد مغلقًا، وكان مصدر الضوء الوحيد هو القمر الأصفر الشاحب المعلق أعلى أشجار النخيل وكأنه ثمرة مقلوبة من ثمار الفاكهة. حبس علي أنفاسه وهو يصيخ السمع وسط الظلام. كان هناك صوت طنين منغم منخفض بدا وكأنه آت من الحارة الكائنة خلف المعبد. لم يسمع علي أي صوت مشابه من قبل طوال الليالي التي قضاها في حراسة المعبد. كان شديدًا وكأنه آت من عالم آخر، على الحافة ما بين السمع والإحساس.

بينما هو يقف على السلم الأمامي، فكر علي كيف يمكنه وصف هذه اللحظة في حكايته في وقت لاحق؛ الحارس الشجاع وهو يستعد لمواجهة المجهول. تخيل ابنَي شيماريا وهما يقصان الحكاية على شقيقتهما. تحسس التميمة في جيبه، أضاء مصباحه، وعبر الساحة.

توقف علي داخل البوابة الرئيسة، حيث كان بإمكانه سماع الطنين بوضوح شديد مصحوبًا بوقع خطوات أربعة أو خمسة رجال. فكر أنهم قد لا يكونون رجالًا على الإطلاق. استعد للمواجهة فازدرد لعابه وحبس أنفاسه، دافعًا البوابة ليفتحها بقدمه. في الطرف المقابل من الحارة، ناحية مدخل القسم المخصص للنساء في المعبد، كان هناك مجموعة من الأشخاص الذين يرتدون جميعهم الملابس والعمامات البيضاء.

قال علي صابغًا صوته بأقصى نبرة تهديد لديه: «توقفوا. من هناك؟».

سرت بينهم همسات خافتة قبل أن يتقدم أحدهم مادًّا كفيه أمامه كدليل سلام. رفع علي مصباحه.

قال الرجل وهو يخطو وسط الضوء: «لا داعي للقلق». كان إفرايم ابن شيماريا.

قال صوت آخر بدا وكأنه صوت الطبيب ميفوراخ: «إنه يوم عيد. عيد سيمهات التوراة» .

قال إفرايم مبتسمًا: «إنك حارس ماهر. اعتقدنا أنك لن تتمكن من سماعنا».

تردد علي لحظة وألقى بنظره تجاه الرجال. كان أحدهم في الخلف يحمل شيئًا ضخمًا منيرًا له نفس شكل وحجم سفر التوراة الذي رآه في يوم رأس السنة الجديدة. كان كبيرًا بحجم جوال دقيق وينبض بضوء مترقرق مثل انعكاس نور القمر على سطح من فضة.

قال الطبيب ميفوراخ: «فلتخلد للنوم يا بني. لا داعي للقلق».

أطفأ علي مصباحه وشاهد الرجال وهم يختفون الواحد وراء الآخر داخل المعبد، وجميعهم ينشدون لحنًا خافتًا أثناء سيرهم. عندما دخل الرجل الذي يحمل اللفافة، أغلق الباب خلفه، فعاد علي لفراشه وهو يقبض بقوة على التميمة في يده بينما يخلد للنوم. كان بالفعل حارسًا ماهرًا. لكنه على الرغم من ذلك، لم يستطع التخلص من شعوره أنه بقبوله للتميمة قد أقدم على خيانة الناس الذين كان مكلفًا بحراستهم.

❊ ❊ ❊

- ٥ -

فصل الصيف في القاهرة ما هو إلا إله غاضب تملؤه النقمة. فحتى في الساعة السادسة صباحًا، والمروحة الكهربائية تدور بأعلى سرعة إلى جانب وحدة التكييف التي تصدر طنينًا وهي تعمل بأقصى طاقتها، كنت أستشعر حرارة النهار وهي تتسرب من خلال الجدران. تسللت أصوات المرور من الشارع في الأسفل، بينما توارت في أركان الغرفة رائحة حادة حارقة كرائحة الكيروسين أو القمامة المشتعلة. بقيتُ في الفراش طويلًا في ذلك الصباح، وأنا أحاول أن أعود للنوم، وأحملق في البقعة التي تكونت على السقف من أثر نشع المياه، بينما أحاول أن أعتاد هذا المكان الجديد.

قالت عائشة عبر الهاتف وهي تصف لي الشقة: «المكان ملائم جدًّا لك».

فهمت مقصدها. كانت الشقة في الطابق الثالث من فيلا قديمة في جاردن سيتي، لها سحر قديم باهت وطابع رومانسي تدهور بفعل الزمن مثل نجم سينمائي قديم فقد تألقه. كان بها غرفتا نوم بأسقف عالية بارتفاع فيل، وغرفة سفرة لها طابع رسمي بباب زجاجي وثريا

من الزجاج المسنفر. كما كان بها بِيْدِيه، وألواح خشبية تكسو الجزء السفلي من جدران الغرف كلها، ولها شرفة حجرية ضخمة تطل على شارع هادئ تظلله أشجار الخروب. قضيت معظم نهاري الأول في القاهرة هناك، جالسًا في الشرفة ومعي كوب من الشاي وعبوة من البسكويت وجدتها في الثلاجة الخالية من أي شيء آخر، وأنا أراقب الشمس وهي تشرق من بين غلالة من الضباب والدخان، بينما أفكر في مدى غرابة وجودي في ذلك المكان.

حدث الأمر بسرعة فائقة. بعد بضعة أيام من وصول الطرد، وفي طريقي للعودة بعد تناول الغداء مع صديق بالقرب من الجامعة، توقفت أمام شركة سياحية في شارع الجامعة، وبينما أنا أحملق في بطاقة بريدية قديمة معلقة في النافذة، تشكلت الفكرة –لماذا لا أمضي الفصل الدراسي في مصر؟– هكذا فجأة. وقبل أن أتمكن من إعادة التفكير في خطتي تلك، وقبل أن أفكر في دوافعي وراء الأمر، أو في تكلفة حجز تذكرة طيران في اللحظة الأخيرة للسفر عبر نصف الكرة الأرضية، دلفت للداخل وطلبت من المرأة الموجودة في المكتب الأمامي أن تحجز لي تذكرة للقاهرة. لم أكن أعرف ما الذي أبحث عنه، ولا أين سأقيم، ولا كيف سأمضي أيامي هناك. لكنني كنت أؤمن أنني سأتمكن من التصرف وأن هذا هو القرار الصحيح، رغم أنه يبدو متعجلًا.

لم تكن فكرة قضاء فصل دراسي في مصر غريبة للغاية. عندما يكون جميع أصدقائك من طلبة الدراسات العليا، فإنك تعتاد فكرة السفر لأغراض الدراسة. تمضي فصلًا دراسيًّا في دار الوثائق في

الهند، أو صيفًا لدراسة اللغة الإسبانية في جواتيمالا، أو تقضي عامًا في التدريس في روما. صارت الأمور كلها تتداخل بعد فترة. كانت الحدود بين الدول مسامية، والأفراد يتنقلون عبرها بسهولة. عندما بدأت الفكرة تتجسد على أرض الواقع، بدا الأمر وكأنه يسير للغاية؛ أن أحزم أغراضي وأرحل تاركًا خلفي كل شيء. اعتقد أصدقائي أنها فكرة رائعة. قال ديفون إنه قد يحاول زيارتي في طريق عودته من مؤتمر في مدريد. أما أناليس، فقد كان لديها مصطلح للتعبير عما أقوم به.

«مصارعة الأحزان». قالت: «هذا ما يطلقه عليه طبيبي النفسي. فهي مرحلة هامة».

حتى أكثر الترتيبات صعوبة تمت دون مشاكل. لم يمانع مالك الشقة التي أقيم بها في أن أقوم بتأجير الشقة لطالب الكيمياء الحيوية القادم من رومانيا والذي وجدته واقفًا بجوار لوحة الإعلانات خارج بيت الطلبة المغتربين. قالت عائشة إنها ستحاول إيجاد مكان لي كي أقيم به. ولم يبدِ ستيف، المشرف على رسالتي، أي اهتمام بالأمر.

كتب ردًّا على رسالة بريد الكتروني من أربع فقرات، كنت قد قضيت معظم ذلك النهار في كتابتها: «يبدو الأمر رائعًا! أطلعني على التطورات».

في الأيام التالية بينما أقوم بإتمام المهام التي عليَّ الانتهاء منها قبل السفر –شراء شيكات سياحية، وتقديم طلب إجازة من الجامعة، والتطعيم ضد التيفوئيد والسعار والتهاب الكبد أ– بدأت أشعر بالفعل بحياتي في بيركلي وهي تبتعد تدريجيًّا. تناولت الغداء بصحبة

الأصدقاء، وخرجت لتناول المشروبات، وذهبت مرة أخيرة للجري في التلال الكائنة خلف الحرم الجامعي، لكن لم يبد أي من تلك الأمور وكأنه حقيقي. البيوت التي يعود طرازها لنهايات القرن التاسع عشر، وقد اصطفت بأسقفها الخشبية المتآكلة بفعل العوامل الجوية ونوافذها الزجاجية الملونة وزهور عباد الشمس في الحدائق الأمامية، ولافتات الدعاية الانتخابية الخاصة بآل جور ورالف نادر الممتدة على مرمى البصر، وأصدقائي، وكومة الكتب التي كان عليَّ قراءتها، والمقال الذي كان من المفترض أن أقوم بمراجعته، وحانة الباتروس، ومتجر زاكاريز للبيتزا، والمطعم التايلاندي الصغير الكائن في الشارع الذي أسكن به.. بدت المدينة بأكملها غائمة وكأنها تتلاشى.

عندما كان أحدهم يسألني ما الذي سأفعله في القاهرة، لم أكن أذكر أي شيء بخصوص والدي أو الطرد أو السيد موصيري. عوضًا عن ذلك، كنت أخبرهم أنني أرغب في دراسة اللغة العربية وزيارة أسرتي، وربما أحاول التفكير في موضوعات جديدة للبحث. وبنهاية الأسبوع ومن كثرة التكرار، بدت هذه التبريرات وكأنها تجسدت لتشكل واقعًا من نوع ما.

كانت والدتي هي الشخص الوحيد الذي تشكك في الخطة.

«القاهرة؟» قالت: «هل حقًّا تريد قضاء فصل دراسي في القاهرة؟».

«أعتقد أن الأمر سيفيدني». قلت لها: «أنت تعرفين مراحل الحداد ومصارعة الأحزان. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أرغب في تحسين لغتي العربية».

ألحّت قائلة: «هل تعتقد أن الوضع آمن؟ أعني، أنه لم يمر وقت

طويل منذ مقتل كل أولئك السياح في الأقصر».

قلت وصوتي يكتسب تلك النبرة المتذمرة التي للمراهقين: «أمي، أنت تعلمين أن الأوضاع ليست على هذا النحو».

فعلى الرغم من أنها لم تعد لزيارة مصر منذ أكثر من أربعين عامًا، إلا أنها كانت دومًا ما تؤكد أنها يهودية مصرية، قضت معظم طفولتها في باريس. ولدت أمي في القاهرة، وكانت لا تزال تعد نفسها مصرية. قامت بزراعة الملوخية في الحديقة الخلفية للمنزل، وكانت تقرأ صحيفة الأهرام على الإنترنت، وتقود سيارتها مرتين في العام في رحلة تستغرق اثنتي عشرة ساعة حتى لوس أنجلوس لتشتري التوابل. وفي رأيها كان كل هذا يمنحها الحق لتكوين رأيها الخاص حول مبارك والإخوان المسلمين.

«سأكون بخير». قلتها واكتفيت بهذا القدر من الحديث، راغبًا في تفادي الجدال حول الإرهاب أو الفساد أو تدهور حال الثقافة المصرية.

«أعرف هذا، لكن...».

لم تكن بحاجة للنطق بأي شيء آخر. فقد كنت أعرف ما الذي تنتوي قوله. كانت نفس الحكاية المعتادة. عندما كانت في العاشرة من عمرها، طُردت أمي وأسرتها بالكامل من القاهرة -مع باقي الأجانب واليهود- طردوا من المدينة التي عاشوا بها لأكثر من ألف عام. اضطرت لترك أصدقائها، ومعلميها، والبيت الوحيد الذي كانت تعرفه. لذا كان أي حديث حول مصر بالنسبة لها ينتهي دومًا بنفس الطريقة: نحن وهم. فلم يكن بمقدورنا أن نثق «بهم» أيًّا كانوا. وسواء كنا محقين أم مخطئين، كان «علينا» أن نتكاتف معًا.

في الماضي، كنت سأحاول الجدال بعض الشيء، وإضعاف حجتها القائمة على ثنائية مبسطة بشكل مخل. ربما كنت سأشير لأن الهوية ليست بحاجة لأن تظل على هذا القدر من الثبات، وبالرغم من كرمها الذي شملني ليعدني واحدًا ممن أطلقت عليهم كلمة «نحن»، إلا أنني كنت وبنفس القدر واحدًا «منهم» أيضًا. لكنني كنت أعلم أن الأسهل هو تغيير الموضوع.

قلت وأنا أتعمد إثارة اهتمامها الدائم بتفاصيل حياتي الأكاديمية: «تحدثت مع ستيف بالأمس. قال إنه لا توجد مشكلة لو أجلت اختباراتي التمهيدية حتى نهاية الربيع. في الواقع فهو يعتقد أن سفري للقاهرة فكرة رائعة».

«كل ما أريده هو سعادتك». قالتها والدتي بعد فترة صمت طويلة، بحيث توحي كلماتها بأنه بغض النظر عما يعتقده ستيف أو أي شخص آخر، وبغض النظر عما كنت آمل أن أعثر عليه هناك، فإن سفري للقاهرة لم يكن فكرة جيدة، وبالتأكيد لم يكن سيسعدني.

فكرت أنها ربما كانت على حق، بينما أشاهد النهار وهو يشرق على جاردن سيتي. ربما كان ما أقوم به هو مجرد هروب من مشاكلي. ربما كنت أعرض نفسي للخطر. ربما كنت أضحي بمستقبلي التعليمي كي أطارد أشباحًا لن تمنحني أي إجابات، أو على الأقل لن تمنحني الإجابات التي كنت أريدها. ربما كانت فكرة سيئة.

وضعت الكوب الخالي بجواري، وألقيت نظرة على الهاتف الجوال الصغير الأزرق اللون الذي أعطتني إياه عائشة. كانت الساعة قد

صارت حوالي السابعة، وبدأ الحي في الأسفل ينبض بالحياة. جلست جماعة من الرجال الكبار في السن على كراسٍ خشبية يدخنون الشيشة بجوار كشك لبيع الصحف له لون أخضر زاهٍ. وعلى الجهة المقابلة من الشارع، توقفت سيارتان صغيرتان من سيارات الأجرة بلونيهما الأبيض والأسود أمام فندق رخيص اسمه فاروز بالاس. بطريقة ما، لم يعد مهمًّا ما إذا كانت والدتي على صواب، أو ما إذا كنت قد اتخذت قرارًا صحيحًا أم خاطئًا، لأنني في كل الأحوال بت موجودًا هنا.

* * *

بحلول نهاية ذلك الأسبوع الأول في القاهرة، بدأت أتفهم طبيعة الحي الذي أقطن به. كان هناك مقهى صغير عند الناصية، ومدرسة ابتدائية على الجهة المقابلة من الطريق، ومحل بقالة على مبعدة مربعين سكنيين كان يبيع زبدة الفول السوداني والمارمايت للدبلوماسيين القاطنين بالقرب من المكان. لو ابتعدت في سيرك في أي اتجاه، فلا بد وأن تجد أمامك إما النيل أو شارع القصر العيني، أو واحدة من تلك المباني المحصنة بشدة –السفارة الأمريكية، أو السفارة البريطانية، أو وزارتي السياحة أو البترول– والتي تفصل جاردن سيتي عن منطقة وسط البلد. بنهاية ذلك الأسبوع الأول، اعتدت حرارة الجو والتلوث، والفنادق الكبيرة، واللافتات الإعلانية المضاءة بالنيون، وطنين سيارات الأجرة التي تجوب ميدان التحرير. بدأت ذاكرتي تستعيد اللغة العربية. اصطحبتني عائشة لسوق يبيع الأثاث المستعمل بالقرب من محطة قطار رمسيس، واشتريت غلاية كهربائية من متجر لامع مؤلف من طابقين في

شارع طلعت حرب. لكن على الرغم من شعوري بالألفة في المدينة، إلا إنني لم أكتشف أي معلومات جديدة بخصوص الطرد الذي كان السبب في مجيئي هنا.

كان يقبع هناك على الطاولة في غرفة المعيشة، بانتظاري عندما أستيقظ كل صباح. وفي عصر كل يوم، عندما أعود للشقة -بعد زيارة لمحل البقالة أو بعد تناول الغداء بصحبة عائشة في وسط البلد، أو بعد تجوالي في الحي باحثًا عن ماكينة صرافة آلية تقبل بطاقتي الائتمانية- كان لا يزال هناك ينتظر. في بعض الأحيان، لو لم أكن أشعر بالتعب، كنت أجلس على الأريكة بغرفة المعيشة، وأرفع الصندوق الجلدي من بين أوراق الصحف المكورة، وأمسك بقصاصة الورق العتيقة تلك بين يدي، مميلًا إياها ناحية الضوء، بينما أمرر إبهامي على حافة الزجاج وأنا أحاول تخيل والدي وهو جالس في مقعده يتفحص نفس هذه الورقة.

في بداية الأمر، كانت الكلمات هي أكثر ما يثير اهتمامي. لكن بمرور الوقت، بدأت أهتم أكثر فأكثر بطبيعة الرسالة نفسها؛ بالبقعة الحمراء الباهتة الكائنة أعلى الصفحة، ونوعية الورق، واللون البني الباهت للحبر. فلكل شيء حكايته: كل مفتاح أو حجر أو قطعة زجاج كانت تتشكل حكايته الخاصة به خلال انتقاله في العالم من جيب ليد، ومن خزانة لرف، ومن غرفة علية لسطح طاولة في المطبخ. وفي مكان ما، أسفل هذه الكلمات، مختبئة بين أسطر الرسالة، كانت حكاية هذا الشيء نفسه، وسلسلة تنقلاته عبر القرون، من أب لابنه ومن أب آخر لابنه، حتى وصلني أنا في نهاية المطاف.

أما عن دلالته، ومنشأه، والسبب الذي جعل والدي يرسله لي، فقد بقيت هذه الأسئلة دون أجوبة. حاولت الاتصال بالرقم المدون على بطاقة السيد موصيري ست مرات على الأقل، وفي كل مرة كنت أجد ذات الرسالة المسجلة التي تخبرني أن الرقم المطلوب غير موجود بالخدمة. وعندما جربت البحث على الإنترنت في مقهى الإنترنت المترب الكائن على ناصية الشارع عند الشقة التي أقيم بها، كان الأشخاص الوحيدون الذين وجدتهم باسم كلود موصيري هم تاجر أقمشة بالجملة في باريس، ومصرفي مدفون في مقابر البساتين على حدود القاهرة.

لم تتمكن عائلتي من تقديم العون. عندما أريتهم الطرد –في يوم أحد بعد تناول الغداء في شقتهم– لم يعرف أي منهم شيئًا عنه. قال عمي حسن إنه يعتقد أن قصاصة الورق قد يكون مصدرها غرفة العلية في معبد بن عزرا. وعندما حاولت عائشة قراءة الجهة المكتوبة بالعربية من الرسالة، لم تتمكن سوى من فهم بعض العبارات المنفصلة وبدرجة لا تكفي لفهم الرسالة.

«لا أعتقد أن هذا مكتوب باللغة العربية». قالتها وهي تناولها لوالدها الذي تأمل الكلمات بحيرة لبضع دقائق قبل أن يكف عن المحاولة.

قالت عمتي بسيمة وهي تضع طبقًا من البقلاوة في منتصف الطاولة: «ماذا عن السيد موصيري؟».

قال عمي حسن دون تركيز وهو يلقي نظرة على بطاقة السيد موصيري: «أجل. إنه رجل طيب. كان صديقًا مقربًا لوالدك. أعتقد أنه

هو من يمكن أن يكون لديه معلومات بخصوص هذه الورقة».

سألته: «هل لديك رقم هاتفه؟ الرقم المدون على هذه البطاقة غير موجود بالخدمة».

قالت عائشة: «لقد حضر الجنازة». وهز عمي حسن رأسه موافقًا.

«نشأنا معًا في الحي القديم».

لكن لم يعرف أي منهم طريقة للاتصال به.

«وماذا عن والدي؟» ألححت في السؤال. «ألم يذكر هو أي شيء بخصوص هذا؟ ألم يذكر أي شيء بخصوص الطرد أو قصاصة الورق هذه؟».

هز عمي حسن رأسه.

«كنت أنا ووالدك مقربين للغاية. عشنا معًا وعملنا معًا وتشاركنا في وجباتنا. لكن عندما كان الأمر يتعلق بالمعبد، كانت هناك بعض الأشياء التي لم يتمكن أبدًا من إخباري بها. فقد كنت أنا الابن الثاني، وكما تعلم في أسرتنا فإن هذا هو أهم شيء».

حك عمي حسن مؤخرة رأسه وفك حزام ساعة يده الذهبية اللون.

تابع قائلًا: «بالطبع فقد أبليت بلاء حسنًا في عملي الخاص».

كانت هذه حقيقة. فمن دون أي معارف مهمين أو رأس مال –في بلد تحكمها العلاقات الشخصية والرشاوى– تمكن عمي حسن من تحويل متجر حميه الصغير إلى إمبراطورية لتوزيع الحاصلات الزراعية، وتبيع الطماطم والخيار والباذنجان لكل مستشفى ومدرسة تقريبًا في المدينة.

كانت لديه سيارة مرسيدس حديثة، وتعلمت ابنته في أرقى المدارس. لكنه على الرغم من كل هذا ظل مجرد الشقيق الأصغر سنًّا، وفي عائلة الراقب كان الابن الأكبر هو من يحظى بالأهمية. الابن الأكبر كان هو الحارس.

«هل تعتقد..». بدأت السؤال وأنا أحاول العثور على الكلمات المناسبة. «هل تعتقد أنه يمكن أن يكون هناك شيء آخر؟».

مال عمي حسن مبتعدًا عن المائدة وهو يشبك كفيه على بطنه موجهًا نظره للأعلى نحو السقف. بدت على ملامحه أمارات التفكير، لكنه لم يلبث أن نفضها بعيدًا.

«شيء آخر؟».

«ربما في غرفة والدي؟».

نظر عبر الردهة تجاه الغرفة الصغيرة التي عاش فيها والدي لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، ثم مد يده تجاه المائدة والتقط من الصحن قطعة لزجة من البقلاوة. بينما هو يمضغ، بدا منشغلًا بحسابات من نوع ما: يحاول قسمة الأخ على ابن الأخ، وطرح فضول الأحياء من خصوصية الموتى.

«قد يستحق الأمر البحث». قالت عائشة: «ألا تعتقد ذلك؟».

«أعتقد ذلك». وافقها عمي حسن، على الرغم من أنه لم يبد عليه الاقتناع الكامل.

قلت وأنا أنهض مبتعدًا عن المائدة قبل أن يتمكن من الاعتراض: «لن يستغرق مني الأمر دقيقة».

«ربما تكون الغرفة بحاجة للتهوية». حذرتني عمتي بسيمة وهي تسوي طرف حجابها. «لم يدخلها أحد منذ أن انتهيت من تنظيفها. بعد...».

رافقتني لخطوة عبر الردهة، ثم توقفت وتركتني أدلف الغرفة وحدي.

في وقت سابق، سألني عمي حسن عما إذا كنت أرغب في زيارة قبر والدي يوم الأحد القادم. تهربت من السؤال وأنا أغمغم بكلمات غامضة وغير ملزمة. كنت أعلم أنني غير مستعد بعد لزيارة قبره. كان الوقت لا يزال مبكرًا للقيام بالزيارة. أما غرفته، فهي تختلف: بقايا تدل على حياته، بدلًا من شاهد على مماته. ومن عساه يعلم ما يمكنني العثور عليه هناك؟ ربما دفتر عناوين، أو نصف رسالة كتبها، أو بضع مذكرات متفرقة كتبها لنفسه؟

بينما أنا أفتح الباب ويدي لا تزال على المقبض، شعرت بشرخ في قلبي والزمن ينهار من حولي كخيمة ضخمة. ها هو ورق الحائط ذو الزهور الصفراء، والساعة المطلية بالكروم أعلى منضدة الزينة، والسجادة الفارسية بلونها الأخضر المائل للزرقة. كدت أتخيله جالسًا هناك في مقعده البرتقالي الزاهي في ركن الغرفة، وهو يستمع للراديو ويخلع حذاءه في نهاية اليوم. رأيت الأثر الوحيد لنعله على السجادة بجوار الفراش، واستشعرت ملمس كنزته الخشن، وشممت تلك الرائحة الخافتة التي هي مزيج من دخان السجائر والعرق والعطر.

بعد أن وقفت في الردهة للحظة، ولجت للداخل وتحسست بيدي غطاء الفراش، ونظرت في الخزانة، وفتحت بعض أدراج منضدة الزينة. لم أكن أعلم ما الذي أبحث عنه. وبصرف النظر عن ذلك، فلم يكن هناك شيء مثير للاهتمام: بعض القمصان، وكومة من أشرطة الفيديو القديمة، وقلم جاف على الطاولة الجانبية المجاورة للفراش. بحثت أسفل الفراش، وفتحت الراديو ثم أغلقته ثانية. وبينما كنت أستعد للخروج وأنا أقلب صفحات أحد الكتب القديمة الموضوعة على منضدة الزينة، وجدت قصاصة قديمة من إحدى الصحف -ربما وضعها لحفظ مكان الصفحة في الكتاب أو ليخفيها في مكان آمن- كان مقالًا قصيرًا مصحوبًا بصورة لرجل قصير بدين وأصلع يحمل لفافة من لفافات التوراة. كان التعليق أسفل الصورة: «أحد كبار الجالية اليهودية بالقاهرة. السيد كلود موصيري، يقف بجوار معبد بن عزرا الذي تم ترميمه حديثًا». وضع أحدهم، في الغالب والدي، علامة استفهام صغيرة بجوار اللفافة، وكأن هذه الصورة قد توفر جوابًا لسؤال حار في بحثه لفترة من الزمن.

* * *

كان عمي حسن محقًّا. فالسيد موصيري هو الذي كان بمقدوره الإجابة عن تساؤلاتي بخصوص الطرد. هو الذي بمقدوره أن يعرف ما الذي تعنيه قصاصة الورق تلك بالنسبة لوالدي، ولماذا أرسلها لي دونًا عن كل الأشياء الأخرى التي كان بإمكانه أن يرسلها. لكن العثور على السيد موصيري لم يكن سهلًا. بخلاف رقم الهاتف الخارج من نطاق

الخدمة، وتلك القصاصة من الصحيفة، وبعض ذكريات عمي حسن من أيام الطفولة، كان الشيء الوحيد الذي أعرفه عنه هو عنوانه: ٧٢ شارع جمال الدين.

لسوء الحظ، كانت هناك ستة شوارع مختلفة باسم جمال الدين في القاهرة، وأربعة عشر شارعًا لو أضفت كل تلك التي لها أسماء شبيهة مثل جمال الدين عفيفي أو جمال عز الدين.

قالت عائشة بعد ذلك بعدة أيام عقب تناولنا الغداء في مطعم الكشري المفضل لها: «أراهنك أنه هذا الشارع». أشارت لشارع صغير ملتف في جاردن سيتي، على مبعدة مربعين سكنيين من شقتي، ثم أدارت الخريطة حتى أتمكن من رؤيته.

سألتها وأنا أقلب الصفحة للدقي: «وماذا عن هذا الشارع؟».

قالت وهي تقلب الصفحات لخريطة هليوبوليس: «ربما، أو ربما هذا؟».

لم يكن هناك ما يدعو للاعتقاد بأن السيد موصيري يعيش في شارع جمال الدين الكائن بجاردن سيتي أو ذلك الكائن في الدقي أو في هليوبوليس. لكن كان عليَّ أن أبدأ البحث في مكان ما، ولم يكن هناك ما يمنع أن أبدأ بذلك الكائن على مبعدة قريبة. لذا، في صباح اليوم التالي، قطعت الطريق عبر شارع القصر العيني حتى السفارة الكندية وانحرفت يسارًا في شارع جمال الدين.

لو أغلقت عينًا واحدة، قد يمكنك تخيل شكل الشارع قبل مائة

عام مضت: طريق واسع ملتف تحفه الأشجار وفيلات حجرية ضخمة تم بناؤها لتناسب ذوق الأثرياء الجدد من العاملين في مجال الصناعة، على مسافة غير بعيدة من النيل وعلى مسافة من وسط البلد تقطعها عربة تجرها الخيل في وقت قصير. في الوقت الحاضر، كان الشارع مقرًّا للسفارة الإندونيسية، ونقطة للشرطة، وحضانة هابي تشايلد الإنجليزية للأطفال، بالإضافة إلى بضع فيلات قديمة تم تقسيمها لشقق سكنية. لكن لم يكن هناك عقار يحمل رقم ٧٢.

الشيء الوحيد الموجود بين رقمي ٧٤ و٦٨ كان حارة ضيقة تحتلها عربة حديدية لبيع الطعام.

قلت للرجل الواقف خلف العربة: «معذرة، أنا أبحث عن السيد موصيري».

ناولته بطاقة السيد موصيري وتفحصها هو للحظة قبل أن يناولها لرجل جالس على مقعد خشبي خلفه.

«السيد كلود موصيري». قرأها الرجل الجالس على الكرسي. «٧٢ شارع جمال الدين».

أضفت قائلًا: «كان صديقًا لوالدي».

أبدا الرجلان تعاطفهما معي -خاصة حين أخبرتهما أن والدي مصري وقد توفي حديثًا- لكن لم يعرف أيًّا منهما شخصًا باسم السيد موصيري. وكذلك لم يعرف صاحب متجر الخضراوات الكائن عند الناصية، ولا صاحب كشك الصحف الواقع في منتصف المربع

السكني. قال بواب العمارة رقم ٧٤ في شارع جمال الدين إنه لا يوجد أحد باسم السيد موصيري يقطن في العمارة. لكنه على الرغم من ذلك اقترح أن أترك رسالة لأحد الضباط في نقطة الشرطة على سبيل الاحتياط. كانت محاولة يغلب عليها طابع اليأس، لكن لم تكن لديَّ العديد من الخيارات الأخرى. لذا استعرت قلمًا وورقة من أحد محلات تصوير الأوراق في ذلك المربع السكني، وكتبت رسالتين بأفضل خط عربي بإمكاني الكتابة به.

سيدي الفاضل،

اسمي يوسف الراقب.

أبحث عن السيد كلود موصيري.

لو كنت تعرفه، أرجو أن تقوم بالاتصال بي. رقمي هو

٠١٨٧٣٦٢٥٨٣

مع الشكر،

يوسف

تركت رسالة من الرسالتين مع بواب العمارة رقم ٧٤ شارع جمال الدين، ووضعت الأخرى في صندوق بريد عيادة طبيب الأسنان في العمارة المجاورة. عدت بعد ذلك لعربة بيع الطعام، واشتريت بعض شطائر الفول والطعمية والباذنجان المقلي والمخلل، وتناولتهم ثم سرت عائدًا عبر شارع قصر العيني إلى شقتي.

سألتني عائشة عندما اتصلت بها لاحقًا عصر ذلك اليوم: «هل وجدته؟».

قلت: «لم تكن هناك حتى أي عمارة برقم ٧٢». فضحكت هي.

«فلتنتقل للبحث في الشارع الذي يليه».

خلال الأسبوع والنصف التاليين، وبانتهاء أغسطس وحلول سبتمبر، بدأت أشجار الخروب في الشارع أمام شقتي تسقط ثمارها، بينما زرت أنا شوارع متعددة لها اسم جمال الدين في جميع أنحاء القاهرة ما بين الجيزة والعباسية ومدينة نصر وهليوبوليس وإمبابة. تجولت عبر شوارع المدينة في سيارات أجرة لها مقاعد مغطاة بالبلاستيك الممزق وتزينها الملصقات المختلفة. سرت عندما سنحت لي الفرصة، وركبت مترو الأنفاق. انحشرت في حافلات متراقصة متعددة الألوان تزدحم بالرجال الذين هم في منتصف العمر وبالأسر ومن وقت لآخر سيدة كبيرة في السن تحمل قفصًا مليئًا بالدجاج. أحيانًا كنت أتجول في الحي المحيط بالشارع معظم النهار، وفي أحيان أخرى كنت أبقى لبضع دقائق فقط. لكنني كنت دائمًا ما أترك رسالة، أمررها أسفل باب العمارة رقم ٧٢ بشارع جمال الدين، أو في واحدة من العمارات المجاورة.

كان الأمر مرهقًا في بعض الأحيان، وأنا أصارع المرور والتلوث وحرارة الجو، وأسير عبر ما بدا وكأنه عدد لا نهائي من الشوارع التي لها اسم جمال الدين. بدأت كل الأحياء تتداخل مع بعضها، بكل تلك الأكوام من القمامة والأسمنت وحديد التسليح ولافتات الدعاية الانتخابية الباهتة المعلقة بين العمارات، والأطفال بزيهم المدرسي ذي اللونين الأبيض والأزرق وهم يطاردون بعضهم بعضًا وسط العربات الخشبية المحملة بالخضراوات والفاكهة الناضجة حد العطب، ومحل

الميكانيكي الصغير المغطى ببقع الشحم بجوار محل بقالة بجوار مطعم يقدم الدجاج الذي تم طهيه في دولاب شواء.

لكن كانت هناك بعض لمحات الأمل من وقت لآخر. قابلت رجلًا كبيرًا في السن في أحد مقاهي العجوزة قال إنه كان له زميل في المدرسة الابتدائية اسمه موصيري. تناولت الغداء في مدينة نصر أمام أحد البنوك مع حارس أمن أخبرني أنه كان هناك رجل اسمه موصيري يسكن بجوار والدته. وبين حين وآخر، بينما أنا أتجول بين الشوارع التي تحمل اسم جمال الدين، كنت أمر أمام أحد محلات الحلاقة أو أمام مقهى صغير يذكرني بوالدي دون أي سبب واضح. بينما أنظر عبر النافذة الزجاجية للمحل، كنت أتخيله جالسًا قائمًا في الكرسي المغطى بالمشمع الأخضر لدى الحلاق، أو يلعب الطاولة في الركن البعيد من المقهى. في أحد الأيام، رأيته يركب دراجة بخارية عبر كوبري قصر النيل. بعدها بعدة أيام كان يدخن سيجارة أمام أحد المباني الحكومية. كنت أعلم أنه في الواقع ليس هو، لكن على الرغم من ذلك كنت أستشعر نوعًا من الراحة وكأنه موجود لحمايتي. وفي كل مرة كنت أراه –وهو يتناول الشاي مع أحد ضباط الشرطة أو يحاول العبور بشاحنة من بين الزحام المروري– كنت أتيقن أنني على الطريق الصحيح.

* * *

عندما أستعيد الأحداث، يمكنني أن أتبين كم كنت أشعر بالوحدة، وأنا أتجول من حي لآخر باحثًا عن إجابات أسئلة أعجز عن صياغتها بوضوح. بالتأكيد كنت أتناول الغداء مع عائشة وأصدقائها بين حين

وآخر، وكنت أزور عمي حسن وعمتي بسيمة لتناول العشاء يوم الأحد. تحادثت مع والدتي عبر الهاتف، وأرسلت لأصدقائي رسائل بريد إلكتروني مرحة أحكي فيها انطباعاتي عن المدينة إلى جانب الحكايات الطريفة وبعض التأملات الجادة حول التفاوت الكبير في توزيع الثروة. لكنني كنت وحدي معظم الوقت.

خلال تلك الأسابيع الأولى في القاهرة -بينما أتجول في المدينة باحثا عن شارع جمال الدين الذي أنشده- كانت أكثر تعاملاتي انتظامًا مع بواب العمارة، عبد الله. كان موجودًا على الدوام عندما أغادر في الصباح وعندما أعود بعد العصر، يتناول عشاءه ويشرب الشاي أو يدخن سيجارة مع أحد قائدي سيارات الأجرة على الجهة المقابلة من الشارع. بين حين وآخر كان يسألني عن يومي، وتناولت معه الشاي مرة أو مرتين على السلم الأمامي للعمارة. كنت ألوح له ونتبادل التحية. لكنه لم يشغل بالي كثيرًا، وفي الغالب اقتصرت تعاملاتنا على الأحاديث القصيرة وتبادل النكات.

تغير كل هذا ذات مساء، بينما أنا عائد من شارع مترب للغاية بالقرب من المطار يحمل اسم جمال الدين. وجدته في مدخل العمارة، يجلس متربعًا أمام باب الغرفة الصغيرة التي ينام بها وعيناه مغمضتان وهو سارح في تأمل أغنية لفان موريسون تنداح نغماتها من جهاز التسجيل الصغير بجوار قدميه. لم يكن وسيمًا تبعًا للمعايير التقليدية، لكن ملامحه المتنافرة كانت لها عذوبتها الخاصة. وعندما فتح عينيه بعد انتهاء الأغنية، فاجأتني ابتسامته المباشرة الموجهة نحوي.

سألني وهو يعدل من جلسته بحيث يفسح لي مكانًا في غرفته الصغيرة: «هل يمكنك مساعدتي حتى أفهم الكلمات؟ إنها أغنية بالغة الصعوبة».

قلت وأنا أجلس القرفصاء بجواره: «فلتقم بتشغيلها ثانية».

استمعنا للأغنية للمرة الثانية، ثم الثالثة ونحن نحاول التقاط الكلمات قبل أن تذوب وسط ضجيج آلات التنبيه والصيحات في الشارع. في المرة الرابعة، تمكنت من تمييز بضع عبارات أخرى -قابلهم في الخارج وجهًا لوجه... يعيش حاملًا مسدسًا- بما يكفي لأفهم المعنى العام. وقع شجار في حانة، وكان هناك هارب من العدالة، وبعض النتائج غير المقصودة التي ترتبت على الأمر. ربما كان هذا هو كل ما يفترض أن نعرفه. أو ربما كان علينا نحن أن نملأ فراغات الحكاية لنخلق معنى ما مما بين أيدينا بالفعل.

قلت ردًّا على سؤاله حول سطر محير من سطور الأغنية: «من الصعب فهم معناه».

قال عبد الله: «من الصعب فهمه، لكن ليس من الصعب الإحساس به».

قلت: «أجل». كان محقًّا.

استمعنا للأغنية التي تليها، والتي تليها، بينما أنا أحدق في الجدار خلفه، وأحرص على ألا أتحرك كي لا أفقد تلك الشحنة الناتجة عن تقاربنا وذلك الإحساس بالدفء ورائحة جسده الحادة التي تشبه

الخميرة. فكرت أن هذه هي غرفة نومه، بينما هو يميل فوقي كي يلتقط علبة شريط التسجيل. كما كانت غرفة معيشته، ومن عساه يدري ماذا كانت تمثل له أيضًا إلى جانب ذلك؛ مساحة لا تتعدى بضعة أمتار مربعة مفروشة ببعض الأغطية ووسادتين وجهاز تسجيل ونص مكتوب بالخط العربي يحيطه برواز مذهب. لم تكن لدي أدنى فكرة أين يحتفظ بملابسه ومستلزمات الحمام، وأين يذهب للاغتسال أو لغسيل أسنانه. لم يكن بمقدوري أن أتخيل أبسط أساسيات حياته.

«ليندن آردن». قرأها من على ظهر علبة شريط التسجيل. «ترى من يكون؟».

هززت رأسي. «لا أدري».

قال مشاكسًا: «أنت لست مفيدًا على الإطلاق».

التقطت العلبة منه وتأملت الغلاف. كان فان موريسون بشعر مشعث يجلس وحيدًا وسط حقل زاهي الخضرة، تحيطه من الجانبين كلاب صيد من سلالة إيرلندية. كان عالمًا آخر، يختلف اختلافًا شاسعًا عن هذه الغرفة الصغيرة الواقعة على مسافة قريبة من النيل.

سألته: «من أين حصلت على هذا الشريط؟».

قال: «من صديقي جاريت، من روتردام. أعطاني الشريط منذ سنوات طويلة مضت عندما أتى لزيارة سيوة».

توقف عبد الله عن الحديث بطريقة موحية، بحيث بقي السؤال عن جاريت معلقًا بيننا.

«هل تعرف سيوة؟».

كنت قد سمعت عن سيوة، وربما كان بمقدوري أن أشير إليها على الخريطة؛ واحة وحيدة وسط الصحراء بجوار الحدود مع ليبيا. فيما عدا ذلك، كل ما كنت أعرفه هو حكاية الإسكندر الأكبر الذي تتبع سربًا من الطيور عبر الصحراء كي يزور كبير كهنة المعبد في سيوة.

قال عبد الله: «بها أحلى أنواع التمور في مصر بأكملها».

«حقًّا؟».

ابتسم واستعاد مني علبة شريط التسجيل.

جلسنا هناك معظم المساء، نستمع لفان موريسون ونشاهد سكان العمارة، وهم يدخلون محملين بأغراضهم ومعهم أطفالهم والأكياس البلاستيكية السوداء التي تحوي مشترواتهم. أومأوا جميعًا تجاهنا وألقوا التحية. طلب بعضهم من عبد الله أن يصعد في وقت لاحق ليتفحص صنبورًا تتسرب منه المياه أو جهاز تكييف لا يعمل كما يجب. لكن لم يبدُ أن أيًّا منهم تعجب لجلوسنا معًا متقاربين في غرفته الصغيرة ونحن نستمع للموسيقى.

بينما ضوء الغسق يتسلل داخلًا من الباب، أخبرني عبد الله أنه نشأ في سيوة، حتى انتقل مع أسرته للقاهرة عندما كان في السابعة عشر من العمر. كان من المفترض أن يدرس الطب البيطري في جامعة القاهرة، بينما تعمل أمه في تنظيف البيوت، ويعمل أبوه كبواب. لكن بعد أن أنهى نصف سنوات دراسته، مرضت أمه فاضطر لاستلام مسؤولية

العمل كبواب من أبيه الذي بدأ يعمل كسائق لسيارة أجرة.

قال وقد توقع تعاطفي معه: «الأمر ليس سيئًا لهذا الحد. فأنا أقرأ وأستمع للموسيقى، وأشاهد الناس في جيئتهم وذهابهم».

قلت وأنا أحملق خارج فراغ الباب: «أعتقد أنه ليس سيئًا لهذا الحد بالفعل».

أثناء نشأتي، كنت دومًا أشعر بالخجل إلى حد ما من فكرة عمل أبي كحارس. كنت أتخيله حارس أمن في بنك من البنوك أو أحد مطاعم الوجبات السريعة، مجرد أحد المرتزقة الذين يرتدون زيًّا رسميًّا مزيفًا، ولا يملك من الشجاعة الكافية ما يجعله يعمل كشرطي أو رجل إطفاء. لكن أثناء جلوسي هناك مع عبد الله وأنا أتبادل الحديث مع سكان العمارة في طريقهم للدخول، بدأت أرى وقار وهدوء هذا العمل. لم يكن الحارس مجرد فرد أمن، بل كان هو روح المكان، والتجسيد الحي للمبنى على شكل إنسان.

قال عبد الله وهو يشير للجدار خلفي: «هل تعلم ما هذا؟».

تتبعت إصبعه الذي كان يشير لنص بالخط العربي معلق داخل برواز فوق رأسي.

قلت: «كلا».

قال: «إنه حديث للرسول محمد»، يقول الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء».

حملقت في الخط العربي، محاولًا تفسير الأحرف المتشابكة، وأنا أحاول فهم ما يقصده، وما الذي يريد أن يخبرني به.

«هل أنت متدين لحد كبير؟».

كان سؤالًا سخيفًا وسطحيًّا وبعيدًا إلى حد ما عن السؤال الذي كنت أرغب في طرحه بالفعل. لكن على الرغم من ذلك، أجاب عن السؤال بمعناه الظاهري.

قال: «أنا أؤمن بوجود الله، لكن هناك بعض الأشياء التي لا أتفق معها».

«حسنا...».

بينما أعدل من جلستي وأنا أحاول صياغة السؤال، أدركت أن إحدى ساقي أصابها الخدر. فقد ظللت جالسًا في ذات الوضع معظم المساء.

«ساقي». قلت وأنا أقف مستندًا إلى الجدار، وأحركها كي تجري فيها الدماء ثانية: «لقد أصابها الخدر. كأن بها وخز دبابيس وإبر».

وقفت هناك للحظة وأنا أدلك ساقي.

«يجدر بي أن أخلد للنوم أنا الآخر».

رفع عبد الله نظره نحوي، ومد يده واعتصر سمانتي تحت الجزء الذي كنت أدلكه مباشرة.

«شكرًا على مساعدتي لفهم الأغنية».

قلت: «تصبح على خير». لكنني لم أتحرك من مكاني.

بقينا هكذا لدقيقتين تقريبًا، وأنا أقف فوقه بينما يده على ساقي. لم يتحرك أي منا ولم ينظر أحدنا للآخر.

كانت كل الدلائل تدفعني لأن أقدم على الأمر وأنحني للأسفل وأقبّله. لكنني كنت أملك من الخبرة ما يجعلني أحجم عن الأمر. كنت أعلم أن الأمور تسير بشكل مختلف في مصر، وأن التلامس بشكل ودي شيء طبيعي، وأن حتى أكثر الرجال نفورًا من المثليين لن يتردد في السير في الطريق ممسكًا بيد صديق من الأصدقاء. في مصر، لم تكن المثلية سمة من سمات الشخصية، بل كانت نوعًا من السلوك. كانت فعلًا، أو أفعالًا متعددة يقدم عليها المرء، ولم تكن نوعًا من الهوية. كل ذلك جعلني أكذب حدسي وأمتنع عن أي أفعال لا يمكن التراجع عنها حتى أتأكد من نوايا عبد الله.

في نهاية المطاف قلت: «يجدر بي حقًّا أن أخلد للنوم».

قال موافقًا وهو يضع علبة شريط التسجيل الخالية بجوار قدمي: «أجل. أتمنى أن أراك قريبًا».

❊ ❊ ❊

في الأيام التالية، بدأنا أنا وعبد الله نقضي وقتا أطول معًا. اشتريت له العشاء من المطعم الكائن في مربعنا السكني والذي يبيع الحمص والفول. دخنا الشيشة على السلم الأمامي للعمارة واحتسينا الشاي الأسود المحلى، وشاهدنا سكان الحي يمرون في طريقهم. حكيت له عن والدي، والسيد موصيري، وعن الشوارع المختلفة التي زرتها والتي تحمل اسم جمال الدين. حكيت له عن النادل الذي صمم أن يدفع لي

ثمن وجبة غدائي، كي يمنحني القوة التي أحتاجها، وعن مجموعة من الأطفال الذين تتبعوني عبر الطريق وهم يصيحون «كو-كا-كو-لا، كو-كا-كو-لا». لكنني لم أذكر شيئًا عن الطرد الذي أرسله لي والدي -والدافع وراء بحثي- من جهة لأنني كنت أعلم أن الأمر معقد لدرجة تجعل من الصعب شرحه، ومن جهة أخرى لأنني كنت أعلم أن ذكر الطرد سيقود لذكر المعبد، ولو ذكرت له المعبد فسأضطر لإخباره عن عائلة والدتي، مما يعني أنني سأضطر لإخباره أنني يهودي. ومع كل الأمور المعلقة بيننا -مسألة نواياه، ودلالة لوحة الخط العربي المعلقة على جدار غرفته، واختلال موازين القوة الذي لا مفر منه والكامن في مركز كل منا- اعتقدت أنه من الأسهل تفادي كل ذلك في الوقت الحالي.

وفي نفس الوقت، أخذت كل تلك الأمور الأخرى التي كانت محل شك تتلاشى. أو ربما كان الأدق أن أقول إنه حلت محلها أمور أخرى. لم يكن عبد الله من ذلك النوع من الرجال الذي يجذبني في العادة، وربما كان هذا أمرًا جيدًا. لم نتحدث أبدًا عن الأفكار المجردة، ولا أعتقد حتى أنه كان يعلم أنني طالب دراسات عليا. لكن كانت هناك راحة في تعاملاتنا لا أذكرها في أي علاقة أخرى من علاقاتي مع الرجال المغرورين المثقفين الذين كنت أواعدهم في العادة. مع ازدياد الوقت الذي نقضيه معًا أكثر فأكثر، ونحن نشرب الشاي وندخن الشيشة على السلم الأمامي للعمارة، بدأنا نشكل نظامًا خاصًّا ونكتًا خاصة بنا. أخذ ذلك التلامس العفوي على ما يبدو -يده على ذراعي أو ركبته المستقرة

بجوار كاحلي- يتزايد أكثر وأكثر. ثم انكسرت حدة التوتر أخيرًا ذات يوم، والجو بارد عصرًا على غير العادة في منتصف سبتمبر.

كنت قد قضيت معظم ذلك النهار وأنا أبحث عن واحد من أواخر الشوارع التي على قائمتي والتي تحمل اسم جمال الدين؛ زقاق صغير ناحية الطرف الجنوبي للزمالك. وعندما عدت للشقة كنت أشعر بخيبة أمل بالغة.

سألني عبد الله عندما رآني أصعد السلم: «هل أنت بخير؟». لا بد وأن ملامحي كان يبدو عليها الاستياء، لأنه قام واقفًا ليعرض عليَّ مقعده.

قلت: «أجل. لكن...».

ظننت أن الأمر سيكون سهلًا. أنني سأجد السيد موصيري وأنه سيجيب عن كل تساؤلاتي. ظننت أن مجرد وجودي في القاهرة سيساعدني أن أفهم أبي والطرد وكل الحكايات التي تتزاحم داخله. اعتقدت أن الأهرامات وبرج القاهرة وطعم مياه الصنبور بشوائبه ووخز الجلد الذي أحرقته الشمس في مؤخرة عنقي، أن كل ذلك سيجتمع ليعطيني إحساسًا داخليًّا أتفهم به الأمر ولا يمكنني الشعور به في كاليفورنيا. لكن الأمور بالطبع لم تسير هكذا.

قلت وأنا ألقي برأسي بين كفي: «لا أدري. لا أعلم ما الذي أفعله هنا».

لم يجب عبد الله، لكنني استشعرت ثقل يده على مؤخرة عنقي، وإبهامه يدلك كتفي.

قال بعد فترة طويلة من الصمت: «أنت تبذل كل ما بوسعك».

قلت وأنا أعتدل في جلستي: «لكن أي فارق يشكله ذلك إذا لم أتمكن من العثور على السيد موصيري؟ ما الذي أفعله؟ أليس من الأسهل أن أعود لبيتي؟».

بينما هو يفكر في أسئلتي هذه، حرك عبد الله يده ليضعها على ركبتي، وكأن هذا هو مكانها الطبيعي.

قال وإبهامه يدلك فخذي برفق: «أحيانًا يكون البحث هو أهم شيء. وبالنسبة لي...».

توقف ليبحث عن الكلمات المناسبة، وشفتاه تتحركان ببطء وكأنه يجرب النطق بأصوات مختلفة. قبل أن يتمكن من النطق بأي شيء آخر، وضعت يدي على مؤخرة عنقه –ودون تردد، ودون حتى أن أفكر في العواقب المحتملة، ودون حتى أن أنظر ورائي لأتأكد ما إذا كان أحدهم ينزل الدرج– جذبته نحوي.

شعرت بنبضه يتسارع تحت أناملي. لكن عندما ملت للأمام، حرك يده نحو صدري ودفعني بعيدًا برقة لكن بطريقة لا تقبل الشك.

«ليس هنا».

«فلتصعد معي إذن».

قال: «ليس الآن. لا أستطيع مغادرة موقعي».

سألته: «متى؟».

«قريبًا».

في وقت لاحق تلك الليلة، استيقظت على صوت أحدهم وهو يحاول فتح باب شقتي. لوهلة، ظننت أنه ربما يكون لصًّا أو جارًا ثملًا، أو شرطيًّا حضر لإلقاء القبض عليَّ بتهمة «السلوك الفاضح». لكن القفل لم يلبث أن أصدر صوتًا وانفتح الباب ومع وقع خطواته، وصل عبد الله حتى طرف غرفة نومي.

«كنت أعتقد أنك لا يمكنك مغادرة موقعك». قلتها مشاكسًا.

«يمكنني ذلك الليلة». قالها وهو يرفع جلبابه فوق رأسه.

بدأ عنيفًا في أول الأمر -يمسكني بقوة ويصدر أصواتًا عالية ويجذبني من شعري- ثم صار أكثر رقة عندما وصل للذروة وتكوم بجواري. لم يكن الأمر كما توقعته على الإطلاق. لم تكن هناك أي قشرة صلبة من المقاومة، ولا أي رقة ساذجة تتحول لرغبة جياشة. وبعدها لم يكن هناك أي نوع من الحرج كما توقعت.

عندما خرجت من الحمام، وجدته جالسًا على الأريكة المخملية التي لها لون السلمون في منتصف حجرة المعيشة، وهو يرتدي قميصي القطني المطبوع عليه اسم سانتا كروز، وسروالًا من سراويلي المخططة باللونين الأزرق والأخضر. كان يجلس وهو يطوي ساقيه أسفل منه، بينما يتفحص العلبة التي تركتها على الطاولة.

سألني: «ما هذا؟».

لم تكن هناك أي نبرة تهديد في صوته، ولا شك أو اتهام، بل مجرد فضول. على الرغم من ذلك، عندما رأيته جالسًا هكذا على الأريكة،

شعرت بوخز القلق في صدري.

قلت وأنا أستشعر الخوف وهو يسري في أوصالي: «هذا؟».

كيف لي أن أتأكد أنه كان بالفعل كما يدعي؟ فمن الممكن أن يكون أي شخص: أحد المتطرفين، أو مخبرًا من وزارة الداخلية. والآن ها هو ذا، جالس على أريكتي يوجه لي أسئلة لم أكن أعرف كيف أجيب عنها. وحتى لو كان بمقدوري الإجابة عن أسئلته، وحتى لو كان بالفعل كما يدعي، فلم أكن واثقًا أنني أريد إخباره أنني يهودي. سمعت صوت أمي وهي تكرر ما كانت تقوله دومًا: «لا يمكنك أن تثق بهم. يجب أن نتكاتف معًا». بذلت قصارى جهدي كي أفكر في كذبة، حكاية يسهل تصديقها ولا تقود في نهاية المطاف للمعبد ولأسرة والدتي وكل تلك الأمور. لكن في النهاية وعلى الرغم من خوفي، كان ما نطقت به هو الحقيقة.

قلت وأنا أجلس بجواره: «هذا هو السبب الذي أتى بي للقاهرة».

أمسك العلبة لحظة بين كفيه، ثم فتحها بحرص وتحسس بأصابعه الزجاج الذي يحمي الورقة بداخله.

«أتيت هنا بسبب قصاصة من الورق؟».

«إنها أكثر من مجرد قصاصة من الورق». قلتها بينما وجَّه هو نظره للأسفل تجاهها مرة ثانية ليتأكد أنه لم يفته شيء.

«تبدو لي وكأنها قصاصة ورق».

بينما أشرح له أهمية هذه الورقة بالتحديد على حد علمي -العبارات العربية التي تمكنت عائشة من تفسيرها، وعلاقة والدي بالمعبد الذي

يعتقد عمي حسن أن الورقة أتت منه- أخرجها عبد الله من البطانة المخملية وتفحصها بدقة من الجانبين. حملق في الجانب العبري لفترة طويلة، ثم رفع نظره إلي. بدأت تبعات الأمر تتضح على ملامحه.

سألني: «هل هذا يهودي؟».

صححت خطأه: «عبري. إنها من المعبد، من القاهرة القديمة».

هز رأسه رغم أنه كانت لا تزال تبدو عليه الحيرة إلى حد ما.

«هل كان والدك يهوديًّا؟».

قلت: «كلا».

بذلت ما بوسعي كي أشرح له كيف أن والدي كان مسلمًا، لكنه كان يعمل كحارس للمعبد، وكيف التقى بوالدتي اليهودية في ساحة المعبد ذاته قبل أن تغادر القاهرة، وكيف أنني كنت -تبعًا لمن الذي توجه له السؤال وتبعًا لكيفية تفكيرك أنت في الأمر- إما يهوديًّا أو مسلمًا أو الاثنين معًا. لكنني في الحقيقة لم أكن أشعر بالانتماء لأي منهما. فبخلاف بضعة أسابيع قضيتها في معسكر يهودي عندما كنت أصغر سنًّا، وزيارتين للمسجد في ذلك الصيف الذي قضيته في القاهرة، لم تكن لديَّ خبرة تذكر مع أي من الديانتين.

قلت في نهاية المطاف وأنا ما زلت أحاول أن أشرح الأمر: «ربما... هناك بعض الحكايات التي اعتاد أبي أن يرويها لي عن المعبد الذي جاءت منه هذه الورقة».

قال عبد الله: «أجل، احك لي حكاية».

عندما ارتاح في جلسته، ورأسه مسند على ذراع الأريكة وقدماه على حجري، شرعت أحكي له عن تلك السلالة العظيمة من حراس أسرة الراقب والتي تمتد عبر السنوات من أب لابنه، ومن أب لابنه. عندما وصلت للنهاية، وللطرد والسيد موصيري، وقصاصة الصحيفة التي وجدتها في حجرة والدي، صمت عبد الله وهو يتأمل الوهج الهادئ لشروق الشمس من خلال الستائر. بدا وكأنه يفكر في جواب، ويفكر في تكوين الجملة حتى يتمكن من التعبير بصورة صحيحة.

قال أخيرًا: «أريد أن أساعدك. أعتقد أنني يمكنني أن أعاونك في العثور على السيد موصيري».

سألته: «ما الذي تقصده؟»، فقام واعتدل في جلسته على الطرف الآخر من الأريكة.

قال: «هذه اللفافة، في غرفة العلية في المعبد. أخبرني المزيد عنها».

* * *

- ٦ -

في الصباح، انسكب ضوء أحمر مترب على هضبة المقطم وملأ أرض الوادي ما بين القلعة والأهرامات. غمر أحجار المدينة العتيقة بالدفء، وتلكأ بين أعمدة مسجد ابن طولون، متسلقًا مئذنته الحلزونية، قبل أن ينسكب على بساط من الطرقات والأحجار وحقول القطن حتى قمم الأهرامات الغائمة. بينما توأمها لا تزال نائمة، جلست أجنيس في الكرسي الأزرق ذي الظهر العريض بجوار النافذة البحرية، وهي تتأمل لوحة الشطرنج وتشاهد المدينة وهي تمتلئ بالألوان. عادة ما كانت تستيقظ بضع دقائق قبل شقيقتها لتستمتع بالأمان والهدوء الذي تستشعره في تلك اللحظات الباكرة من الصباح. دومًا ما كانت تسرح بتفكيرها في تلك الدقائق الأولى لها في العالم، وحدها قبل أن تصبح شقيقة وتوأم أحدهم، وقبل وفاة والدتهما، قبل أن تصير حياتها هي حياتهما هما، وأفكارها أفكارهما هما.

وكأنها تستجيب لمشاعر شقيقتها تلك، فتحت مارجريت عينيها ورفعت رأسها، تتأمل ذلك المشهد غير المألوف للفجر. سال خيط من لعابها واصلًا بين ركن فمها والوسادة، كأنها سمكة عالقة بسنارة النوم.

«هل استيقظت منذ فترة طويلة؟».

هزت أجنيس رأسها وتأملتا باقي شروق الشمس في صمت. كان الضوء مختلفًا هنا. وكيف لا يكون كذلك؟ كيف تكون هذه الشمس التي سار تحت أشعتها موسى وصلاح الدين ورمسيس هي نفس تلك التي عرفتاها في كامبريدج؟ كان نسيج الضوء أقوى وأشد عنادًا، تتكسر أشعته من بين الرمال والأتربة وخمسة آلاف عام من التاريخ. ربما كان عناد الضوء هذا هو ما أعد المصريين لتقبل غيابه؛ الظلال القاتمة للحجاب والرطوبة السوداء الباردة في قلب الأهرامات. ربما كانت شدة الضوء هي التي ألهمت اليهود بتلك العادة: دفن النصوص المقدسة أو إخفائها في غرفة العلية بالمعبد. كيف وصف الدكتور شيختر الأمر؟ «تصعد محتويات الكتاب للجنة مثلما تصعد الأرواح». لم يكن الماضي في مصر بعيدًا في أي وقت من الأوقات. فهو دومًا حاضر، ودومًا مختبئ في غرفة علية ما أو في قاع صندوق منسي. كانت البلد بأكملها مثل مخطوط قديم يُمحى ما عليه لتعاد كتابته من جديد كما يبدل الثعبان جلده؛ أسفل كل طبقة من طبقات الجلد تكمن أخرى في انتظار التفاعل المناسب، والرحالة المناسب ليكشفها.

انتظرت أجنيس حتى ارتفعت حافة الشمس السفلى فوق الأفق قبل أن تكسر الصمت.

«كش ملك».

«ماذا؟».

«لقد هزمتك».

لوت مارجريت رقبتها حتى تتمكن من رؤية لوح الشطرنج. كانت مباراة معقدة والنتيجة متقاربة كما هو حال مبارياتهما على الدوام. بدأت أجنيس بالهجوم، لكن مارجريت لم ترد الهجوم مباشرة، بل شرعت تجذب شقيقتها قدمًا بصبر عنكبوت.

«هذه حماقة منك يا نسطور».

«كيف هذا؟».

«حركي الفيل الخاص بي إلى الصف الثاني أمام الملكة».

قامت أجنيس بتحريكه وعندما فعلت ذلك رأت حماقتها.

«سحقًا!».

بقيتا صامتتين لفترة طويلة، وهما تتفحصان لوح الشطرنج وترتديان ملابسهما استعدادًا لليوم.

قالت أجنيس وهما في طريقهما للأسفل: «دعيني أفكر في الأمر».

«إنك تتعجلين الفوز للغاية يا نسطور».

«وأنت يا ميجي يسعدك للغاية التفاخر بالفوز».

جلس الدكتور شيختر والآنسة دو ويت بجوار المدفأة في الطرف البعيد من ردهة استقبال الفندق وهما يتبادلان الحديث مع رجل مصري ضئيل الحجم بادي التأنق. افترضا أن هذا هو السيد بيخو، صاحب المصانع وعضو مجلس إدارة شؤون الطائفة اليهودية والذي أصر على اصطحابهم في جولة في المدينة. للوهلة الأولى بدت عليه المهابة والأناقة –أفندي محترم بطربوشه وبدلته ذات اللون الرمادي

الفاتح المكونة من ثلاث قطع، ويديه الرقيقتين وشاربه النحيل لدرجة كان يتعذر معها على المرء رؤيته من بعض الزوايا- لكنه لم يخلُ من لمسة من الثقة بالنفس التي يشوبها الغرور والتي يتصف بها عادة محدثو الثراء. وقف وتناول يد مارجريت ليقبلها من قبل أن يتمكن الدكتور شيختر من تقديمهم لبعضهم البعض.

قال وهو ينظر في عيني مارجريت للحظة قبل أن يلتفت لشقيقتها: «يا له من شرف كبير».

«لقد سمعت عنكما الكثير من الدكتور شيختر».

على الرغم من أنه كان أقصرهم قامة -فقد كانت صلعته اللامعة على نفس مستوى أنف أجنيس- إلا أن السيد بيخو بدا وكأنه اعتاد أن يرفع الناس أنظارهم تجاهه. بعد أن انتهى من إلقاء التحية، انتقل بنظره من مارجريت لأجنيس ثم للآنسة دو ويت.

قال: «ثلاث نساء جميلات». ثم استدار ليقودهم خارجًا نحو عربته. كانت عربة أنيقة باللونين الكحلي مع الفضي ولها سقف قابل للطي. لم تر مارجريت وأجنيس مثلها منذ سنوات.

بعد أن أعطى السائق تعليمات بلغة بدت وكأنها مزيج من لهجة عربية من لهجات شمال أفريقيا مع العبرية، اطمأن السيد بيخو لأن الدكتور شيختر والثلاث نساء الجميلات قد استقروا في جلستهم.

قال: «لقد رتبت مسارًا لطيفًا للرحلة. أولًا نشاهد منظر المدينة بأكملها من خلف القلعة، ثم نتناول الغداء في نادي الجزيرة».

ألقى بنظره ناحية الشقيقتين فأبدتا موافقتهما. لم يكن لديهما خيار آخر. فقد أخبرهما الدكتور شيختر أن السيد بيخو هو عضو هام من أعضاء المجلس، ويجب إرضاؤه بأي ثمن.

«بعد تناول الغداء، فكرت أنه يمكننا زيارة موقع المعبد الجديد في شارع عدلي. فهو قريب للغاية من الفندق الذي تقيمان به. ثم لو كان لا يزال لدينا بعض الوقت، يمكننا أن نتنزه في جاردن سيتي ونشاهد المومياوات الجديدة في المتحف».

عند ذكر المومياوات، بدا الاهتمام الحقيقي على وجه مارجريت.

قالت أجنيس موضحة: «أختي مولعة بالمومياوات»، واعترفت مارجريت بصحة ذلك.

«لا أعتقد أن انبهاري سيزول أبدًا عند رؤية رفات إنسان عاش منذ آلاف السنين».

قالت الآنسة دو ويت: «إنهم يذكّرونني بالقطط». كانت أول مرة تنطق فيها طوال ذلك النهار، وبدا عليها القلق حيث إنها ترغب في ترك انطباع جيد. «ألا تعتقدون ذلك، بأنوفهم الدقيقة وشفاههم الصغيرة المجعدة؟».

عندما لم يبادر أحد بالرد، فردت ظهرها ودارت بنظرتها في العربة، تجاه السيدات أولًا ثم تجاه الرجال.

«بالطبع قد يكون هذا محض خيال».

قال الدكتور شيختر وقد تأخر في الدفاع عنها: «لا، لا بل أنت

محققة. أعتقد أنني أنا شخصيًّا قد أحب أن يتم تحنيطي بعد وفاتي، لولا أن ديني يمنع هذا».

بينما الدكتور شيختر يناقش عادات الدفن اليهودية، خرجت العربة التي تقلهم من ظلال المدينة القديمة وبدأت صعودها نحو القلعة.

المكان الذي اختاره السيد بيخو ليشاهدوا منه المنظر كان يقع على مرتفع صغير خلف القلعة. وقد كان عليهم الاعتراف أنه رائع للغاية. ارتفعت هضبة المقطم الجيرية البيضاء من خلفهم، وعلى مبعدة أقل من مائة ياردة من موقعهم بدت مآذن مسجد محمد علي وكأنها مداخن باخرة ضخمة تستعد للإبحار عبر محيط من البشر. بعد أن أشار تجاه مسجد ابن طولون وميدان بركة الفيل وقصر عابدين، انطلق السيد بيخو يشرح سلسلة طويلة من التفاصيل الخاصة بالمسجد الكائن بالأسفل، والتكلفة الضخمة لإنشائه، وارتفاع مآذنه، ووزن الفضة في قبابه.

قال وهو يشير تجاه برج الساعة النحاسي المزخرف في ركن الساحة: «قدّم الملك الفرنسي لويس فيليب الأول البرج لمحمد علي مقابل المسلة الموجودة في ميدان الكونكورد بباريس».

تبعًا لمنطق السيد بيخو، فإن تبادل الهدايا هذا قد أثبت أن مصر على قدم المساواة مع القوى الأوروبية العظمى، وأنه في خلال سنوات قصيرة، سوف يتفوق مهد الحضارة على تلك البلاد حديثة العهد بالمدنية. استمر في حديثه الذي يغلب عليه طابع القومية حتى عادوا لركوب العربة وقطعوا الطريق عبر المدينة حتى نادي الجزيرة، وقد ألقى بعض الادعاءات السخيفة حول الحكم البريطاني وإسماعيل باشا

وإنشاء قناة السويس. في رأي السيد بيخو، فقد وضع الاحتلال الأوروبي مصر على بداية طريق الحداثة، لكن مبررات النظام الاستعماري قد انتفت منذ سنوات طويلة مضت.

تنبأ قائلًا: «بعد خمس وعشرين عامًا من الآن، سوف تصير مصر دولة ذات استقلال كامل، ولها اقتصاد حديث ورئيس وزراء منتخب ديموقراطيًّا».

قالت أجنيس بلطف بقدر استطاعتها: «ألن يكون ذلك أمرًا رائعًا؟».

همست مارجريت بينما العربة تمر داخلة بوابات نادي الجزيرة: «أمرًا رائعًا. لكنه لن يحدث في الغالب».

كان على المرء أن يعترف أن المدينة تغيرت كثيرًا خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، وكان معظم ذلك التغيير نحو الأفضل. أيًّا ما كان رأي المرء حول إسماعيل باشا، فلم يكن بمقدوره إنكار أنه قد نجح في بناء مدينة أوروبية حديثة إلى جانب قلب المدينة القديم: قاهرة حديثة بها مصابيح الغاز والحدائق ومواسير مياه نقية. حتى نادي الجزيرة بدا مختلفًا. كانت أشجار النخيل وملاعب البولو أكثر خضرة عما كانتا تتذكران من قبل، وازداد أعضاء النادي من المصريين. أينما التفت المرء، كان هناك رجل أعمال له شعر مصفف بعناية وقد ارتدى بدلة من ثلاث قطع وطربوشًا وعلى وجهه ابتسامة تجمع ما بين الخجل والمكر في ذات الوقت.

بينما هو يقودهم من الباب الأمامي للنادي وعبر المدخل مرورًا أمام أشجار الفاكهة المزروعة في أصص، والندل الذين يرتدون سترات

حمراء ويتجولون بالمشروبات المتراصة على صواني معدنية، كان السيد بيخو يتوقف بعد بضع خطوات كل حين وآخر ليقدم التحية لأحد الأصدقاء أو شركاء العمل أو أحد العاملين في النادي، وهو يوزع على الجميع تنويعات مختلفة من نفس السلام باليد والتربيت على الظهر والقبلات. غمز لكبير الندل وهو يمر بجواره، وقاد المجموعة التي بصحبته ناحية مقعد نصف دائري في الركن الخلفي من المطعم. بعدها ببضع لحظات، جلب فريق من الندل المشروبات بالإضافة لمجموعة من المقبلات. تلى ذلك الحمام المشوي للسيدات وتشكيلة من المشويات للرجال.

بعدما أثنوا على الطعام وبدأوا في تناول وجبتهم، رأت أجنيس أنه من المناسب الآن أن تثير الموضوع الذي ظلت منشغلة به طوال النهار.

«أخبرنا الدكتور شيختر أنه وجد بعض الوثائق المثيرة جدًّا للاهتمام في جنيزة معبد بن عزرا».

أوضح الدكتور شيختر قائلًا: «السيدة لويس عالمة بارعة. لعلك قد سمعت عن مجموعة مخطوطات سانت كاترين؟ كانت هي من اكتشفها».

قال السيد بيخو وهو يزم شفتيه كأنه يحاول أن يتذكر اسم أحد الأقارب البعيدين الذي طلب منه قرضًا من قبل: «أجل. أذكر هذه الحكاية. ألم يكن هناك كلام حول استخدام المخطوطات كطبق لتقديم الزبد؟».

تناولت أجنيس رشفة من المياه لتخفي تجهم ملامحها. تلك

الحكاية اللعينة –أنها اكتشفت المخطوطات وهي تتناول إفطارها ذات صباح، عندما اكتشفت أن الحبر يسيل فيلوث الزبد– ستظل تطاردها حتى القبر. كانت حكاية تنافي العقل. لماذا يستخدم رهبان سانت كاترين مخطوطاتهم كآنية للطعام؟ فلم يكونوا حتى يتناولون الزبد، بل كانوا يستخدمون زيت الزيتون. ومع ذلك، بقيت الحكاية ملتصقة بعقول الناس. لم يتذكر الناس عملهما الشاق ولا براعتهما ولا الأسابيع التي قضتاها في الصحراء وهما تدرسان المخطوطات القديمة بكل دقة. لم يتذكروا الشهور التي قضتاها في النسخ ولا كتاب مارجريت أو الخطاب الذي ألقته أجنيس أمام الجمعية الملكية الآسيوية. كل ما تذكروه هو طبق الزبد.

أجابت مارجريت نيابة عن شقيقتها: «وجدتها في ركن مكتبة الدير. لذا فنحن نشعر بالاهتمام البالغ بوصف الدكتور شيختر للجنيزة».

استمع السيد بيخو باهتمام حتى انتهت مارجريت من الحديث، ثم ابتسم وهو يعصر الليمون في مشروبه.

قال وكأنه يواصل نفس خيط الحديث: «هذا حقيقي». ثم التفت للآنسة دو ويت قائلًا: «أتمنى أن يحوز الحمام على إعجابك. هذا طبق تقليدي من أطباقنا».

مسحت الآنسة دو ويت شفتيها بمنديلها.

قالت: «أجل، لقد أعجبني الطعام كله للغاية».

بينما الفتاة تمتدح أطباق الطعام، فتحت أجنيس فمها قليلًا وهي تنتظر الفرصة لإثارة الموضوع مرة أخرى، وكي تصر على مناقشة أمر الوثائق التي عبروا لأجلها نصف الكرة الأرضية كما ينبغي. لكن بعد أن شعرت بيد شقيقتها على ركبتها، قررت أن تعيد التفكير في أسلوبها. كانتا قد تعاملتا مع مثل هذا النوع من الرجال من قبل: وزراء ورجال صناعة كانوا يمتنعون عن مناقشة أي أمور ذات أهمية مع الجنس اللطيف، وكانتا تعلمان أنه في الغالب من الأفضل التعامل معهم بأسلوب غير مباشر. وكان هذا هامًّا للغاية خاصة مع شخص مثل السيد بيخو الذي كان يعلم أقل القليل عن تفاصيل عملهما، لكن بسبب منصبه كان لا غنى عنه لنجاح العمل.

قالت أجنيس أخيرًا: «إنه شهي للغاية. هل هذه النكهة التي أتذوقها هي البرجموت؟».

بعد نقاش قصير عن المطبخ المصري، انقضى باقي وقت الغداء في الحديث عن نظام التعليم البريطاني، وجامعة كامبريدج، ومدى إمكانية أن يقوم رجل أعمال شرقي متعلم -مثل السيد بيخو- بإرسال ابنه ليدرس هناك. كان هو والدكتور شيختر قد ناقشا هذه المسألة باستفاضة من قبل على ما يبدو؛ لذا فقد كانت معظم أسئلة السيد بيخو موجهة للشقيقتين. مع استمرار الحديث، بدا من الواضح أنه كان يعدهما كحارستين لأبواب الجامعة، وأن تأييدهما يكفي لقبول دخول ابنه.

كانتا تحاولان إبعاد هذه الفكرة عن ذهنه -فقد أخبرتاه أنه على الرغم من صداقتهما مع عدد من الأساتذة في الجامعة، إلا أنهما لم يكن

لهما أي منصب رسمي هناك- عندما تقدم رئيس الندل من طاولتهما حاملًا رسالة. على ما يبدو فقد كان هناك عمل هام متعلق بمصنع السكر الذي يملكه السيد بيخو، وعلى إثر ذلك سيضطرون لإلغاء الجزء المسائي من جولتهم. لكنه وعدهم بإتمام الجولة في صباح اليوم التالي لو كانوا يرغبون في ذلك.

قال الدكتور شيختر بعد أن رحل السيد بيخو: «إنه لموقف مؤسف حقًّا، ذلك المتعلق بابنه».

ألقى نظرة تجاه الآنسة دو ويت ثم شرع يحكي كيف أن مارسيل، الابن الأكبر للسيد بيخو، قد ضبط متلبسًا قبل بضعة أسابيع مضت في علاقة مثلية مع الابن الأصغر لحارس معبد بن عزرا، السيد محمد الراقب. كانت فضيحة كبيرة، وكان السيد بيخو يعتقد أن الحل الوحيد هو أن يرسل مارسيل للدراسة في أوروبا. عرض الدكتور شيختر أن يكتب رسالة لمجلس أمناء الجامعة، واقترح أن تقوم الشقيقتان بنفس الشيء لو كانتا تعتقدان أن ذلك أمر مناسب. كان من المؤكد دون شك أن رسالة كهذه ستفيد عملهم في الحصول على وثائق الجنيزة.

قالت مارجريت: «بالطبع سيسعدنا كثيرًا أن نفعل ما بوسعنا للمساعدة».

كانت خدمة صغيرة مقارنة بقيمة الوثائق البالغة الأهمية، وكانت مارجريت على استعداد لكتابة الرسالة بمجرد عودتهما للفندق. أما من ناحيتها، فقد شعرت أجنيس أنه يمكنهما استغلال الرسالة كوسيلة للتفاوض. بالإضافة لذلك، فقد كان هناك شيء ما بخصوص السيد

بيخو يثير قلقها. لاحقًا ذلك المساء، بعد الانتهاء من مباراة الشطرنج في غرفتهما، حاولت أجنيس تحديد مصدر شكوكها وهي تستعيد أحداث اليوم بداية من الغداء في نادي الجزيرة حتى مسجد محمد علي وجولتهم بالعربة في أرجاء المدينة. بعد ترتيب لوح الشطرنج -وقد فازت مارجريت بسهولة- جلست كل واحدة منهما في مقعدها وهي تحك ذقنها مستغرقة في التفكير في العلاقات المتشابكة بين السيد بيخو والسيد محمد الراقب، وابنيهما، والحاخام بن شيمون، وبالطبع، الآنسة دو ويت الجميلة للغاية والتي يبدو عليها الحماس البالغ. كلما تعمقتا في التفكير، كلما تأكد لهما أكثر أن واحدًا من هؤلاء الأشخاص أو ربما اثنين أو ثلاثة هم المسؤولون عن تسرب الوثائق من الجنيزة. وكلما تأملتا الوضع، كلما حامت شكوكهما حول حارس المعبد. سواء كان هو من خطط للسرقة، أو كان مجرد شريك، فقد كان من المحتم تورط السيد الراقب بطريقة أو بأخرى.

* * *

في صباح اليوم التالي أثناء تناولهما طعام الإفطار، كانت أجنيس تدهن الخبز بالزبد بينما تتصفح عددًا قديمًا من صحيفة التايمز يعود لأسبوعين مضيا، وهي تحاول التفكير في طريقة تتغلب بها على الحركة التي قامت بها شقيقتها في لعبة الشطرنج، عندما ناولها موظف الاستقبال في الفندق رسالة من الدكتور شيختر. اتضح أن المشكلة المتعلقة بمصنع السكر كانت أكثر تعقيدًا مما توقع السيد بيخو في بادئ الأمر، وأنه لن يتمكن من اصطحابهم لما تبقى من الجولة. في

يوم الجمعة، أرسل الدكتور شيختر رسالة أخرى يعتذر فيها هو والسيد بيخو عن الانضمام إليهما ذلك المساء، حيث إن عليهما الاستعداد للسبت اليهودي. كان يوم السبت بالطبع هو السبت اليهودي نفسه، وكان يوم الأحد هو يوم راحة الشقيقتين. كل هذا كان يعني أنهما لن تتمكنا من زيارة المعبد قبل يوم الإثنين على الأقل، مما كان مزعجًا للغاية، لكنه لم يخلُ من بعض المميزات في الوقت ذاته.

بعد تناول الإفطار، استقلت الشقيقتان عربة وتوجهتا مباشرة لسوق بيع الكتب القديمة حيث قضيتا باقي اليوم تتجولان من كشك لآخر، وتلقيان الأسئلة وتشتريان كل ما يمكنهما شراؤه قبل أن يغلق السوق أبوابه ذلك المساء. خرجتا ثانية في صباح اليوم التالي، وبنهاية اليوم كانتا قد نجحتا في زيارة كل أكشاك السوق البالغ عددها مائة وأربعة وثلاثون كشكًا. في المجمل، قامتا بشراء ستة صناديق مليئة بالوثائق، وقد اكتست كلها بنفس الطبقة من التراب الأبيض الخفيف الذي وصفه الدكتور شيختر. فعلتا كل ما بوسعهما لإيقاف ذلك السيل، لكنهما لم تتمكنا من معرفة مصدر التسريب. عندما ألحتا على الباعة لمعرفة مصدر الوثائق، أجابوا جميعًا بهز أكتافهم بفتور وهم يقرون بمشروعية السؤال وينفون قدرتهم على تقديم الجواب. وبالإضافة لكل ذلك، فقد كانت الشقيقتان تعلمان أن مشترواتهما سترفع الأسعار في السوق. ما لم تتمكنا من تأمين الجنيزة في أقرب وقت، فإن محتوياتها -بما في ذلك، ربما، لفافة عزرا- سوف تبعثرها الرياح وتضيع. كل يوم يمر كان يعني سرقة المزيد من الوثائق التي لا تقدر بثمن وبيعها وضياعها للأبد.

لذا فقد شعرتا براحة بالغة عند تلقيهما رسالة مساء الأحد من الدكتور شيختر يبلغهما فيها أنه قد نجح أخيرًا في إقناع السيد بيخو كي يصطحبهم داخل معبد بن عزرا.

«أخيرًا». قالت أجنيس وهي تنقر غلاف كتابها بإصبعها: «أخيرًا».

في صباح اليوم التالي، بينما تقطعان الشوارع الترابية الضيقة للقاهرة القديمة، مرورًا بالأضرحة المتهدمة والقطط الضالة والأكواخ المتداعية، مدت مارجريت يدها لتعتصر يد شقيقتها. كان من الواضح أنه حي فقير، لكنه مليء بعبق التاريخ.

قالت وهي تشير جهة اليسار: «الكنيسة المعلقة. وها هي كنيسة سانت جورج».

كانت الشقيقتان تستشعران قدرًا كبيرًا من السعادة لرؤية الطراز المعماري القبطي بوقاره حيث كان يريحهما تذكر أن هذا المجتمع المسيحي قد سبق وصول المسلمين للقاهرة بمئات السنين. لكن في ذلك الصباح لم يكن هناك وقت لزيارة الكنائس. على مبعدة بضع مئات من الأقدام من كنيسة سانت جورج، ترجلتا أمام البوابة الأمامية لمعبد بن عزرا حيث كان الدكتور شيختر في انتظارهما مع الآنسة دو ويت والسيد بيخو.

قال السيد بيخو الذي لاحظ الشقيقتين وهما تنظران تجاه سيدة عجوز تتسول بجوار البوابة الأمامية للمعبد: «بقي عدد قليل للغاية من اليهود الذين يعيشون في القاهرة القديمة. لكن المبنى ما زالت له قيمة تاريخية وروحية كبيرة».

قبل أن يدخلوا المعبد نفسه، اصطحبهم السيد بيخو في جولة حول مبنى المعبد من الخارج، وهو يشير لأشجار النخيل التي تمت زراعتها حديثًا والمكان المخصص لسكن الفقراء، والبئر الكائن في ركن الساحة حيث يقال إن موسى تم انتشاله من النيل.

قال السيد بيخو وهو يهز أصابعه ليشير إلى مبنى حجري صغير في الجهة المقابلة من الساحة: «وهنا مقر سكن حارسنا، السيد الراقب».

في تلك اللحظة، خرج من البيت رجل طويل وخط الشيب شعره، ويرتدي جلبابًا رماديًّا سميكًا، وعبر الساحة متقدمًا نحوهم. بدا عليه التحفظ إلى حد ما، مثل شجرة دردار فقدت كل أوراقها. لكن أسفل ذلك القناع الحذر، كان يمكن للمرء رؤية شعلة من الذكاء البادي عليه.

قال السيد بيخو بعد أن تبادل بضع كلمات على عجل مع الحارس: «سوف يسعد السيد الراقب اصطحابكم لرؤية المعبد من الداخل. فأنا للأسف مضطر لمتابعة بعض الأمور العاجلة المتعلقة بمصنع السكر».

تبادلت الشقيقتان النظر، بينما أومأ السيد الراقب برأسه موافقًا وأشار لباقي المجموعة أن تتبعه للداخل. كانت هذه فرصة جيدة لاختبار صحة شكوكهما. وبالإضافة لذلك، فقد كان من المريح الاستمتاع بمشاهدة المبنى دون الثرثرة المستمرة للسيد بيخو.

كان نظام بناء معبد بن عزرا من الداخل مطابقًا لنظام العديد من دور العبادة في الشرق. تراصت مقاعد الرجال الخشبية الطويلة حول منبر مزخرف في منتصف القاعة، بينما كان القسم المخصص للنساء عبارة

عن حلقة من الشرفات بالأعلى. غمغم السيد الراقب ببضع كلمات في وشاحه الضخم الذي كان بلون الصدأ وهو يقودهم عبر أطراف القاعة نحو الخزانة التي يحفظون داخلها لفافة التوراة. كانت خزانة ضخمة من الخشب الداكن اللون المزين ببذخ بورق الذهب الذي التمع تحت ضوء مصابيح الغاز.

أوضح الدكتور شيختر وهو يتولى السيطرة على زمام الجولة: «يتم الاحتفاظ بلفافات التوراة هنا». وجه انتباههما نحو كومة من الألواح الخشبية التي ارتكنت بجوار الجدار. «وهذه الألواح البسيطة كانت في الماضي تشكل حدود خزانة لفائف التوراة السابقة، ويعود تاريخها على الأقل للقرن الثالث عشر».

قالت أجنيس عندما انتهى الدكتور شيختر من تفسير الكلمات المنقوشة على أقرب لوح منهم: «كل هذا مثير للغاية. لكن ليس هذا هو السبب الذي جئنا من أجله للقاهرة».

استدارت بعدها ناحية السيد الراقب.

قالت بالعربية بأكثر لهجة رسمية يمكنها التحدث بها: «يا سيدي العزيز، هل يمكنك أن ترينا الجنيزة من فضلك؟ فأنت تعرف مكانها على ما أعتقد؟».

استمر السيد الراقب في تفحص ظهر كفه لبضع لحظات قبل أن يرفع نظره ناحية مارجريت.

قال: «مرحبًا بكم»، وأومأ برأسه تجاه سلم ضيق يقود للشرفة

الضيقة حيث يتم إبعاد النساء.

مدخل الجنيزة، أو غرفة العلية هذه المستخدمة كمخزن والتي قطعوا المسافة حول نصف الكرة الأرضية ليشاهدوها، لم يكن أكثر من مجرد فجوة في الجدار في الطرف البعيد من القسم المخصص للنساء. كان هناك سلم خشبي قديم يميل مستندًا فوق بعض المصابيح المكسورة ولافتة مكتوبة بخط اليد كتب عليها -بالعبرية والعربية والفرنسية- «مدرسة بن عزرا الابتدائية». دون أن ينطق بكلمة واحدة، أمسك السيد الراقب بالسلم، ومد يده وكفه للأعلى، وكأنه يدعوهم لزيارة منزله.

شرع الدكتور شيختر في الحديث، لكن قبل أن ينطق بكلمة داهمته نوبة من السعال.

سألت الآنسة دو ويت بنبرة يغلب عليها الابتهاج: «هل أصعد أنا أولًا؟».

اتفقت الشقيقتان أن ذلك ربما كان هو الأفضل.

«هل تمانعين في التقاط صورة لي؟».

ناولت الآنسة دو ويت مارجريت الكاميرا الخاصة بها ثم صعدت أعلى السلم. عندما وصلت لقمته توقفت لالتقاط صورتها، وبعدها اختفت وراء الجهة المقابلة من الجدار.

نادتهم وهي ترفع ذقنها أعلى الحافة السفلية للفجوة: «هيا تعالوا، فكل شيء على ما يرام».

قالت مارجريت وهي تناول الكاميرا لشقيقتها: «حسنًا».

بعد اختبار قوة السلم والتأكد من أن كلًّا من الدكتور شيختر والسيد الراقب قد استدارا للجهة الأخرى، شرعت في الصعود. عندما وصلت للقمة، تحركت للخلف عبر الحافة وبعد بضع محاولات استكشافية عثرت على السلم في الجهة المقابلة من الجدار. تطلب منها الأمر أن تغمض عينيها وتفتحهما بضع مرات حتى تتمكن من الرؤية في جو غرفة العلية الضبابي كحلم. لكن ما إن تمكنت من ذلك، حتى رأت مارجريت مدى حجم اكتشافهما.

كانت الحجرة مكدسة بالنصوص المختلفة من الأرض حتى حافة النافذة؛ مقبرة قديمة للمخطوطات التي تم التخلص منها كيفما اتفق، والتي تكسوها طبقة سميكة من الغبار الأبيض الناعم. من عساه يدري ما يختبئ هناك؟ وسط ركام ألف عام من الكتب وصكوك الملكية والتعاويذ السحرية وعقود الزواج، قد يكشفون عن رسالة من صلاح الدين أو فصل جديد من مقدمة ابن خلدون، أو نسخة جديدة غير معروفة من الأناجيل، أو واحد من أعمال موسى بن ميمون أو أفلاطون أو يهوذا اللاوي. حتى الوثائق العادية كانت لها أهميتها. قد لا يجد المرء ما يثير الاهتمام في رسالة بعينها أو عقد من العقود، لكن مع مرور آلاف السنين تصير تفاصيل الحياة اليومية مادة خام للتاريخ.

كان هناك شيء آخر أيضًا. فتحت كل هذه الأوراق والأتربة، وعوارض السقف الخشبية وشباك العنكبوت، استشعرت مارجريت إحساسًا غريبًا بالوخز في أطراف أناملها. عندما تحركت ناحية الجهة

الخلفية للغرفة، في الركن المظلم الذي بدا وكأنه مكان الوثائق الأكثر قدمًا، ازدادت شدة ذلك الإحساس.

نادت قائلة: «نسطور، يجب عليك أن تشاهدي هذا بنفسك».

انتظرت مارجريت بضع دقائق لكنها لم تتلق أي رد.

قالت الآنسة دو ويت: «دعيني أرى إذا ما كان بمقدوري إقناعها». تسلقت السلم ثم رفعت نفسها خارجة من الفتحة.

بعد اختفاء الآنسة دو ويت، جلست مارجريت القرفصاء لتتفحص بعض الوثائق بالقرب من مقدمة غرفة العلية. بينما هي منشغلة بذلك، لاحظت آثار أقدام انطبعت على الغبار ومساحة خالية وسط الغبار بدا وكأن كومة من الوثائق قد نقلت منها حديثًا. كان الأمر حقيقيًّا إذَنْ. كان أحدهم يسرق محتويات الجنيزة. كانوا قد افترضوا هذا لفترة من الوقت، لكن هذا الدليل المادي جعلها تشعر بغصة في حلقها من شدة الغضب. من عساه يدري أي معلومات تحويها تلك الوثائق المسروقة، وأي مسائل علمية قد تساهم في حلها؟

بينما مارجريت تعدل من وضعها لتتمكن من تفحص آثار الأقدام المنطبعة بدقة أكبر، وهي تحاول تذكر شكل نعل السيد الراقب، لاحظت قصاصة صغيرة من الورق بالقرب من قدمها اليسرى. بدا عليها القدم، وتلطخت من الأعلى ببقعة من لون أحمر مائل للبني، تبدو وكأنها دماء قديمة. كان شكلها يوحي أنها رسالة، أو ربما رسالتان. تغطت ناحية منها بالخط العربي، بينما احتوت الناحية الأخرى على بضعة أسطر باللغة العبرية.

«إنها مذهلة، أليس كذلك؟».

رفعت مارجريت نظرها للأعلى فشاهدت الدكتور شيختر وهو يهبط نازلًا لغرفة العلية، وظهره يواجهها بينما هو يحاول النزول للأرض.

«أجل». قالتها بسرعة، ودون تفكير أخفت قصاصة الورق في ثنايا ثوبها. «يفقد المرء إحساسه بالزمن هنا».

قال الدكتور شيختر وهو ينفض التراب عن مقدمة سرواله ويستدير ليواجهها: «هذا هو نفس ما فكرت فيه تمامًا. نفس أفكاري تمامًا».

* * *

كانت الشقيقتان قد خططتا للبقاء في القاهرة لمدة عشرة أيام. كانتا تنتويان الانتهاء من أمر الجنيزة، ثم الذهاب لسيناء وسانت كاترين. لكن مع اقتراب موعد السفر المزمع، اتفقتا على تأجيل رحلتهما لسيناء على الأقل لمدة أسبوعين آخرين. لم يكن لديهما أدنى شك بخصوص الأمر. فقد كانتا على مشارف كشف كبير يضاهي اكتشاف طروادة أو المغارات الكائنة تحت سطح الأرض في القدس أو اكتشاف جرينفل وهانت وسط أكوام القمامة في البهنسة. لم يكن بمقدورهما مغادرة القاهرة حتى يتم تعبئة وثائق الجنيزة -وربما أيضًا لفافة عزرا- في صناديق مغلقة وشحنها لكامبريدج.

بعد مناقشة الأمر مع الدكتور شيختر، الذي كان قد أجل رحلته لفلسطين مرتين هو الآخر، اتفقوا أن الخطوة القادمة التي يجب عليهم

اتخاذها هي محاولة نقل الوثائق لمكان أكثر أمانًا. اقترح الدكتور شيختر أن يتقدم هو بالطلب وحده في اجتماع رسمي مع الحاخام بن شيمون، ووافقت الشقيقتان. على الرغم من خبرتهما في الأمور المشابهة، كانت أجنيس ومارجريت على علم بأن وجودهما لن يزيد من فرص الحصول على الموافقة.

كتب لهما الدكتور شيختر رسالة بعدها بعدة أيام: «إنه أمر في غاية الحساسية، دومًا ما يتأرجح على حافة النجاح».

أمضى معظم ذلك الأسبوع وهو يحاول الحصول على موافقة كبير الحاخامات. وفي ذات الوقت، كان لدى الشقيقتين ما يكفي لإبقائهما منشغلتين. قامتا بزيارة بطريرك الكنيسة القبطية، وزارت مارجريت المومياوات في المتحف المصري بصحبة الآنسة دو ويت. لكنهما قضيتا معظم الوقت في غرفتهما وهما تتفحصان الوثائق التي حصلتا عليها من سوق الكتب القديمة، أو في ردهة الاستقبال في الفندق وأجنيس تحاول استرجاع لغتها العربية، بينما مارجريت تبحث وسط الكم الضخم الذي تمتلكانه من كتب الرحلات المصرية وهي تحاول معرفة دلالة قصاصة الورق التي أخذتها من الجنيزة.

على حد علمها، كانت القصاصة عبارة عن رسالتين، تشير كلتاهما لصبي مسلم صغير السن اسمه علي، تمت تزكيته للحصول على منصب الحارس في معبد بن عزرا. من محتواها، استنتجت أن الرسالتين جزء من سلسلة أطول من الرسائل بين مستشار الخليفة المستنصر في القرن الحادي عشر، وبين عالم اسمه شيماريا الورع.

قالت مارجريت وهي ترفع عينيها عن القصاصة: «إنه أمر مذهل. فقد امتلأت غرفة العلية بوثائق كهذه، أكوام منها، ولكل واحدة حكاية».

سألت أجنيس: «لكن ليست من بينهم لفافة عزرا؟».

كلما طالت فترة بقاء الشقيقتين في القاهرة، كلما ازداد افتتانهما بحلم العثور على اللفافة. كانتا تشعران بالسعادة للعثور على الجنيزة بالطبع، لكن العثور على لفافة عزرا سيصبح بمثابة كشف رائد.

قالت مارجريت: «لا، لم أتمكن من رؤيتها».

«لكن المرء بالطبع لا يمكنه أن يتوقع أن يجدها هكذا في مكان مكشوف».

«كلا». وافقتها مارجريت وهي تعود لتصفح مذكرات يعقوب سفير، الرحالة الليتواني الذي يقال إنه قد اكتشف الجنيزة.

في صباح اليوم التالي بينما كانت لا تزال تتصفح نفس الكتاب -وهي تبحث عن المشهد الذي يصف فيه سفير إطلاله داخل الخزانة المظلمة التي تحوي لفافة عزرا- ظهر الدكتور شيختر فجأة دون موعد مسبق وهو يرتدي بدلة بنية اللون مكوية حديثًا. دون كلمة تحية، جلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يبتسم.

قال: «سيداتي، صار لدينا الإذن».

بعد تقبل تهانيهما، شرع يحكي لهما ما قام به طوال الأسبوع والسجائر والقهوة اللذين تناولهما بكثرة، ووجبات الطعام الطويلة

في أوقات متأخرة والجولات حول المدينة. كان قد قضى معظم يوم الأربعاء وهو يتشارك الشراب مع السيد بيخو في النادي وفي يوم الخميس اصطحبه كبير الحاخامات في جولة عند الأهرامات. وفي صباح ذلك اليوم، أتمم ثلاثتهم الاتفاق بينما يتناولون الشاي في منزل السيد بيخو. وقد خط لهم الحاخام بن شيمون تصريحًا كتابيًّا منه في حال إذا ما اعترض طريقهم أحد. أخرج الدكتور شيختر الرسالة من جيبه العلوي وناولها لهما عبر الطاولة لتتفحصانها بأنفسهما.

تذكر قائلًا: «هناك أمر واحد فقط، فقد سأل السيد بيخو عما إذا كان بإمكانكما كتابة تلك الرسالة للتوصية بخصوص ابنه».

قالت مارجريت وهي تعترض نظرة من شقيقتها: «سوف يسعدنا ذلك. سنفعل أي شيء بوسعنا للمساعدة في إتمام هذا الأمر».

واصل الدكتور شيختر حديثه وهو يعبث بأزرار سترته: «وبعد هذا بالطبع سيتوجب علينا استئجار غرفة لتخزين الوثائق».

كانت الشقيقتان تعلمان منذ البداية أنه سيكون هناك في وقت ما طلب للتبرع المالي. لطالما كان الأمر هكذا، وكان ذلك دومًا مثيرًا للإحباط بطريقة ما. لم تكونا بخيلتين، بل على العكس فقد كانت أجنيس ومارجريت تستمتعان بالعطاء. ما كان يثير ضيقهما هو التركيز المستمر على النواحي المادية. عندما يتمتع المرء بالثراء لفترة كافية كما كان الحال معهما، فإنه يبدأ النظر للعالم بأكمله من وراء ستار ذهبي. كل بناء وكل أستاذ جامعي وكل كتاب وكل لوحة وكل عمل طيب أو فكرة جيدة كان يمكن تتبع أثرها حتى يصل في نهاية المطاف

لكتلة من الذهب. وبالإضافة إلى ذلك، فلم تكن أي منهما تحب أن تعامل وكأنها مجرد سيدة عجوز حمقاء ثرية.

سألت أجنيس: «هل تحدثت مع السيد مونتفيوري؟».

وأضافت مارجريت قائلة: «أو الدكتور تايلور؟».

كان من المعلوم بين دائرة معارفهم في كامبريدج أن السيد مونتفيوري يساهم في تمويل الدكتور شيختر إلى جانب راتبه، وأن رحلته للقاهرة مولها كرم الدكتور تايلور. لكن الدكتور شيختر كان يبالغ في الحفاظ على خصوصيته بالذات عندما يتعلق الأمر بالمال، لذا فلم يكن يحب النقاش بخصوص مموليه.

قال: «لقد كان كلاهما في غاية الكرم»، ثم صمت للحظة وكأنه يفكر في مدى كرمهما: «لكنني غير واثق أنهما سيتفهمان -بصورة جيدة مثلكما- أهمية الجنيزة وكيف أنه أمر عاجل».

رفع عينيه موجهًا نظره عبر المسافة الفاصلة بينهما؛ ليرى ما إذا كانتا قد تفهمتا وجهة نظره.

قالت أجنيس وهي واثقة أنه سيتفهم: «بالتأكيد سيتفهم الدكتور تايلور الأمر».

قال الدكتور شيختر: «أعتقد أيضًا أنه من الأفضل في الوقت الحالي إبقاء هذا الأمر بين ثلاثتنا فقط».

أضافت أجنيس قائلة: «والآنسة دو ويت».

ابتسمت مارجريت ووضعت يدها على رسغ شقيقتها. لم يكن

هناك داع لإحراج الدكتور شيختر، فقد كانوا جميعًا يعلمون كيف سينتهي النقاش.

«كم غرفة تتوقع أن نحتاجها؟».

قال: «غرفتين، أو ربما ثلاث. فقد تحدثت مع مدير الفندق الذي أقيم به، وأشار إلى أنه يمكنه توفير الغرف اللازمة بسعر مخفض».

قالت أجنيس: «دعنا نتحدث مع موظف الاستقبال في فندقنا. أعتقد أنه بإمكاننا أن نحصل منه على ثمن مناسب للغاية».

بدا من الواضح أن الدكتور شيختر غير راض عن فكرة تخزين الوثائق في فندق أنجلوتير -وبالتالي التخلي لأجنيس ومارجريت عن تحكمه المادي في وثائق الجنيزة- لكنه كان يعلم متى يتوقف عن الإلحاح.

قال وهو ينهض من مقعده وينحني انحناءة صغيرة: «شكرًا. والعلم يشكركما، كما تشكركما أجيال من علماء المستقبل».

قالت أجنيس: «أجل، حسنًا، وأنا عن نفسي يسعدني أن نبدأ في العمل».

* * *

في وقت باكر من صباح يوم الإثنين -بعد أن قامتا بحجز جناح في الجهة المقابلة لهما من الردهة، وبشراء الصناديق التي سوف يستخدمونها لنقل الوثائق من المعبد للفندق، ثم بعد ذلك عبر المحيط لكامبريدج- التقت الشقيقتان مع الدكتور شيختر والآنسة دو ويت خارج فندقهما. لم ينم أي منهم جيدًا في الليلة السابقة وبقوا جميعًا صامتين

بينما يسيرون جنوبًا بحذاء النيل تجاه القاهرة القديمة، والضباب فوق النيل في سمك القشدة.

عندما نزلوا أمام المعبد، كسرت الآنسة دو ويت الصمت.

همست وهي تنحني لتلتقط قطًّا صغيرًا له لون رمادي فاتح يموء باحثًا عن باقي إخوته: «أهلًا. هل ضللت الطريق؟».

قالت أجنيس: «لا تلمسي ذلك المخلوق القذر»، فانتفضت الفتاة كمن أصيب بلدغة.

لم تكن تنتوي توبيخها بحدة إلى هذه الدرجة، لكنها كانت تعلم أن هذا لصالح الآنسة دو ويت. ما الذي كان الدكتور تايلور يقوله على الدوام؟ في القاهرة يعد الحمام من الأطعمة الشهية، بينما الكلاب يتم اجتنابها، والقطط أقذر من الجرذان التي تعيش وسط الصرف الصحي. بدا الأمر وكأنه أحجية، إلا أنه لم يكن أكثر من مجرد حقيقة. فقد كانت لكل مدينة من المدن الكبرى آفاتها. ففي استانبول كانت هناك الكلاب، وفي لندن الفئران، وفي روما الحمام. أما في القاهرة، فقد كان مصدر الإزعاج هو القطط. امتلأت المدينة بالآلاف من تلك الكائنات الصغيرة القذرة بأعينها المتقيحة وهي تهسهس وتموء، متجمعين معًا في الأزقة الرطبة وهم يفتشون بين أكوام القمامة. لا يجب أن يمسك المرء بمثل هذه الحيوانات، فهو أمر غير صحي. لكن على الرغم من ذلك، لم يكن عليها التحدث بمثل هذه الحدة.

قالت أجنيس: «ما كنت أقصده هو...» لكن قبل أن تتمكن من العثور على الكلمات المناسبة للاعتذار، ظهر السيد الراقب وهو يزيح القط جانبًا بقدمه.

«صباح الخير لكم جميعًا».

ردت مارجريت، وهي تأمل أن يساعد تبادل تلك السلسلة من التحيات التقليدية على جعل الحارس أقل تحفظًا: «صباح النور».

قال السيد الراقب مبتسمًا وهو يكمل السلسلة: «صباح الورد».

«وصباحك قشدة».

سأل الدكتور شيختر بعد أن تأكد من انتهائهم من تبادل التحيات: «هل أخبرك السيد بيخو باتفاقنا؟».

أومأ الحارس برأسه ودعاهم للساحة بذراع ممدود. وبنفس الحركة، حاول أن يبعد حشدًا أخذ يتجمع من الأطفال المتسخين ذوي الأعين الداكنة اللون. كان بعضهم صغيرًا في السن للغاية، بينما بدا البعض الآخر وكأنهم على مشارف الشباب. لكن ملامح الجميع حملت نفس التعبير الجائع البائس.

ترجته الآنسة دو ويت قائلة: «سولومون، هل تعتقد أننا يمكننا الاستعانة بهؤلاء الصبية؟» .

لم يكونوا يتسولون. بدا أن الفضول هو ما يغلب عليهم وهم يتعجبون من أولئك الأجانب بملابسهم الغريبة وصناديقهم. لكن بدا من الواضح أيضًا أنهم لن يرفضوا بعض المال أو كسرة خبز.

قالت أجنيس وهي تبدي موافقتها بصوت أعلى من همهمات الدكتور شيختر المعترضة: «أعتقد أنه يمكننا ذلك بالفعل ».

ابتسمت الآنسة دو ويت دون حرج وكذلك فعلت أجنيس. بضربة واحدة، قدمت للآنسة دو ويت هدية أفضل من دستة من الاعتذارات، فقد وافقتها الرأي بخصوص فكرتها الجيدة لطلب مساعدة الأولاد في العمل، بينما تجاهلت ألفتها الزائدة عن الحد مع الدكتور شيختر في ذات الوقت.

قال الدكتور شيختر: «على أي حال، أتمنى أن نبدأ العمل في أسرع وقت».

قالت أجنيس وهي تستدير لتواجه السيد الراقب: «حسنًا، أعتقد أن ثمانية أولاد عدد كاف».

تم الاتفاق على أن يشرف الدكتور شيختر والآنسة دو ويت على الصبية وهم يقومون بتعبئة الصناديق في الساحة، بينما تطوعت أجنيس ومارجريت للإشراف على الجزء المتعلق بالعمل في الجنيزة ما دامت رئتهما تتحملان ذلك. جلستا على كرسيين خشبيين منخفضين في وسط الغرفة، وهما توجهان حركة الوثائق عبر سلسلة من التعليمات الحادة وحركات الأيدي. لم يلبث الصبية أن اعتادوا أسلوب العمل وهم يحملون مجموعة وراء مجموعة أعلى الجدار وأسفل السلم حتى الساحة، وقد اكتست أيديهم ووجوههم بطبقة شاحبة من التراب والعرق مع استمرار العمل أثناء اليوم. كان الدكتور شيختر قد توقع أن يستغرق العمل يومين على الأقل، لكن بمساعدة الصبية، تمكنوا من الانتهاء في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم.

صاحت مارجريت منادية: «انتهينا ورتبنا كل شيء». فتردد صدى

صوتها بين جدران غرفة العلية الخالية تقريبًا.

سألت أجنيس: «لكن لا وجود للفافة عزرا؟».

هزت مارجريت رأسها –كانت تفكر في ذات الشيء تحديدًا– وقد بحثت كلتاهما في هذه الغرفة المتربة التي احتوت لحوالي ألف عام على جبل من الوثائق المهملة. كانت الغرفة خالية تقريبًا الآن، مجرد قشرة خارجية فارغة مما كانت تحويه من قبل. وعلى الرغم من ذلك كانت الغرفة لا تزال تنبض بتلك الشحنة من الطاقة التي استشعرتها مارجريت من قبل عندما كانت ممتلئة.

لازمهما ذلك الشعور بالوخز الخفيف بينما تهبطان على السلم، حيث وجدتا العربة بالخارج ممتلئة عن آخرها بالصناديق.

اقترح الدكتور شيختر قائلًا: «أعتقد أنه سيكون من الأفضل لو عدت أنا والآنسة دو ويت مع أول حمولة في حين تنتظران أنتما هنا مع ما تبقى».

قالت مارجريت وهي تتبادل نظرة سريعة مع شقيقتها: «هذه فكرة رائعة».

فمن دون وجود الدكتور شيختر والآنسة دو ويت، ستسنح لهما الفرصة أخيرًا لتبادل حديث صريح مع السيد الراقب.

قالت أجنيس موافقة: «أجل».

بعد رحيل العربة، سأل الحارس أجنيس ومارجريت عما إذا كانتا ترغبان في تناول الشاي. لم تكن أي منهما تشعر بالعطش، لكنهما تعلمتا

منذ وقت طويل مضى ألا تقابلا أي عرض بالطعام أو الشراب بالرفض. فقد كان هذا يعد إهانة بالغة، وبالإضافة لذلك، فمثل هذه الدعوات في العادة تعد مقدمة لمزيد من الأحاديث.

قالت أجنيس بابتسامة: «نعم، نود ذلك». فاختفى السيد الراقب داخل منزله.

ظهر ثانية بعدها بلحظة وهو يحمل ثلاثة كراسٍ خشبية، وموقدًا صغيرًا يعمل بالفحم، وبرادًا من الفخار. جلسوا على الكراسي وراقبتاه في صمت بينما هو يعد الشاي ويصبه.

قال وهو يناولهما كوبيهما: «في صحتكما».

قالت الشقيقتان في ذات الوقت بينما ترفعان الشاي الداكن المحلى لشفاههما: «في صحتك».

كانت لدى أجنيس ومارجريت مجموعة من الأسئلة التي ترغبان في إلقائها على السيد الراقب، لكنهما انتظرتا حتى يبادر هو بالحديث أولًا.

أخيرا نطق قائلًا: «كان جدي حارسًا. ووالده، ووالد والده أيضًا، لحوالي ألف عام».

هزت مارجريت رأسها وتناولت رشفة أخرى من الشاي. كانت تعتقد أن عليًّا – الصبي المسلم الصغير المذكور في قصاصة الورق التي أخذتها من الجنيزة – تربطه صلة قرابة بطريقة ما مع الحارس الحالي.

واصل السيد الراقب قائلًا: «لا يمكنني القراءة ولا الكتابة، ولا أعلم أي شيء بخصوص تلك الأوراق التي في غرفة العلية. لكنني أعلم

أن أمرها يهم العديد من الأشخاص الآخرين».

«هناك الكثيرون الذين يهمهم أمرها». كررتها أجنيس وهي تراقب وجه السيد الراقب لترى رد فعله. «وهناك الكثيرون ممن يرغبون في شرائها».

هز رأسه ثانية وهو يوافقها القول، والغضب واضح على وجهه مثل وضوح النهار. بدا أن تسرب الوثائق من الجنيزة كان يزعجه بنفس القدر مثلهما تمامًا.

سألت مارجريت: «هل يمكنك أن تخبرنا من هو؟».

«ليس بمقدوري الإفصاح عن ذلك».

«نحن على استعداد لمنحك مكافأة سخية مقابل تلك المعلومات».

كرر قائلًا: «ليس بمقدوري الإفصاح عن ذلك».

نظرت مارجريت لقاع كوبها وهزت ما تبقى فيه من الشاي.

سألته وهي تجرب مسارًا مختلفًا للحديث: «هل تعرف لفافة عزرا؟ يقال إنها مخفية داخل خزانة مظلمة، ويحرسها ثعبان».

بدت على ملامح الحارس الخشنة ومضة توحي بأنه يدرك ما تتحدث عنه، ورفع عينيه وهو ينظر في عيني مارجريت مباشرة لأول مرة خلال حديثهما ذاك.

«لا يوجد ثعبان».

ألحت مارجريت قائلة: «لكن اللفافة، لفافة عزرا، هل هي موجودة هنا في المعبد؟».

تأملها السيد الراقب من أعلى حافة كوبه وهو يزم شفتيه، ثم هز رأسه مرة واحدة.

سألها قائلًا: «هل ذهبت للمقبرة؟ في البساتين؟ فهم يدفنون الأوراق هناك كما تعلمين».

ألحت مارجريت قائلة: «والكتب؟ واللفافات؟».

ضيق الحارس عينيه، وكأنه يحاول رؤية حدود جوابه في الشمس الغاربة خلف جدران حصن بابليون.

قال: «أراني أبي تلك اللفافة عندما كنت صغيرًا في السن. لكنهم نقلوها بعد أن أعادوا بناء المعبد. لم تعد في نفس مكانها السابق».

تبادلت الشقيقتان نظرة سريعة.

أصرت أجنيس على السؤال: «هل تعرف مكانها الآن؟ هل هي في المقبرة؟».

«هذا هو كل ما أعرفه». أعاد السيد الراقب ملء كوبيهما. «لقد أخبرتكما بكل ما لدي من معلومات».

عندما انتهيا من تناول كوب الشاي الثاني، كانت العربة قد عادت للوقوف أمام البوابة الرئيسة للمعبد، وقفز منها الدكتور شيختر خارجًا وهو يبتسم.

قال: «نحن مستعدون لتحميل الدفعة الثانية».

نهضتا من مقعديهما، وشكرت أجنيس ومارجريت السيد الراقب على ضيافته ووعدتاه أن يلقى جزاء كرمه. ساعدتا الدكتور شيختر قدر

استطاعتهما في تحميل الصناديق، ثم انضمتا للآنسة دو ويت في العربة.

قالت أجنيس لشقيقتها: «يا له من رجل لطيف».

سألت الآنسة دو ويت: «هل قال أي شيء مثير للاهتمام؟».

ردت مارجريت: «لا، ليس على وجه الخصوص».

قال الدكتور شيختر وهو يصعد ليركب العربة: «حسنًا، يجب أن نهنئ أنفسنا. المشكلة الوحيدة الباقية هي هيئة الجمارك المصرية».

في طريقهما، نظرت كل من أجنيس ومارجريت من نافذة العربة. امتدت مساحة من السماء الصفراء الشاحبة فوق سطح الماء وكأنها طبقة من الكعكة الإسفنجية. كان لديهم ما يكفي من الأسباب بالتأكيد ليهنئوا أنفسهم. فبعد أسبوعين طويلين مليئين بالعمل، صارت وثائق الجنيزة في أمان من السرقة والنهب والسوق السوداء. كان لا يزال هناك ذلك الأمر المتعلق بلفافة عزرا بالطبع، والسؤال الخاص بهوية المسؤول عن تسريب الوثائق من الجنيزة. لكن في الوقت الحالي، كانتا قانعتين بالشعور بالسعادة لإنجازهما الهام في تأمين الوثائق.

* * *

- ٧ -

لمدة أسبوع ويوم واحد، ظل علي يحتفظ معه بالتميمة التي أعطاه إياها حاسدي السيفاردي في جميع الأوقات. كان يقبض عليها بداخل جيبه ويتحسس حافة الخيط، وهو يستشعر قوتها السحرية كطنين خافت على أطراف حواسه. لكن بقدر ما كان يؤمن بقوتها، فلم تكن هناك وسيلة ليتأكد منها ما إذا كانت التعويذة تعمل بالفعل. في بعض الأحيان كان يشعر أنه متأكد أن محبوبته تذوي شوقًا إليه. وفي أحيان أخرى، كان يتخيلها وهي تقوم بأعمالها اليومية في المنزل دون أن تتأثر بالتعويذة بأي شكل من الأشكال. بعد مرور ثمانية أيام على هذا الحال دون أي نتائج –على الأقل دون أي نتائج ملموسة بالنسبة له هو شخصيًّا– قرر علي أن يسعى طلبًا لتعويذة سحرية أقوى.

اتضح أن العثور على دكان حاسدي مرة أخرى كان أكثر صعوبة مما توقع. في البداية، حاول تتبع نفس خطواته التي سلكها من قبل عبر سوق القائمين بنحت الخشب، لكن مهما جرب من اختيارات لطرق مختلفة، فقد كان الأمر ينتهي به دومًا عند نقطة البداية مرة ثانية. سأل بعض أصحاب المحلات القريبة عما إذا كان بإمكان أحدهم أن يدله على دكان حاسدي السيفاردي، لكن معظمهم لم يسمع الاسم من قبل،

وهؤلاء الذين كانوا يعرفونه اكتفوا فقط بهز رؤوسهم. بعد أن قضى معظم عصر ذلك اليوم وهو يبحث دون جدوى، جلس علي كي يرتاح بجوار كشك للطعام يبيع الطعمية والفول. كان يوازن القطع النقدية الموجودة في جيبه مقابل إحساسه بالجوع، عندما شعر بيد على كتفه.

«هل تبحث عني؟».

كان حاسدي. بدت قبضته قوية بطريقة مفاجئة، وفي ضوء الزقاق المعتم بدا شعره الأبيض المشعث وكأنه مصطبغ بدرجة غريبة من الزرقة.

قال بإيماءة من رأسه: «تعال. دكاني يقع على الناصية».

قطعا الطريق عبر صف من الأكشاك الخالية، وقاد حاسدي عليًّا لمسافة أبعد داخل السوق. انعطفا يسارًا ودارا حول أطراف سوق صانعي الزجاج ثم عادا من نفس الاتجاه الذي جاءا منه وخرجا لذلك الممر المألوف الذي تظلله أشجار الزيتون. كان دكان حاسدي تمامًا كما تذكره علي. لكن هذه المرة، كان القفص المصنوع من القصب بجوار الباب ممتلئًا بالحمام بدلًا من الضفادع.

استنتج حاسدي قائلًا قبل أن يتمكن علي من النطق: «لم تنجح التميمة في عملها. هل يمكنني تفحصها؟».

قلبها حاسدي بين يديه وهو يهز رأسه وكأنه قد لاحظ عيبًا كبيرًا بها، ثم ألقى التميمة في الموقد خلفه. اشتعلت سريعًا بلهب متقد.

«أنت حارس معبد بن عزرا».

قال علي: «أجل». فلم يكن هناك جدوى من الكذب.

قال حاسدي وهو يختفي أسفل الطاولة ليظهر ثانية بعد لحظة ومعه رقعة شبه شفافة من الجلد المعد للكتابة: «هل تعرف لفافة عزرا؟».

هز علي رأسه، فلم يكن قد سمع بلفافة عزرا من قبل.

حثَّه حاسدي قائلًا: «في غرفة العلية».

ألقى ملء قبضته من مسحوق ما في الهواء فالتمع الدكان بضوء فضي خافت. عندما انحسر الضوء، تذكر علي ما حدث في وقت سابق ذلك الأسبوع، بعد عيد المظلة. تذكر كيف استيقظ على صوت طنين بعيد ليجد مجلس معبد بن عزرا وقد تجمع في الزقاق والجميع يرتدون ملابس بيضاء بينما يحمل أحدهم شيئًا مضيئًا بحجم سفر توراة تقريبًا.

واصل حاسدي الحديث ببطء وبوضوح، كأنه يخاطب طفلًا صغيرًا: «عندما تكون في غرفة العلية بالمعبد، اطفئ مصباحك. ستلاحظ أن أحد الألواح الخشبية يلتمع قليلًا. افتح الكوة وضع قطعة الجلد هذه بالداخل. اتركها لليلتين، ثم اجلبها لي ثانية».

بدأ علي يسأل سؤالًا، لكن حاسدي قاطعه.

«ألا تريدها أن تبادلك نفس الشعور الذي تكنه أنت لها؟».

«بلى».

«إذَنْ فهذا هو ما يتوجب عليك فعله».

في وقت لاحق من تلك الليلة، بينما هو يفرك الرق الجلدي بين أصابعه، جلس علي محملقًا في النار الصغيرة التي أوقدها وهو يحاول

التفكير في تبعات ذلك الأمر الذي طُلب منه القيام به. لم يكن يعرف أي شيء عن لفافة عزرا، لكنه على الرغم من ذلك كان يشعر أن هناك شيئًا خاطئًا في الأمر. كان يعلم علم اليقين أن حاسدي السيفاردي ليس شخصًا صالحًا. وكان يعلم أيضًا أن السحر الطيب لا يأتي عن طريق الأشخاص غير الصالحين. لكنه أخبر نفسه على الرغم من ذلك أن المسألة قد لا تكون متعلقة بالنوايا قدر ما هي متعلقة بالنتائج. فما الضرر من تميمة تقربه من محبوبته؟

أثناء جولته الثالثة في تلك الليلة، أقنع علي نفسه بالقيام بما طلبه منه حاسدي. عندما دخل غرفة العلية بالمعبد، أطفأ مصباحه، وبعد لحظة من وقوفه في ظلام الغرفة الدافئ، شاهدها. تمامًا كما قال حاسدي، كانت إحدى الألواح الخشبية بالجدار تلتمع وكأنها غمرت بضوء عتيق خافت. من دون إضاءة مصباحه، كان من الصعب ألا يلحظها. حدق علي في اللوح الخشبي لفترة طويلة. بعد ذلك، مسح يديه في مقدمة جلبابه، وعبر غرفة العلية بحرص من بين أكوام الوثائق والكتب المهملة. عندما وصل على مقربة أقل من ذراع من اللوح الخشبي المضيء، جلس علي القرفصاء ومد يده ليلمسه. عندما لمست أطراف أنامله سطح الخشب، شعر بموجة من الطاقة تغمره كتدفق الدم المفاجئ. كان إحساسًا شبيهًا بذلك الشعور بالوخز الذي لاحظه في تلك الليلة الأولى في غرفة العلية، إلا أنه كان أقوى ألف مرة.

كما قال حاسدي، كانت هناك كوة سرية خلف اللوح الخشبي، يوجد بداخلها سفر التوراة. كانت اللفافة مضيئة وتنبض بضوء فضي لامع، وهي

موضوعة رأسيًّا وسط بطانة من الحرير الأزرق الباهت. دون أن يتوقف لحظة كي يفكر أو يشك فيما هو مقدم على فعله، وضع علي الرق بجوار اللفافة ثم أعاد اللوح مكانه، وأخذ مصباحه وغادر غرفة العلية.

عندما عاد علي لمكان حراسته، كان حلقه جافًّا وقلبه يدق بعنف لدرجة أنه اعتقد أن هناك مصدرًا خارجيًّا للصوت. كان لا يزال يشعر بشحنة الطاقة من اللفافة تسري في جسده. فجأة، فهم لماذا كان المجلس متكتمًا بخصوص الشعائر التي شاهدها في الليلة التالية للعيد، ولماذا صمم حاسدي على تنفيذ التعويذة. فقد كانت لفافة عزرا تملك طاقة سحرية تفوق الكلمات. وكان علي يعلم أنه بعبثه بتلك القوى قد اقترف خطأً كبيرًا للغاية. فقد خان ثقة الزكري والمجلس بأكمله، وأخطأ في حق جميع أعضاء المعبد، بما في ذلك محبوبته.. خاصة محبوبته. عندما هدأت دقات قلبه، شعر علي بخزي بالغ يستقر في أعماقه. ومع ذلك، في نفس الوقت، كان جزء صغير منه يشعر بالسعادة، وهو يبتسم مفكرًا أن هذه التميمة الجديدة قد تكون ذات جدوى.

بعد ليلتين، استعاد علي الرق الجلدي ووضعه في كم جلبابه. حاول ألا يفكر فيما اقترفه، لكنه كان يشعر به هناك، ينبض برفق بجوار ذراعه. بعد يومين فقط في حجرة العلية، بدا وكأن الرق تشرب جزءًا ضئيلًا من الطاقة السحرية للفافة بن عزرا، مثلما تتشرب الملابس رائحة صاحبها.

في عصر اليوم التالي، جلب علي الرق لدكان حاسدي.

قال حاسدي وهو يجد صعوبة في السيطرة على الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على وجهه: «لقد نجحت».

هز علي رأسه وناوله الرق. كان من الصعب تمييز بريقه الخافت في ضوء النهار، لكنه شعر بدفئه يسري في يده.

قال الساحر والسعادة تبدو عليه، وهو يقطع ركنًا صغيرًا من الرق: «رائع».

بينما حاسدي يملأ المثلث الصغير الذي قطعه من الرق بسطر أفعواني من الأحرف العبرية والعربية، تجول علي بنظره في الدكان. لاحظ أن القفص الكائن بجوار الباب قد امتلأ هذه المرة بمجموعة من القطط باللونين الأبيض والأسود. حاول علي ألا يتخيل مصير هذه الحيوانات. وحاول ألا يفكر في الضفادع والحمام الذين كانوا موجودين قبلهم.

قال حاسدي وهو يضع قطعة الرق داخل كيس صغير من القماش: «احرق هذا في نارك الليلة. واحرص على استنشاق بعض الدخان».

«حسنًا».

واصل حاسدي حديثه قائلًا: «هذه تعويذة سحرية قوية. لن تخذلك».

«ماذا عن باقي الرق؟».

قال ضاحكًا: «هذا هو الثمن الذي عليك أن تدفعه. وهو ثمن قليل للغاية تدفعه مقابل الحب الحقيقي على ما أعتقد».

ثمن قليل يدفعه مقابل الحب الحقيقي. كرر علي العبارة المرة تلو الأخرى بينما هو يقوم بجولاته تلك الليلة وهو يفعل كل ما بوسعه لتفادي سؤال إذا ما كان الحب المدفوع بقوة السحر يمكنه أن يكون حبًّا حقيقيًّا. في أحلك ساعات نوبة حراسته ظلمة، عندما توقفت الطيور الليلية عن ثرثرتها، جلس علي على مقعده الخشبي وأخرج التميمة الجديدة من جيبه. رأى بريقها بصورة أوضح في الظلام، وشعر بدفء خافت حيث لامست كفه. كان ما يوشك على اقترافه خطأ، وكان يعلم أنه خطأ، تمامًا مثلما يعلم أن النيل سيفيض عن ضفتيه الربيع القادم. على الرغم من ذلك، كان ثمنًا ضئيلًا يدفعه مقابل الحب الحقيقي.

تخيل علي محبوبته، نائمة على الأرض بجوار شقيقاتها. جزّ على أسنانه وألقى التميمة في النار. لم تحترق في بادئ الأمر، ثم طقطق الرق وانفجر مشتعلًا باللهب. بدلًا من الدخان، تصاعد منها شلال من الضوء كنجوم صغيرة. تراقصت الشرارات المتصاعدة حول اللهب. وكما بدأت فجأة، عادت النار ثانية لشكلها الطبيعي. كان علي لا يزال يحملق في اللهب، ويشاهد آخر الشرارات وهي تضطرب وتختفي، عندما سمع صوتًا عند البوابة الأمامية.

قال الزكري وهو يتلفت ناظرًا حول الساحة: «ذلك الضوء. هل رأيته؟».

قال علي: «لقد أتى من النار. كنت أحرق قطعة غريبة من الخشب».

نظر كلاهما في النار، وكأنهما قد يجدا تفسيرًا أفضل هناك. بعد فترة من الوقت، تحدث علي ثانية.

«هل يمكنني أن أسألك سؤالًا يا الزكري؟».

كانت لديه أسئلة كثيرة -بخصوص لفافة عزرا وحاسدي السيفاردي، وبخصوص السحر والخيانة وثمن الحب الحقيقي- لكن لم يكن بمقدوره إلقاء هذه الأسئلة. عوضًا عن ذلك، سأل سؤالًا أبسط كان يشغل باله لفترة من الوقت.

«لماذا يحتفظ اليهود بأوراقهم في غرفة العلية؟».

«من الطبيعي أن تشعر بالفضول». قالها الزكري وهو يمص طرف شاربه ويعاود التحديق في النار.

شرح له أنهم يحترزون من إلقاء الوثائق التي قد تحوي اسم الرب، لإيمانهم أن مثل تلك الأوراق تحمل شيئًا من جلال الرب. هز علي رأسه. كان قد سمع هذه الفكرة من قبل.

واصل الزكري حديثه قائلًا: «إن المعابد المختلفة تختار وسائل مختلفة للتصرف في تلك الأوراق».

وقد اختار أعضاء معبد بن عزرا التخلص من الأوراق الخاصة بهم عن طريق حفظها في غرفة العلية بالمعبد -التي كانوا يطلقون عليها اسم الجنيزة- لأسباب دينية، وأيضًا لأن مقبرة البساتين كانت بعيدة للغاية. بعد أن انتهى من التوضيح، شرع علي يسأل سؤالًا آخر، لكنه توقف عندما رأى وميضًا من الشك في عيني الزكري. وقفا بضع لحظات في صمت، ثم وضع الزكري يده على كتف علي واستدار مغادرًا.

قال: «تصبح على خير يا علي. سنواصل الحديث في الصباح».

* * *

في عصر اليوم التالي، عندما ذهب علي لدكان الأقمشة الخاص بإفرايم بن شيماريا وهو يأمل أن يواصل حديثه مع الزكري، كان الرجال منشغلين بالحديث عن واحد من جزاري المعبد الذين يقومون بالذبح طبقًا للشعائر اليهودية، رجل اسمه يعقوب، وقد مرض فجأة. قال الطبيب ميفوراخ إنه لم يرَ مرضًا مثل هذا من قبل. في بادئ الأمر شعر المريض بالبرودة وأصيب بالانتفاخ، ثم غطت جسده القروح المتقيحة والتي بدا أنها تمتص ما بقي فيه من روح. ظلت الأجواء مشحونة بالتوتر طوال الأسبوع أمام دكان الأقمشة، ولم يتبادلوا الحديث تقريبًا إلا عندما كان الطبيب ميفوراخ يمر ليطلعهم على التطورات. ثم في صباح أحد الأيام وبعد أقل من أسبوع، استيقظ علي على صوت نواح. ركض خارجًا وأطلعه الزكري على الخبر، فقد مات يعقوب.

«لا حول ولا قوة إلا بالله». قالها علي ووافقه الزكري.

«الحياة مثل الضيف متقلب الأحوال. لا يدري أحد متى سترحل».

كان يعقوب رجلًا بسيطًا، لا يملك المال اللازم لاستئجار عازفي الموسيقى أو الندابات المحترفات، لكنه كان محبوبًا من الجميع. وفي تلك الليلة، عندما مرت الجنازة أمام البوابة الأمامية للمعبد، بدا وكأن الطائفة اليهودية بأكملها تسير خلف نعش المتوفى، والجميع يحملون المشاعل والمصابيح. أحنى علي رأسه وهو يشاهد المسيرة تمر أمامه، لكن ليس لدرجة تمنعه من رؤية محبوبته في حال إذا ما عبرت من أمامه. كان يعلم أن تفكيره هذا غير سوي، لكن في تلك المرحلة كان شوقه لها قد خرج عن حدود سيطرته.

بعد أن مرت الجنازة، عاد علي لموقع حراسته وأمسك مصباحه ليقوم بجولة ثانية. لم يبد أن هناك أي خطب في الساحة أو في قاعة الصلاة، لكن عندما صعد لغرفة العلية، رأى أن أكوام الأوراق قد تبعثرت وكأن حيوانًا جائعًا عبث بها. كانت الكوة التي تحوي لفافة عزرا مفتوحة، لكن اللفافة كانت لا تزال بالداخل، بوميضها الخافت في عشها المصنوع من الحرير الأزرق الشاحب. رفع علي مصباحه وعبر نحو مؤخرة غرفة العلية وهو يبحث عن دليل ما يعرف من خلاله من أو ما الذي تسبب في هذه الفوضى. عندما وصل للنقطة التي يمنعه فيها انحدار السقف من التقدم لمسافة أبعد من ذلك، استدار فرأى هناك حاسدي السيفاردي، مختبئًا في ركن مظلم في مقدمة الغرفة وعلى كتفه جوال، بينما شعره الأبيض يلتمع تحت ضوء المصباح الأصفر. للحظة طالت، لم ينطق أحد منهما بحرف. كانت الحركة الوحيدة في الغرفة هي يدي علي المرتعشتين.

قال حاسدي: «أنت لا تراني».

أغمض علي عينيه وهو يتمنى بشدة لو كان ما يراه هو مجرد هلاوس، لكن عندما فتحهما ثانية، كان حاسدي لا يزال هناك.

تقدم علي خطوة صغيرة للأمام، فرفع حاسدي يده.

«لن تخبر أحدًا أنك قد رأيتني».

لمس صدغه بإصبعه فشعر علي بشيء ينبض في رأسه في نفس تلك النقطة.

«لو أخبرت أي شخص أنك رأيتني فسوف أفضحك. سأخبرهم أنك أجبرتني على أن ألقي عليها تعويذة. سأخبرهم وسوف يضيع مستقبلك. هل تفهم؟».

«أجل». تمكن علي من النطق رغم ذلك الشعور بالنبض في رأسه. بمجرد أن وافق، زال الألم وانسل حاسدي خارجًا.

بعد أن اطمأن أن لفافة عزرا لم يصبها أي ضرر، حاول علي أن يعيد ترتيب أكوام الأوراق. لكن مهما حاول إعادة تنظيمها، بدت أقل كثيرًا عما كانت عليه من قبل. جلس على الأرض المتربة بغرفة العلية وأطفأ مصباحه وهو يحاول طمأنة نفسه. لكنه لم يتمكن من التفكير في أي شيء يبث في نفسه الطمأنينة. لو كان بمقدور المرء صنع تميمة سحرية قوية المفعول من رق جلدي بقي بجوار لفافة عزرا ليلتين فقط، فماذا إذن كان يمكن صنعه من آلاف الأوراق التي قضت سنوات بجانب اللفافة؟ لقد ضاع مستقبله. فقد خذل وخان الطائفة اليهودية بأكملها. صاح علي في الظلام وهو يركل كومة من الأوراق، وخبط الجدران بيديه حتى شعرتا بالخدر. لقد فشل في المهمة الوحيدة الموكلة إليه. فقد ترك موقعه في الحراسة وسمح للص بالتسلل للمعبد. ولم يكن بمقدوره فعل أي شيء ليعالج الأمر. لو احتفظ بالسر، سيتهم هو بسرقة الأوراق الضائعة، ولو أخبر الزكري بالسرقة، فبإمكانه تخيل مصيره بعدها.

ظل علي ممتلئًا بالشعور بالخزي والشك طوال تلك الليلة وليالٍ عديدة تلتها. واصل القيام بجولاته، وحرص على المرور بدكان إفرايم ابن شيماريا كل يوم كي لا يحيد عن سلوكه الطبيعي. لكن في كل عمل

يقوم به، كان يشعر بقلق يمزقه من الداخل. لام حاسدي السيفاردي، ولام المجلس على منحه ثقته، ولام يعقوب على وفاته. بدأ حتى يشعر بالمرارة تجاه محبوبته. لكنه لام نفسه أكثر من أي شيء آخر. وفي أسوأ لحظاته، كان يتمنى لو يستطيع العودة لمنزل خاله راشد لينام على الأرض في حجرة الكرار ويحمل قرب الماء على ظهره. كانت حياة شاقة، بسيطة ووضيعة، لكنها كانت الحياة التي يفهمها ويستحقها.

* * *

- ٨ -

على الجهة المقابلة للطريق أمام محطة مترو مار جرجس، تحت الجدران الحجرية للقاهرة القديمة التي لها لون الرمال، كانت هناك بوابة خشبية مقنطرة مرصعة بالمسامير الحديدية. على كلا جانبيها كان هناك رجال يبيعون زجاجات المياه المعبأة والبطاقات التذكارية المغلفة بالبلاستيك. رقد قطان لهما لون رمادي في بقعة ظليلة أسفل كرسي مكسور، بينما أخذ مجموعة من الأولاد يركلون كرة قدم فرغ منها الهواء جيئة وذهابًا عبر الطريق. طلبت من سائق السيارة الأجرة إنزالي هناك، واشتريت زجاجة من المياه المعبأة وأنا أدلف من البوابة وأمر عبر زقاق ضيق اصطفت على جانبيه الدكاكين.

صاح أحد أصحاب الدكاكين وأنا أمر بجانبه: «ورق بردي. أفضل جودة».

قلت: «لا أريد، شكرًا». واستمررت في سيري أمام صف من الشباب المتحمسين لبيع الأبسطة والبردي والمشروبات الغازية وأفلام التصوير الفوتوغرافي والعطور ونفس التشكيلة من الحلي الصغيرة التي يمكنك أن تجدها في أي مكان في مصر.

تبعًا للخريطة الموجودة في نهاية الدليل السياحي الذي كنت أمتلك نسخة منه، فقد كان معبد بن عزرا يقع على الجانب الآخر من القاهرة القديمة، منزويًا بين كنيسة أبي سرجة ومقابر اليونان الأرثوذكس. لم يكن من الصعب العثور عليه. انعطفت يمينًا عند دير مار جرجس للراهبات، ثم يسارًا عند أبي سرجة، ووصلت.

اصطحبني أبي لزيارة المعبد بضع مرات عندما كنت أصغر سنًّا، لكن المبنى كما كنت أتذكره -بشكله الشبيه بالصندوق ولونه الأصفر الباهت في طلته على الكنائس المحيطة به- لم يكن يشبه المبنى الذي رأيته أمامي في شيء. ربما كان الأمر سببه خداع الذاكرة، أو خليط من منظوري المختلف وعمليات الترميم للمعبد. أيًّا كان الأمر، فقد اضطررت لتضييق عيني حتى أقنع نفسي أن هذا المبنى القصير المدهون باللون الأبيض هو ذات المكان الذي زرته في طفولتي، وأن هذا هو نفس المعبد الذي تعبدت فيه عائلة والدتي، والبناء الذي قامت أسرة والدي على حراسته لحوالي ألف عام، وأنه في مكان ما من هذه الساحة الممتلئة بالسياح الذين يرتدون الملابس المبقعة بالعرق والذين يتبادلون الحديث حول عشاء الليلة السابقة أو الجِمال التي ينتوون ركوبها لاحقًا عصر ذلك اليوم، تقع البقعة التي التقى فيها والداي لأول مرة.

كانت زيارتي للمعبد هي فكرة عبد الله. قال إنه حتى لو كان مجرد مزار سياحي، فقد أجد هناك من يعرف طريقة للاتصال بالسيد موصيري. كان محقًّا -كما هو في العادة- وقد يستحق الأمر المحاولة. لكنني كنت قد بدأت أفقد الأمل في ذلك الوقت. فقد زرت كل

الشوارع التي تحمل اسم جمال الدين في المدينة، وتركت الرسائل وتبادلت الحديث مع الغرباء، وألححت على عمي حسن ليحكي لي أي ذكريات قد تكون لديه بخصوص السيد موصيري أو أسرته. وقد اتصلت بشركة الاتصالات، وزرت المعبد الرئيس في شارع عدلي مرتين. وفي الأسبوع الماضي، أجرى عبد الله ترتيباته كي يأخذ إجازة ظهر أحد الأيام ليصطحبني إلى وكر البيروقراطية المصرية الضخم المعروف باسم المجمع. بعد قضاء حوالي شهر في البحث عن السيد موصيري، بدأت أفكر في احتمالات الإخفاق في مسعاي، وأنه ربما يجدر بي أن أحزم أغراضي وأعود لبيركلي. أو ربما يمكنني حضور بضع حصص في معهد اللغات الذي تقوم عائشة بالتدريس فيه، وقضاء باقي العام في حل تمارين النحو وتصريف الأفعال.

وقفت وسط مجموعة من السياح المصابين بحروق الشمس والذين يرتدون السراويل القصيرة، وأنا أستمع لبعض الأستراليين الذين يتجادلون حول مدى أخلاقية منح المال لأطفال الشوارع. حاولت أن أتذكر بعض الحكايات التي رواها لي والدي عن رجال أسرة الراقب المختلفين الذين دافعوا عن المعبد ضد الأخطار. حاولت تخيل والداي في طفولتهما وهما يلعبان الغميضة في تلك المساحات خلف أشجار النخيل. لكن الدهان الحديث للمعبد وجهاز كشف المعادن خلفي ومجموعات السياح بقمصانهم القطنية المتشابهة قد حجبوا أي خيالات تصورتها في ذهني.

«أستميحك عذرًا».

اقترب أحد حراس الأمن من خلفي بينما أنا غارق في أفكاري تلك.

قال: «أستميحك عذرًا يا سيدي، لا يمكنك الوقوف هنا».

عندما فكرت في الأمر لاحقًا، أدركت أنه ربما كان الأكثر حكمة ساعتها هو الإجابة باللغة الانجليزية ولعب دور السائح الحائر. لكن عوضًا عن ذلك، فقد أجبت بحدة باللغة العربية.

«لا يمكنني الوقوف هنا؟».

قال وهو يشير تجاه الأستراليين الواقفين على مبعدة بضعة أقدام: «يمكنك الوقوف هناك. لكن ليس هنا، فهذه منطقة محظورة».

تقدمت نصف خطوة ناحية جماعة الأستراليين، ثم توقفت. لِمَ يجب عليَّ التحرك من مكاني؟ لماذا لا يمكنني الوقوف في أي مكان أريده؟ لو كان لأي شخص الحق في ادعاء ملكية هذا المكان فقد كنت أنا هذا الشخص. لقد تعبد أسلافي في هذا المعبد، وخاطروا بحياتهم لحمايته.

كنت أحاول ترتيب أفكاري هذه بوضوح عندما قطع الساحة نحونا حارس أمن آخر له مظهر رسمي أكثر. كان يرتدي سترة سوداء واقية من الرصاص وقد تدلى رشاشه على كتفه مثل لعبة فقد الاهتمام بها منذ زمن.

«هل يمكنني مساعدتك يا سيدي؟».

بالرغم من الرشاش ونبرة الشك في صوته، إلا أنه بدا عليه أنه يرغب بالفعل في تقديم العون.

قلت: «أجل، أنا أبحث عن السيد موصيري».

«السيد موصيري؟».

مددت يدي في جيبي باحثًا عن بطاقته، لكن لم يكن هناك حاجة لذلك. فقد كان مجرد ذكر اسمه كافيًا. دون كلمة أخرى، شرع حارس الأمن الثاني هذا في التحرك، ملقيًا بالأوامر في جهازه اللاسلكي بينما هو يقودني تجاه مقعد حجري صغير قريب.

قال: «لو لم يكن لديك مانع، يمكننا الجلوس هنا».

جلب كرسيًّا وأخرج علبة سجائر وعرض عليَّ واحدة بينما هو يشعل سيجارته بعود ثقاب.

قلت: «لا، شكرًا».

جلسنا صامتين للحظة، نشاهد السياح وهم يمرون عبر جهاز الكشف عن المعادن، ثم التفت ناحيتي ليتفحصني عن كثب.

سألني: «هل أنت يهودي؟».

قلت: «أجل». فأمال رأسه ليراني من منظور مختلف.

قال بينما يطفئ رماد سيجارته بحرص داخل علبة مياه غازية فارغة: «بالنسبة لي، فإنك تبدو مصريًّا».

قلت له: «لقد كان والدي مصريًّا». ولم أخبره عن أمي كي لا أعقد الأمور.

«هل هو مسلم؟».

قلت موضحًا وأنا أستخدم صيغة الماضي: «كان مسلمًا. لقد توفي منذ بضعة أشهر».

غمغم الحارس بتعازيه -لا حول ولا قوة إلا بالله- ثم عاد لموضوع النقاش.

أوضح قائلًا: «لو كان والدك مسلمًا، إذن فأنت أيضًا مسلم».

قلت موافقًا: «هذا حقيقي. لكن اليهود يتبعون ديانة والدتهم، لذا فأنا يهودي أيضًا».

فكر الحارس في هذا التناقض للحظة لكنه رفض التسليم بالأمر.

قال: «لا يمكنك أن تكون الاثنين معًا، فهذا مستحيل».

قبل أن أتمكن من الرد، وقبل أن أتمكن من دحض ادعائه باستحالة انتمائي لأسلافي، صفّر جهاز اللاسلكي ثانية فتبادل حارس الأمن بضع كلمات بصوت أجش مع الطرف الآخر.

سألني: «هل أنت يوسف؟».

قلت: «نعم».

تبادلوا حوارًا مختصرًا مرة أخرى –شيء ما بخصوص السيد موصيري وربما سيارته– ثم أعاد الحارس جهاز اللاسلكي لجرابه.

قال لي: «فلتعد ثانية عند العصر. في الساعة الخامسة».

سألته: «اليوم؟».

«عصر اليوم». كرر قوله: «في الساعة الخامسة».

* * *

عندما عدت للمعبد –بعد تناول الغداء وزيارة الكنيسة المعلقة وقضاء ثلاث ساعات في المتحف القبطي– كانت الشمس قد بدأت تغيب خلف جدران المدينة القديمة، وبدأ أصحاب الدكاكين في رفع

بضائعهم. اختفى جميع السياح ورجال الأمن. أغلقت كنيسة أبو سرجة ذلك المساء وخلت ساحة المعبد إلا من رجل قصير أصلع يرتدي بدلة زرقاء أنيقة.

صاح وهو يمد ذراعيه مُرَحِّبًا: «يوسف!».

كنت قد قضيت معظم وقتي طوال الأسابيع الماضية وأنا أحاول العثور على هذا الرجل -أحاول الاتصال به وأسير عبر كل شوارع المدينة التي تحمل اسم جمال الدين، وأتحدث عنه دون انقطاع مع عبد الله وعائشة، وأبحث عن طريق الإنترنت ودليل الهاتف، وفي ممرات المجمع، وأحدق في بطاقته وقصاصة الصحيفة التي عثرت عليها في غرفة والدي على أمل أن أجد دليلًا يرشدني إليه- ثم فجأة هكذا، كان هناك يبادلني التحية ويقبل وجنتي.

«سيد موصيري».

فاحت منه رائحة عطر الجاردينيا بينما هو يعدل وضع سترته، ولاحظت منديلًا حريريًّا بلون برتقالي زاهٍ يطل من جيبه العلوي. كانت له ابتسامة لطيفة وأنف مفلطح، وكان سلوكه راقيًا يكاد يكون أرستقراطيًّا.

قال: «أنا سعيد للغاية بحضورك». ثم وضع يده على ذراعي ورفع حاجبيه للأعلى في تعاطف. «كان والدك سيسعد بوجودك».

«أشكرك». قلتها وأنا لا أعرف كيف أجيب خلاف ذلك.

سألني عن مكان سكني، وبدأ يذكر شيئًا حول مطعم إيطالي يعرفه

في جاردن سيتي، عندما ظهرت على ملامحه فجأة أمارات الفهم.

«أرجو ألا تكون قد حاولت الاتصال بي».

اعترفت قائلًا: «بضع مرات فقط».

قال: «تلك البطاقة». ومن الطريقة التي غطى بها فمه بيده، رأيت أنه قد فهم ما حدث بوضوح. «أنا آسف للغاية يا يوسف. هذه المشاكل مع شركة الاتصالات والتغييرات التي أحدثوها في الأرقام؛ كان الأمر برمته مثيرًا للغيظ».

استمر في الحديث لبضع دقائق -وهو يحاول شرح التغييرات الجديدة، وكيف أن شركة الاتصالات المملوكة للدولة قد أضافت رقمًا جديدًا لكل الخطوط الأرضية في القاهرة، أو قامت بتغيير كود المنطقة، أو شيء ما من هذا القبيل- ثم توقف قبل أن ينهي جملته.

قال: «لكن هأنتذا. ولا أعتقد أنك ترغب في الاستماع إليَّ وأنا أتحدث عن مشاكلنا هنا مع شركة الاتصالات. لا بد أن لديك بعض الأسئلة».

قلت: «أجل». وقد كانت لديَّ أسئلة بالفعل، رغم أنني لم أفكر في ترتيبها بأي شكل محدد.

رفع السيد موصيري حاجبًا في انتظار سماع الأسئلة، لكنه بدا وكأنه قد غير رأيه.

قال: «قبل أن ننشغل بذلك، ربما كان من الأفضل أن نبدأ بجولة سريعة للمعبد. إنه رائع حقًّا في ضوء النهار».

بينما نحن نصعد السلم للقسم المخصص للنساء، أخذ السيد موصيري يصف عمليات الترميم التي ساهم في الإشراف عليها قبل بضع سنوات مضت، وأشار لبعض الخصائص المعمارية المميزة للمبنى. كان السقف الذي ارتسم عليه نقش معينات متداخلة من تصميم حرفي شارك جد جده في عملية الترميم السابقة لهذه العملية. أما الخزانة التي يُحفظ بها سفر التوراة والكائنة في مقدمة القاعة بلونها الأحمر والذهبي اللامع، فقد تم بناؤها بنفس المواصفات المذكورة في مخطط هندسي يعود لقرن مضى.

قلت: «إنه جميل». وقد كان كذلك بالفعل.

بينما أنا أنظر إلى الأقواس الرخامية المتراصة باللونين الأبيض والأسود والتي يرتفع فوقها قسم النساء أعلى قاعة الصلاة الرئيسة، حاولت أن أتذكر المرة الأخيرة التي دخلت فيها أحد المعابد. ربما أثناء بار متسفا روري تراوت، أو أثناء جنازة جدتي في باريس. لم أستطع أن أتذكر تحديدًا، لكنني كنت أعلم أنه منذ وقت طويل مضى، على الأقل عشر سنوات. وأيًّا كان شكل المعبد، فلم يكن مثل هذا على الإطلاق.

قال السيد موصيري بابتسامة: «أجل، نحن سعداء للغاية بالشكل الذي صار عليه».

ربت بيده على السور الحديدي الذي كان أمامنا، ثم استدار ليقودني نحو السلم لنعود ثانية لقاعة الصلاة الرئيسة.

قلت قبل أن يتمكن من مواصلة الجولة: «أتعلم، كنت آمل أن تستطيع إخباري شيئًا بخصوص... ».

تريثت وأنا لا أدري ماذا أطلق على تلك القطعة من الورق التي أرسلها لي والدي.

قال: «تلك القصاصة؟ أجل، بالطبع».

شرح السيد موصيري أنه من الصعب التأكد بصورة قاطعة، خاصة في حالة وثيقة عتيقة لهذا الحد، لكن بمقدور المرء الجزم ببعض المعلومات الأساسية. فقد كانت القصاصة عبارة عن رسالتين مختلفتين، تعود غالبًا لمنتصف القرن الحادي عشر. وفي الغالب كانت هاتان الرسالتان جزءًا من سلسلة أطول من الرسائل المتبادلة بين كبير مستشاري السلطان وبين زعيم الطائفة اليهودية بالقاهرة. أما عن محتوى الرسالتين، فقد ذكرت كلاهما صبيًّا مسلمًا صغيرًا اسمه علي، وما إذا كان من المناسب تعيينه كحارس لمعبد بن عزرا.

«علي الراقب؟».

«كما ذكرت، فمن الصعب التأكد من مثل هذا الأمر بصورة قاطعة».

«كنت أعتقد أن تلك مجرد حكاية».

قال السيد موصيري: «أجل، حسنًا، لكن الحكاية لا تكون أبدًا مجرد حكاية».

تردد لحظة قبل أن يواصل كلامه وقد غير مسار الحديث قليلًا، ليصف السياق التاريخي والمادي لقصاصة الورق تلك. أوضح التحريم اليهودي المتعلق بالتخلص من الوثائق التي قد تحوي اسم الرب، وكيف أنه في وقت ما من منتصف القرن الحادي عشر بدأ يهود معبد بن عزرا

في تخزين مثل هذه الأوراق في غرفة العلية بالمعبد. أجاب كل أسئلتي وأكثر منها. على الرغم من ذلك، راودني شعور بأنه يدور حول أطراف الحكاية وأن هناك جزءًا ما منها يحاول تفاديه.

قلت وقد وصل لمنتصف حكاية ما عن ضياع الوثائق، وشيء ما عن حاخام وشقيقتين من كامبريدج: «عندما طلب منك أن ترسل لي الطرد، هل ذكر والدي أي شيء على وجه الخصوص؟» .

«ما الذي تعنيه؟».

«هل طلب...» حاولت أن أصيغ الأمر بطريقة أكثر وضوحًا: «هل كان هناك سبب محدد جعله يرسل لي الطرد، أو أي سبب جعله يعتقد أنني قد أرغب فيه؟».

قال السيد موصيري: «أنت تعلم بالطبع أن تلك القصاصة لا تقدر بثمن، لكن أعتقد أنك تسأل عن...».

بينما توقف عن الحديث وهو يحاول العثور على الكلمات الملائمة –وقد بدا غير واثق من القدر الذي يجب عليه الإفصاح عنه تحديدًا– لاحظت نظرة السيد موصيري وقد استقرت على فتحة قصيرة مستطيلة الشكل أسفل سقف القسم المخصص للنساء مباشرة.

سألت: «هل تلك هي؟ أعني الجنيزة؟».

أقر السيد موصيري قائلًا: «نعم، إنها هي».

لم يكن مدخل الجنيزة يزيد في الحجم كثيرًا عن نافذة حمام من الحمامات، وكانت حوافه محاطة بإطار خشبي داكن بينما يغطيه خشب

أبلكاش. كان من السهل ألَّا يلحظه المرء لو لم يكن يعرف تحديدًا ما يتوجب عليه البحث عنه.

«لا يمكننا الدخول، أليس كذلك؟».

«للجنيزة؟» بدا السيد موصيري وكأنه قد فوجئ. «لا، فالوصول لها صعب للغاية. لم يدخلها أي شخص منذ سنوات».

«لكن هل هذا ممكن؟».

نظر إليَّ لحظة، ثم تغير تعبير وجهه وعلته ابتسامة.

«أعتقد أنه قد يمكننا ذلك».

دون أن ينطق كلمة أخرى، قادني ناحية الطرف المقابل من القسم المخصص للنساء. شعرت بقلبي ينبض في حلقي بينما جلب هو سلمًا خشبيًّا قديمًا من وسط كومة من مواد البناء وأسنده على الحافة السفلية لمدخل الجنيزة.

حذّرني قائلًا بينما يسند السلم وأنا أصعده: «لا توجد أي أنوار. ولا يمكنني تخيل كم التراب الموجود هناك».

عندما وصلت للأعلى، أزحت الباب المصنوع من الأبلكاش جانبًا، ثم جلست على الحافة قبل أن أنزل من على السلم الموجود على الجهة المقابلة. استغرق الأمر لحظات حتى اعتادت عيناي الظلمة، لكنني لم ألبث أن رأيت الغرفة وهي تكاد تكون خالية تمامًا والأرض مكسوة بطبقة سميكة من التراب الرمادي اللون.

وأنا واقف هناك في ركن الجنيزة، تخيلتها وهي ممتلئة بالأوراق،

ألف عام من الرسائل الغرامية وكتب الأدعية وعقود العمل وصكوك الملكية وبعض قوائم الطلبات التي ينبغي شراؤها، كل ذلك ممتزج معًا في كومة ضخمة يحتمل أن يوجد وسطها اسم الرب. فكرت في كل أفراد عائلة الراقب الذين وقفوا في نفس هذا المكان -بداية من أول حارس حتى الحارس الأخير، من علي الراقب حتى والدي- وهم يمرون بغرفة العلية في جولاتهم الليلية. فكرت في كل الوثائق التي استقرت هناك وفيما كانت تحمله تلك الأوراق من معانٍ: زفاف ما أو شريك عمل جديد، وفاة أحد أفراد الأسرة، أو رسالة لم يتم الرد عليها من أخ في الجهة المقابلة من الكرة الأرضية.

كانت الغرفة خالية، لكن آلاف الحكايا استقرت في المكان. لاحظت أيضًا وجود شحنة ما في جو الغرفة؛ طاقة ما لها وخز خفيف. تقدمت خطوة نحو منتصف الغرفة، وشعرت بالوخز يزداد، فتذكرت ما قاله والدي عصر ذلك اليوم على النيل بخصوص اللفافة المخفية في غرفة العلية بالمعبد.

عندئذ، وأنا أحاول تذكر ما قاله تحديدًا -شيء ما عن النبي عزرا وبعض الشائعات حول السحر واسم الرب- رأيت بقعة رمادية اللون تطل من وراء كومة من مستلزمات التنظيف. تسارعت دقات قلبي وقفزت للوراء. ثم رأيت حركة أخرى أقرب كثيرًا وأدركت أنه قط. كانت غرفة العلية ممتلئة بهم، عشرات القطط الصغيرة النحيلة، وكلهم بنفس اللون الرمادي اللامع.

قال السيد موصيري وهو يهبط نازلًا لغرفة العلية: «نحاول بقدر

استطاعتنا إبقاءهم في الخارج، لكنها معركة خاسرة. أعتقد أنهم وجدوا طريقة للدخول عبر السقف».

هززت رأسي وراقبت القطط وهي تعود للاختباء في الظلام.

«إذَنْ فهذه هي».

أكد قائلًا: «هذه هي. ليست على نفس القدر من الفخامة الذي قد يتخيله المرء».

بقينا صامتين لحظة ثم شبك السيد موصيري كفيه، مثل مضيف مرهق يبتسم بجوار الباب وهو يودع آخر ضيوفه.

قلت: «لو لم يكن لديك مانع، هل يمكنني أن أسألك سؤالًا آخر؟».

«لا مانع على الإطلاق».

كانت هناك أشياء كثيرة أرغب في معرفتها -عن قصاصة الورق وعن علي الراقب، عن الجنيزة والفترة التي قضاها والدي وهو يعمل في حراسة المعبد- لكن عوضًا عن ذلك سألت أول سؤال خطر على بالي.

«ذكر والدي شيئًا ذات مرة، بخصوص لفافة مخبأة في غرفة العلية».

اختفت ابتسامة السيد موصيري. فتح فمه ثم أغلقه ثانية وكأنه يبحث عن جواب بين عدد من التفسيرات المختلفة. شرع في الحديث، ثم توقف وهو ينظر للفتحة الكائنة بالأعلى بينما يدق جانب رأسه بخفة بإصبعه كأنه يحاول إخراج معلومة مهمة.

«هل أنت متفرغ مساء الجمعة القادمة؟».

قلت: «نعم».

قال وهو يخرج منديلًا كبيرًا أبيض اللون من جيب سترته الداخلي ويمسح به التراب من على نظاراته الطبية: «إذَنْ ربما يمكنك الانضمام لنا على العشاء. أعتقد أن لديَّ شيئًا قد ترغب في رؤيته».

بعد أن أعاد المنديل لجيبه، استدار السيد موصيري ناحية الفتحة التي دخلنا منها. تبعته للخارج وأنا أدرك أنه يجب عليَّ التوقف عن الإلحاح، وأغلقت الباب وراءنا وأنا أرمش بعيني من تغيير الإضاءة.

* * *

- ٩ -

دار الجدال حول مسألة البساتين -أي مسألة زيارتهما للمقبرة وما يمكنهما أن تجداه هناك- في صمت تام تقريبًا. لم يكن نقاشًا بقدر ما كان حربًا منهكة. لم تستطع أجنيس التصالح مع فكرة نبش القبور، بصرف النظر عما يمكنهما العثور عليه هناك. أما بالنسبة لمارجريت، فقد كان إنقاذ الوثائق التي لا تقدر بثمن من النهب والضياع يفوق أهمية أي قلق متعلق بحرمة الأموات. وبالإضافة لذلك، فهما لن تعبثا بأي رفات.

في الأربع وعشرين ساعة التالية لمصارحة السيد الراقب لهما بأن هناك وثائق -بما في ذلك، ربما، لفافة عزرا- مدفونة في مقبرة البساتين، لم تتبادل أجنيس ومارجريت سوى بضع كلمات فقط. لم تثر أيٌّ منهما الموضوع، حتى إن أيهما لم تذكر اسم المدافن ولو همسًا. لم يكن هناك داعٍ، فقد كانت كلتاهما تعرف ما تفكر فيه الأخرى. لمعظم اليوم حامتا حول بعضهما في صمت، وكل منهما تقوي حججها الدفاعية وتفكر في الحجج المضادة، وتستنتج الأدلة من أي تغيير بسيط في الروتين اليومي: قطعة إضافية من الزبد مع الإفطار، أو ملحوظة عابرة بخصوص

الآنسة دو ويت أو الدكتور شيختر، أو أي شيء يمكنه الكشف عن النوايا الخفية للطرف الآخر.

قامت أجنيس بالحركة الأولى وهي تلعب الشطرنج باللون الأبيض.

«هل سيروق لك الأمر لو قام أحدهم بنبش قبورنا؟».

نحت مارجريت كتابها جانبًا -كتاب من أدب الرحلات ألفه الحاخام أوباديا برتينورو في القرن الخامس عشر- ونظرت لشقيقتها التي كانت قد انتهت للتو من ممارسة تمارينها الرياضية. توقعت مارجريت هذا المنطق من شقيقتها، لكنها لم تتوقع أن تبدأ هجومها في هذه اللحظة المبكرة. قد يكون الأمر فخًّا، لكن في الغالب فقد كان ورع شقيقتها البالغ يغشى منطقها في التفكير.

قالت وهي تلمس الكتاب الذي كان على حجرها: «تبعًا لأوباديا، فإن الوثائق مدفونة في جزء غير مستخدم من المدافن، على مبعدة من أي قبر بمسافة تزيد عن ذراعين».

جلست أجنيس على حافة فراش شقيقتها.

«لا يزال الأمر يبدو خاطئًا».

«فكري فيه وكأنه كنز مدفون يا نسطور. تخيلي، لفافة التوراة المثالية التي خطها عزرا بنفسه، قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون».

كانت مارجريت تعلم أنه من غير المرجح وجود لفافة عزرا مدفونة في البساتين، لكن على الرغم من ذلك كانت حجة قوية.

سألت أجنيس: «هل يجدر بنا أن نثق في كلام السيد الراقب لهذه

الدرجة؟ وماذا عن الدكتور شيختر؟ هل يمكنك تخيل ما الذي سوف يقوله لو أخبرناه أننا نرغب في الحفر في مقبرة يهودية؟».

قالت مارجريت: «أعتقد أن الدكتور شيختر سيرحب بذلك للغاية. لكن على الرغم من ذلك، فربما علينا أن نحتفظ بالفكرة لأنفسنا».

زفرت أجنيس، مما دل على أنها أوشكت على الاستسلام لشقيقتها، ثم انقلبت لتتمدد على بطنها.

«هل يمكنك دهان ظهري يا ميجي؟».

كانت مارجريت على يقين من أنها لو ضغطت على شقيقتها بعض الشيء، فستتمكن من جعلها تسلم تسليمًا تامًّا في التو واللحظة. لكن خبرتها جعلتها تؤجل الأمر، فقد كان من الأفضل أن تنتظر وتجعل نسطور تقتنع بنفسها.

وقد فتحت أجنيس الموضوع بالفعل أثناء الإفطار في صباح اليوم التالي. فقد تحول اهتمامها في الليلة السابقة لتنشغل بتفاصيل الموضوع: أين تقع المقبرة تحديدًا؟ وكيف يمكنهما القيام بالزيارة دون إثارة الشكوك؟ كانت مارجريت قد فكرت في إجابات تلك الأسئلة والعديد غيرها أيضًا، وأخذت تشرح تفاصيل الخطة التي ستمكنهما من زيارة البساتين والعثور على الوثائق ونقلها دون أن يفتضح أمرهما أمام الدكتور شيختر والسيد بيخو والآخرين. بنهاية وجبة الإفطار، تبددت مخاوف أجنيس، وقامتا معًا بكتابة رسالة لرجل قبطي كانتا قد اعتمدتا عليه عدة مرات خلال السنوات الماضية ليساعدهما في ترتيب الأمور.

في فجر اليوم التالي، خرجتا ومعهما خمسة حمير وصندوقان فارغان ومجموعة من المجارف وثلاثة رجال ضخام الجثة يجيدون الحفر وكانوا جميعهم -كما أكد لهما الرجل القبطي- في غاية التكتم. تبعًا لكتاب الدليل السياحي الذي كان مع مارجريت، فقد كانت البساتين تقع في الطرف الجنوبي للمدينة، بين الضفة الشرقية للنيل ومحاجر الحجر الجيري بهضبة المقطم. مُنح اليهود تلك الأرض في القرن التاسع بعد أن قام ابن طولون ببناء قصره فوق مدافنهم السابقة. وعندما زار أوباديا برتينورو المدافن بعدها بستمائة عام، ذكر أن الطريق مليء بقطّاع الطرق وأن المدافن يحيطها الخلاء لأميال ممتدة. في القرون التي تلت ذلك، ظهرت بعض المباني العسكرية والمحاجر، لكن المنطقة ظلت محتفظة بجوها المقفر. فيما عدا جماعة من الغربان آكلي الجيفة، كان الدليل الوحيد على وجود حياة بالمنطقة هو مخيم للبدو، بخيامهم البنية الداكنة الواقعة في منخفض مذكور على الخريطة باسم وادي طرة.

لم تلحظ أجنيس ومارجريت المدافن -التي يفصلها عن باقي الصحراء جدار حجري بنفس لون التلال الواقعة خلفه- حتى أشار لها أحد الحفارين. راقبتا من فوق ظهور الحمير بينما قام الرجل القبطي الذي يساعدهما في الترتيبات بإيقاظ البدوي العجوز المسؤول عن حراسة المدافن، وعرض عليه سيجارة. كانتا قد توقعتا أنهما ستحتاجان لتقديم رشوة، واتفقتا مسبقًا على تقديم ثلاثين جنيهًا للحارس مقابل أن يريهما مكان دفن الوثائق لو كانت موجودة بالفعل، وأن يتغاضى عن الأمر وهم يقومون بالحفر. بعد نصف ساعة من المفاوضات والصياح

والتلويح بالأيدي والإيماءات، وافق الحارس على التخلي عن مهامه في الحراسة مقابل عشر جنيهات.

قال الرجل القبطي وهو يومئ بذقنه بينما يقوم بلف سيجارة على سبيل الاحتفال: «في الركن الجنوبي الغربي. وراء مقبرة آل موصيري».

نزلت أجنيس ومارجريت عن ظهور الحمير، وقطعتا الطريق عبر المدافن، بينما قام الحفارون بنقل المعدات للركن الجنوبي الغربي.

قالت مارجريت ضاحكة بينما هي تساعد شقيقتها في العبور فوق السور الحديدي القصير الذي يفصل بين قسمين من أقسام المدافن: «لم يكن الأمر صعبًا للغاية. أليس كذلك؟».

قالت أجنيس موافقة: «كلا». ثم واصلتا السير في صمت لبضع خطوات. «لكن لا يسعني ألا أفكر كيف يختلف سلوكنا عن سلوك سارقي القبور؟».

قالت مارجريت وهي تعلم أن أفضل ما يخفف شعور شقيقتها بالذنب هو كلمة بسيطة: «نختلف في النوايا. النية الطيبة هي التي تشكل فارقًا كبيرًا».

بينما شرع الحفارون في العمل، جلست أجنيس ومارجريت على مقعد حجري مجاور لضريح رخامي ضخم نقش عليه اسم موصيري. راقبتا عمل الحفارين في ترقب صامت وقد غطت سيقانهما بطانية. كان من الواضح أن العمال الذين جلبوهما لم يكونوا أول من يحفر في هذه المنطقة. كانت الطبقة العلوية من التربة مخلخلة حتى عمق ثلاثة أقدام،

وخالية من أي وثائق. شعرت الشقيقتان بالقلق من احتمال ألَّا يكون هناك شيء قد تبقى. لكن بعد أكثر من ساعة من العمل دون جدوى، صاح أحد الرجال وأشار لرق جلدي أصفر اللون يطل من وسط التربة مثل يد انفصلت عن جسد.

«توقفوا». صاحت مارجريت وهرولت داخل الخندق المحفور.

استند الرجال على جواريفهم بينما نفضت هي الرمال عن الوثيقة وقرأت الأسطر الأولى منها.

قالت وهي تناوله لشقيقتها: «إنه عقد زواج».

تنهدت أجنيس قائلة: «المزيد من القمامة».

كان عقد الزواج محفوظًا بصورة جيدة للغاية بعد أن بقي طوال سنوات تحت التربة الرملية الجافة وسط الظلام. لكنهما بالطبع لم تقطعا الطريق حتى البساتين بحثًا عن عقد زواج. ولم تدنسا المقبرة سعيًا وراء مثل هذه الأمور الاعتيادية. لكن وجودها كان دليلًا على احتمال وجود المزيد من الكنوز المدفونة بالأسفل. فرشت أجنيس بطانيتهما وكأنها تجهز لنزهة، ووضعت عقد الزواج على الركن العلوي الأيسر. في تلك الأثناء، أمرت مارجريت الحفارين أن يتركوا الجواريف ويكملوا العمل بالمعدات اليدوية الصغيرة، بحيث يغترفون التربة في جرادل معدنية ويخرجون منها بحرص أي أوراق يجدونها.

واصلوا العمل هكذا لمعظم النهار، وفجأة بعد منتصف الظهيرة بقليل، خرج الحارس البدوي العجوز من خيمته وهو يصيح ويلوح

بذراعيه. في البداية لم يفهموا ما الذي كان يقوله لكن عندما اقترب أكثر أدركت أجنيس أنه كان يصيح مكررًا المرة تلو الأخرى كلمة باللغة العربية الفصحى -خيل- والتي تكاد تطابق كلمة أخرى باللغة العربية، وهي كلمة خيلاء التي تدل على الكبرياء.

بعد بضع لحظات، اتضح أن البقعة الصغيرة الظاهرة على الطرف الجنوبي من الأفق ما هي إلا حصان على ظهره راكب، يتبعه اثنان آخران. على قمة أقرب مرتفع، على مبعدة بضع مئات من الياردات، توقف قائد المجموعة وقلده الراكبان الآخران. بحثت مارجريت في خرج حمارها حتى وجدت منظارًا مقربًا. عندما تمكنت من ضبط رؤية المنظار تجاه راكبي الخيل، كانوا قد استداروا عائدين في طريقهم للقاهرة. على الرغم من ذلك، كانت متأكدة أنها تعرفت على قائد المجموعة.

«السيد بيخو».

«السيد بيخو». كررتها أجنيس وهي تطيل نطق أحرف الاسم بينما تشعر بالتفوق الأخلاقي.

كان من المحتمل أن السيد بيخو جاء للبساتين لزيارة قبر أحد أفراد الأسرة المتوفين. أو ربما سمع بخبر زيارة الشقيقتين للمدافن وجاء ليواجههما. لكن في أي حال من الأحوال، لماذا قطع كل هذه المسافة، ثم استدار عائدًا؟ إذا أخذتا تراجعه هذا في الاعتبار، بالإضافة لكون المدافن بعيدة تمامًا عن أي مكان آخر يمكن أن يقصده، فقد كان التفسير الوحيد المحتمل هو ذلك الذي كانتا تحاولان تفاديه منذ فترة. السيد بيخو هو المسؤول عن تسرب الوثائق من الجنيزة، فقد سرق

محتويات غرفة العلية بمعبد بن عزرا، وباع الوثائق لصالحه شيئًا فشيئًا. والآن بعد أن صارت وثائق الجنيزة مؤمنة، فقد خطط لسرقة الأوراق المدفونة في مدافن البساتين.

عند التفكير في الأمر، اتضح كل شيء. فقد كان بإمكان السيد بيخو الدخول لمعبد بن عزرا بكل سهولة، وفي الغالب كان يحتاج المال من أجل دراسة ابنه. أو ربما كان ينتوي سداد بعض الديون المتعلقة بمشاكل مصنع السكر الخاص به. أيًّا كان الأمر، فقد أمسكتا باللص.

قالت مارجريت وهي تلوح بالمنظار المقرب ناحية الحارس البدوي: «السيد بيخو. لقد حضر هنا من قبل، أليس كذلك؟».

قال الحارس وهو يسحق سيجارته بنعل خفه: «أجل. حضر كل يوم طوال أسبوع كامل».

فكرت أجنيس في هذه المعلومات لبعض الوقت قبل أن تستدير لتواجه شقيقتها.

«ما الذي يتوجب علينا فعله الآن؟».

«الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله هو أن نستمر في الحفر».

كانت محقة في ذلك. لذا استمرتا في عملهما حتى نهاية اليوم، إلى أن غابت الشمس خلف حدود التلال التي بلون الملح، وبدأ الرجال في الشكوى من آلام الظهر. لم تجدا لفافة عزرا عصر ذلك اليوم، لكنهما أنقذتا صندوقًا مليئًا بالوثائق من مستقبل مجهول. وبالإضافة لذلك، فقد كشفتا عن شخصية اللص.

في طريق العودة للقاهرة، بقيت أجنيس ومارجريت صامتتين، وهما تراقبان أول النجوم التي أخذت في الظهور بينما تفكران في التبعات العديدة لهذه المعلومات الجديدة التي اكتشفتاها. لقد كشفتا اللص - لكن الأمر كان بالغ التعقيد. لو اتهمتاه صراحة، ففي الغالب سيقوم السيد بيخو بالهجوم وسيطلب العون من باقي أعضاء المجلس، وربما يحاول تعطيل مهمتهما بالكامل. لو كان هذا هو الوضع، فلم يكن بوسعهما سوى تمني ألا يكون قد تعرف عليهما من موقعه على قمة الكثيب الرملي. فعلى الرغم من ثقتهما في حسن نواياهما، إلا أنه كان عليهما الاعتراف بأن أفعالهما لم تكن تفترق عن أفعاله هو من منظور محايد. وعلى العكس من السيد بيخو، فلن يصير بمقدورهما استغلال تعاطف الطائفة اليهودية. لقد كان الوضع بالفعل معقدًا للغاية.

قالت أجنيس عندما دخلتا حدود المدينة: «لا يمكننا إخبار الدكتور شيختر».

وافقتها مارجريت قائلة: «ليس بعد».

فقد كان إخبار الدكتور شيختر سيتطلب الكشف عن تفاصيل رحلتهما للبساتين، وبالإضافة لذلك فلم يكن بمقدورهما التأكد مما إذا كان الدكتور شيختر سيثق في كلمتهما هما أمام كلمة السيد بيخو. قررتا أنه من الأفضل الاحتفاظ بالمعلومات ليوم أو يومين، والانتظار حتى يظهر دليل مادي أقوى.

لسوء الحظ، لم يكن هذا الخيار متاحًا أمامهما. فعندما وصلت الشقيقتان لفندقهما، وجدتا الدكتور شيختر والآنسة دو ويت بانتظارهما

في ردهة الاستقبال. طوال سنوات معرفتهما ببعضهما البعض، لم يسبق لأجنس ومارجريت أن رأتا الدكتور شيختر بمثل هذه الحالة. كان حذاؤه مغطى بالطين، بينما شعره مهوشًا للغاية.

صاح وهو يقفز واقفًا، بينما يشير للصندوق المحمول خلفهما: «قمتما بتدنيس مقبرة؟ ومن أجل ماذا؟ بعض الأوراق؟».

اتضح أن السيد بيخو قرر البدء بالهجوم وأخبر الدكتور شيختر عن زيارتهما للبساتين، وبهذا صارت كلمته ضد كلمتهما.

«سولومون!» قالتها الآنسة دو ويت بحدة بعض الشيء، مما جعله يهدأ ويعود لطبيعته.

وضعت يدها على مرفقه فجلس ثانية.

واصلت الحديث وهي تهدئه كمن يهدئ طفلًا: «والآن، دعنا نستمع لما ستخبرنا به السيدة جيبسون والسيدة لويس. فهما بالتأكيد قد حصلتا على موافقة الحاخام بن شيمون».

سأل بنبرة يغلب عليها الرجاء: «هل حصلتما عليها حقًّا؟».

تبادلت الشقيقتان النظرات.

قالت مارجريت: «لا، لم يكن هناك وقت كي نحصل على الموافقة. كانت لدينا معلومات موثوق بها أن هناك من ينهب المقبرة ويتاجر بالوثائق في السوق السوداء. وفي الواقع، فإن الرجل الذي ساعدنا في الترتيبات يعتقد أننا قد أخفنا بعضهم عصر هذا اليوم».

ابتسمت أجنيس لنفسها لمقدرة شقيقتها على مزج الحقيقة بنسبة

من الأكاذيب الصغيرة التي يسهل نسيانها لاحقًا. استمرت مارجريت في الحديث لفترة من الوقت، بصوت ثابت كمروض الأسود، وهي تصف كذب الحارس البدوي والأدلة التي لا تخطؤها عين التي تثبت وجود زوار سابقين. لم تذكر السيد بيخو. فلو فعلت ذلك كانت ستدخل الشرك الذي أعده لهما لتصير هناك مواجهة بينهم حول من يكسب ثقة الدكتور شيختر. ومع ذلك، فقد نجحت في نهاية الأمر في تهدئة الرجل.

قال: «لو عرف أي شخص بهذا الأمر، فقد يصير مشروعنا كله في خطر».

وافقته أجنيس قائلة: «هذه مخاطرة بالفعل، لكننا قررنا أن الأمر يستحق المجازفة».

عاتبهما الدكتور شيختر، وهو يشعر بحاجة لتنفيس غضبه: «كان عليكما استشارتي أولًا. يجب أن نبقي بعضنا البعض على اطلاع دومًا بمثل هذه القرارات».

وافقت أجنيس ومارجريت على استشارته مستقبلًا بخصوص أي قرارات هامة.

قالت الآنسة دو ويت: «بمناسبة الحديث عن هذا الموضوع، أعتقد أن السيدة جيبسون والسيدة لويس سترغبان في الانضمام إلينا لتناول الغداء يوم الثلاثاء القادم مع كبير الحاخامات».

وافقها الدكتور شيختر قائلًا: «أجل، بالطبع». كان من الواضح

أنه لم يكن ينتوي دعوتهما لتناول الغداء، لكن بعد الخطبة التي ألقاها بخصوص إبقاء بعضهم البعض على اطلاع بالأمور، لم يكن بمقدوره التراجع. «هذه فكرة رائعة».

* * *

كان الحاخام بن شيمون قد اقترح أن يتناولوا الغداء في فندق شبرد، وعلى الرغم من أن مارجريت وأجنيس لم تكونا لتعترفا بالأمر، فقد كانتا تشعران بالإثارة لقضاء الأمسية هناك؛ حيث إنها كانت فرصة كي ترتديا بعضًا من ملابسهما الأكثر أناقة.

قالت أجنيس وهما تصعدان درجات السلم الأمامي للفندق: «لا يوجد مثيل لشبرد». وابتسمت الشقيقتان نفس الابتسامة الصغيرة، بينما ظلال الحديد المزخرف بالمدخل تلفهما بجو من الترف.

جلس رفاقهما في الطرف المقابل من بهو الفندق، وبينما هما تسيران تجاههم، تمكنتا من مراقبة المجموعة عن بعد. بدت الآنسة دو ويت مشرقة وهي ترتدي ثوبًا أصفر اللون، بينما كان الدكتور شيختر مشعثًا كعادته، وبدا السيد بيخو أهدأ طباعًا، وكأن ثقته المعتادة بنفسه قد حل محلها الحذر. أما كبير الحاخامات، فقد انبهرت الشقيقتان به منذ البداية. فعلى الرغم من أن لباسه الطويل ولحيته البيضاء الكثة أضفيا عليه مظهرًا موقرًا، إلا أنه كان يمكن للمرء ملاحظة الذكاء الذي يلتمع في عينيه الخضراوين. في سياق آخر، كان يمكن للمرء تخيله وهو رجل أعمال ناجح أو ربما وزير.

قال السيد بيخو وهو يقاطع الدكتور شيختر الذي كان يعرف

الجميع ببعضهم البعض: «يجب أن تكون طاولتنا معدة الآن. لقد قلت لهم إننا سنحضر في تمام الواحدة».

قالت مارجريت مبتسمة بينما أمسك السيد بيخو بذراعها وهو يقود المجموعة لقاعة الطعام: «رائع».

بينما هما تجلسان في مقعديهما، لاحظت أجنيس ومارجريت أن بعض الآخرين الموجودين بقاعة الطعام قد عدلوا من جلستهم ليتمكنوا من مراقبة تلك المجموعة المتنافرة بصورة أفضل. تبادل زوجان على طاولة مجاورة نظرة مضطربة، وقد شعرا بالقلق ربما أن كبير الحاخامات -بلحيته الكثة ولباسه الداكن وعمامته- سوف يتبعه داخل قاعة الطعام مجموعة من العمال والفلاحين والأرامل اللاتي ترتدين البراقع ويولولون حول استشهاد الحسين. كانت الشقيقتان قد اعتادتا ردود الفعل تلك من الآخرين، وعرفتا أن أفضل حل هو التجاهل والتصرف كأن شيئًا لم يكن.

قال السيد بيخو بينما بدأ فريق من الندل يضعون أمامهم أطباق الملوخية: «لقد طلبنا وجبة يهودية تقليدية. أعدتها زوجة الحاخام بن شيمون تبعًا لتقاليدنا الغذائية».

قالت أجنيس على الرغم من أنها في الواقع كانت تتوق لشيء أرقى: «سيكون هذا رائعًا».

قالت مارجريت بالعبرية: «لذيذ جدًّا. رائع».

بعد أن اتفقوا على اللغة التي سيتبادلون بها الحديث -الإنجليزية

والعبرية ممتزجين مع بعض اللغة العربية– سار النقاش بيسر. بدا الحاخام بن شيمون مهتمًّا بالفعل بتفاصيل دراسة أجنيس ومارجريت، وبنتائج رحلاتهما السابقة لسانت كاترين. تحدثوا لبعض الوقت عن البطريرك القبطي الذي كان صديقًا مشتركًا بينهم، وتجادلوا بود حول المكان الفعلي لجبل موسى. لم يزر أي من الحاخام بن شيمون أو الدكتور شيختر المكان، لكن كليهما دافع بشدة عن الفكرة القائلة بأن موسى قد تلقى الوصايا العشر على قمة جبل حوريب. كانت مارجريت تؤمن بالفكرة التي اعتنقها أغلب العلماء المعاصرين والقائلة بأن جبل موسى المذكور في الإنجيل هو نفسه الجبل المعروف الآن باسم جبل سربال. بعد حوالي ساعة من النقاش، تم تقديم القهوة –دون إضافة الكريمة طبقًا للعادات الغذائية اليهودية– ثم أثار السيد بيخو الموضوع الرئيس الذي اجتمعوا لأجله.

«أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام بخصوص وثائق الجنيزة؟».

وجه السيد بيخو حديثه للدكتور شيختر، لكنه ترك المجال لتدخل السيدات في الحديث إذا ما رغبت إحداهن في ذلك. سعلت مارجريت وهي تخفي فمها بقبضتها بينما تحاول الحفاظ على هدوئها. يا لوقاحته، وهو يسأل عن الوثائق وقد حاول سرقتها قبل بضعة أيام.

قال الدكتور شيختر: «أجل، كل شيء على ما يرام. لا أعتقد أننا كنا سنتمكن من إنجاز شيء يذكر دون مساعدة السيدة لويس والسيدة جيبسون».

أومأت أجنيس برأسها وابتسمت مارجريت ابتسامة صغيرة بينما

الدكتور شيختر يصف للحاخام بن شيمون بعض الوثائق التي اعتقد أنها قد تثير اهتمامه. عندئذ أثار السيد بيخو الموضوع الذي كان عليهم مناقشته في نهاية المطاف، وهو هيئة الجمارك المصرية.

أوضح السيد بيخو أنه قضى معظم الأسبوع الماضي وهو يحاول مع الدكتور شيختر أن يفرجا عن الوثائق من جحيم الإجراءات الإدارية.

قال السيد بيخو: «لكن كما تعلمون، فإن هيئة الجمارك متشددة للغاية عندما يتعلق الأمر بإخراج أي آثار من البلاد. وبما أن بعض الوثائق تعود لحوالي ألف عام، فإن الوثائق كلها تعد من الآثار».

فعلى الرغم من أن كبير الحاخامات قد منح الدكتور شيختر الحق في التصرف في أي شيء في غرفة العلية بالمعبد، إلا أن السلطات جادلت بأن ذلك ليس من حقه قانونًا دون أن يثبت كبير الحاخامات ملكيته لتلك الوثائق أولًا. لم تكن هناك بالطبع أي سجلات تثبت ملكية الوثائق التي كانت حتى بضعة أسابيع مضت تعد مجرد قمامة. وعلى ما يبدو فإن وجودها لأكثر من ألف عام في معبد مملوك للطائفة اليهودية لم يكن يعني شيئًا.

سأل الحاخام بن شيمون عندما انتهى الدكتور شيختر من حديثه: «هل سيفيد لو توسطت أنا بصورة مباشرة لدى السلطات؟».

قال السيد بيخو وهو يشير بيده لنادل جاء ليعيد ملء فنجان قهوته كي يبتعد: «لا أود أن تشغل نفسك بمثل تلك الأمور الروتينية. وأعتقد أن هذه مسألة قد لا يكفي حتى نفوذك أنت لحلها بصورة نهائية».

ألقت مارجريت نظرة نحو كبير الحاخامات -الذي بدا وكأنه أخذ تحليل السيد بيخو للوضع على علاته- ثم وضعت فنجانها جانبًا ووضعت كفًّا فوق الآخر في حجرها، وقد أدركت الاتجاه الذي سوف يسير فيه الحديث.

سألت: «ما الأمر إذَنْ؟ هل المطلوب هو البقشيش؟».

كانتا قد أعطيتا للدكتور شيختر بالفعل مائة جنيه لدفع الرشاوي المختلفة. بدا هذا المبلغ أكثر من كاف بالنسبة لمارجريت.

أجابها السيد بيخو مبتسمًا: «يمكنك القول بذلك. بالرغم من أن هيئة الجمارك ستطلب بقشيشًا أكبر مما يطلبه الصبي الذي يحمل أمتعتكما».

كرر كلمة «بقشيش» مثل المعلم الذي يصحح نطق تلميذه بطريقة غير مباشرة.

واصل السيد بيخو الحديث وهو يلتفت قليلًا ناحية الدكتور شيختر: «نحن على تواصل مع أحد الأشخاص في هيئة الجمارك كي يساعد في تعجيل الحصول على الموافقة. تحدثت معه بالأمس وقال إنه اقترب للغاية، وأوشك أن يؤمن الإفراج عن الوثائق. في الواقع فهو...».

قاطعته مارجريت قائلة: «يحتاج للمزيد من المال. يرغب في المزيد من البقشيش».

كتم السيد بيخو غضبه، حيث إنه لم يألف أن يقوم أحدهم بإكمال حديثه بدلًا منه، خاصة لو كان ذلك الشخص امرأة.

«أجل، هذا هو ما قاله».

غمغمت مارجريت قائلة: «هذا هو ما قاله». وقد توقع الجميع أن تتكرم السيدة لويس والسيدة جيبسون بدفع البقشيش دون نقاش. «بالطبع هذا هو ما قاله».

بقدر ما كانت ترغب في فضح السيد بيخو، وبقدر ما كانت ترغب في كشف حقيقته أمام الحاخام بن شيمون والدكتور شيختر، إلا أن مارجريت كانت تعلم أنها لن تستفيد أي شيء من تلك المواجهة. كان السيد بيخو قد لعب دوره –بإخبار الدكتور شيختر عن زيارتهما للبساتين– وكان ينتظر منهما الآن أن تقوما بالحركة التالية. كانتا في مركز القوة، ولم يكن بإمكانهما التنبؤ برد فعله لو حاصرتاه في ركن من الأركان. لكن على الرغم من ذلك لم يكن بمقدورها السماح له بسلب المزيد من أموالهما.

سألت بنبرة صوت ثابتة وتقطر سخرية: «كم يحتاج من المال؟ مائة؟ مائتين؟ خمسمائة؟».

قاطعتها أجنيس قائلة: «أعتقد إن ما تحاول شقيقتي قوله هو... ».

«لا، بل إنني أعني تمامًا ما قلته».

استدارت لتوجه حديثها للدكتور شيختر.

«في حقيقة الأمر فنحن لا نثق تمامًا في هذا الأسلوب. قبل أن نقدم المزيد من المال، نرغب في أن نجرب طريقة أخرى».

سألها الدكتور شيختر بمزيج من الشك والفضول: «أي طريقة هذه؟».

«لقد رتبنا اجتماعًا في وقت لاحق من هذا الأسبوع مع القنصل العام».

سألها الدكتور شيختر: «اللورد كرومر؟». فهزت مارجريت رأسها بالإيجاب.

وضعت يدها على ركبة شقيقتها لتسكت اعتراضها -فلم تكونا بالفعل قد رتبتا لمثل هذا الاجتماع- ثم أجابت سؤال الدكتور شيختر، وهي ترفع صوتها بدرجة أكبر مما كانت تنتوي.

«اللورد كرومر». قالتها فعمَّ الصمت مائدتهما، وقاعة الطعام بأكملها، عند سماع اسم القنصل العام.

* * *

- ١٠ -

قبل التفكير في مدى مسؤولية علي -مسألة الدليل، والدافع، والتخطيط المسبق- كان المجلس القضائي لبن عزرا يحتاج أولًا لتحديد طبيعة الشكوى ضده. وقبل تحديد طبيعة الشكوى، كانوا بحاجة لتحديد مكانته بينهم. هل كان علي بن المرواني فردًا من أفراد طائفتهم؟ هل كان ضيفًا، أم عاملًا، أم مزيجًا ما بين الثلاثة؟ لو كان عاملًا كما اقترح الطبيب ميفوراخ وشيماريا الورع، لصار من الممكن حل الخلاف بطريقة غير رسمية. ارتأى من تبنوا تلك الفكرة أن ينتحي الزكري بالصبي جانبًا ويسأله عما إذا كان يعرف أي شيء بخصوص الأوراق المفقودة. لكن في حال لو تم اعتبار علي فردًا من أفراد الطائفة، كما جادل كل من عمرام بن شيماريا وابن كمونة، فسوف يتطلب الأمر محاكمته بصورة رسمية أمام المجلس. كان الجميع يعلمون بالطبع أنه بصفته مسلمًا، فلم يكن قرار المجلس ملزمًا لعلي. فلو اختلف مع حكمهم، كان بمقدوره أن يتجاهله ويطلب محاكمة أخرى أمام محكمة إسلامية.

قال الطبيب ميفوراخ: «الشيء الوحيد الذي نسيطر عليه هو راتبه، مما يدل على أننا لسنا سوى مستخدمين بالنسبة للصبي، لا هيئة قضائية».

قاطعه عمرام بن شيماريا قائلًا: «ولِمَ نصدر أي حكم من أي نوع؟ لو كنا نعلم أن الخليفة يمكنه أن يلغي حكمنا في نهاية المطاف؟».

استمر النقاش على هذا المنوال لفترة من الوقت ما بين الفريقين. كان قرارًا دقيقًا، وزاد من حساسيته تعارض أسلوب الجدال بين الفريقين. فقد كان أعضاء المجلس الذين يميلون للشك في علي يبالغون في أهميته كفرد من الطائفة، بينما كان أولئك الذين يميلون للتعامل معه بأسلوب أكثر تساهلًا يجادلون أنه ليس سوى مجرد حارس.

استمر النقاش حتى وقت متأخر من الليل، والجدل دائر بينهم، حتى اتفقوا في النهاية على أن يكون الزكري هو صاحب القرار. فقد كان يعرف الصبي أكثر من أي شخص آخر. وكان هو من اكتشف اختفاء الأوراق، وهو من ربط بين سرقة الأوراق والسؤال الغريب الذي سأله علي منذ بضع ليال مضت، وهو من لفت انتباه المجلس للأمر. لو كان الزكري يعتقد أن الأمر لا يتطلب سوى نقاش صريح مع الصبي، فسينتهجوا ذلك الأسلوب لحل المشكلة. ولو ارتأى أنه من الواجب انعقاد المجلس القضائي، فسيتم انعقاده. كان الجميع يعلمون أن الزكري يميل لعلي، لكنهم كانوا يعلمون أيضًا أنه لن يسمح لمشاعره بالتأثير على حكمه.

قال بعد فترة من التفكير: «لو كان علي بريئًا، فيجب إعلان براءته أمامنا جميعًا. ولو كان مذنبًا، فيجب كذلك إعلان جرمه».

* * *

سمع علي عن التهم الموجهة ضده لأول مرة في عصر اليوم التالي، عندما طرق بابه الزكري والطبيب ميفوراخ.

قال الطبيب ميفوراخ وهو يقف أعلى درجات سلم بيت علي، بينما يداه معقودة خلف ظهره: «مطلوب منك الحضور لمنزل ابن كمونة».

استشعر علي أن هناك خطبًا ما، لكنه لم يطلب أي تفسير. بعد أن ارتدى خفّه، تبع الطبيب ميفوراخ والزكري وسط سوق الخضراوات وحتى الطرف الآخر من الفسطاط. في نهاية المطاف، توقفوا وطرق الزكري بابًا خشبيًّا أزرق ضخمًا مزينًا بالفسيفساء على شكل خاتم سليمان. كان ذلك على ما يبدو هو مسكن ابن كمونة. بينما هم يدلفون للمنزل، خفتت مخاوف علي للحظات، ليحل محلها شعور بترف المكان. من أعلى المدخل الرخامي الضيق، رأى مجموعة من المعلقات النسجية باللونين الأخضر المائل للزرقة والبنفسجي تؤدي لمساحة مفتوحة يغمرها الضوء، خمن أنها ساحة البيت. انتظر علي في مدخل البيت لفترة بدت وكأنها قد طالت. عندئذ ظهر أحد الخدم وقاده نحو الضوء الظاهر في الداخل.

كانت ساحة منزل ابن كمونة أكبر من ساحة المعبد ومزينة ببذخ أكثر. ارتفعت جدران المنزل الداخلية لتحيط الساحة من الأربعة جوانب. أطلت الأعمدة والشرفات الظليلة على تعريشة صغيرة من الأشجار وعلى نافورة لا ينقطع صوت خرير مياهها. بين المدخل والنافورة، جلس جميع أعضاء المجلس القضائي لمعبد بن عزرا في صمت على وسائد توزعت بشكل نصف دائري. شعر علي بحرارة الشمس تلفح رأسه بينما أعضاء المجلس يتأملونه في صمت.

قال ابن كمونة أخيرًا وهو يشير لمكان خالٍ في مركز نصف الدائرة: «فلتجلس من فضلك».

جلس علي متربعًا على الوسادة وهو يحملق في قماش ثوبه المشدود بين ركبتيه كالطبلة.

بدأ شيماريا الورع الحديث قائلًا: «لقد طلبنا حضورك هنا لتجيب عن بعض الأسئلة».

شعر علي بالرخام الصلب وهو يضغط على كعبيه بينما حدد العالِم الكبير أسباب قلقهم المتعلق باختفاء الأوراق ووميض الضوء والسؤال الغريب الذي ألقاه على الزكري. شعر بغصة في حلقه وهو ينتظر أن يأتوا على ذكر حاسدي السيفاردي والتعاويذ السحرية، لكن شيماريا الورع أنهى حديثه دون التطرق لهذه المسائل.

ختم ابن كمونة الحديث قائلًا: «نحن لا نتهمك بارتكاب أي جرم، لكن لو كنت تعلم شيئًا عن أي من هذه الأمور فعليك إخبارنا».

حل الصمت على المجموعة كدثار ثقيل. أدرك علي أن المجلس لا يعلم شيئًا عن حقيقة جرمه. على الرغم من أنه لم يكن يرغب في الكذب، فقد رأى علي تلك الاتهامات بمثابة فرصة لتسوية الأمور. كانت فرصة ليعترف بالأمر حتى لو لم يكن هو من اقترف الجرم.

قال بعد صمت طويل: «أنا المسؤول. أنا من سرق الأوراق».

رأى علي الدائرة حوله وقد انتشرت فيها الشفاه المزمومة والحواجب المعقودة. تحدثت مجموعة من الرجال في ذات الوقت

لكن صوت إفرايم بن شيماريا ارتفع فوق باقي الأصوات.

«هلا سمحت لنا ببعض الوقت كي نناقش حكمنا؟».

قال علي وهو يخفض نظره أرضًا بينما ينهض من على الوسادة التي كان يجلس عليها: «أجل».

استدار عائدًا ناحية المدخل عندما سمع صوت شيماريا الورع وهو يتنحنح؛ كان ذلك نفس الصوت الذي أنقذه منذ بضعة أشهر مضت من الحشد الذي تجمع حوله. عم الصمت المكان.

قال شيماريا: «يا بني، قبل أن ترحل، فلتسمح لي أن أوجه لك سؤالًا واحدًا».

أومأ علي برأسه بالإيجاب.

«هل يمكنك أن تخبر المجلس لِمَ سرقت الأوراق؟».

غمغم علي: «أجل». لكنه في تلك اللحظة لم يتمكن من التفكير في سبب واحد قد يدعوه لسرقة تلك الأوراق. ازدرد ريقه وحاول أن يجيب ثانية. «أنا المسؤول. أنا من سرق الأوراق».

«هل فعلت ذلك حقًّا؟».

فتح علي فمه، لكنه لم يتمكن من النطق. تبادل بعض الرجال الجالسين النظرات.

أخيرًا نطق العالم الكبير قائلًا: «لو قمت بالفعل بسرقة الأوراق، هل يمكنك أن تخبر أعضاء المجلس عن مكان تلك الأوراق الآن؟».

بينما هو يدور بنظره في المكان -من شيماريا الكبير لابنيه ولابن

كمونة، حتى الطبيب ميفوراخ والزكري- تذكر علي تلك الآية من سورة البقرة التي كانت خالته فاطمة تكررها على مسامعه وهي تحضه على توخي الصدق ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. قرر أنه قد آن الأوان لكشف الحقيقة. فلم يعد يرغب في الكذب والمواراة، بينما مشاعره تتعفن بداخله مثل إناء من الحساء المتروك تحت حرارة الشمس. لقد ملّ السرية والخداع. وأيًّا كانت النتائج المترتبة على أفعاله فقد كان يرغب في مواجهتها.

لذا أخبر علي المجلس بصوت مرتعش عن ولعه بالابنة الصغرى لشيماريا الورع. حكى لهم عن دكان حاسدي السيفاردي وعن التميمة التي أحرقها في النار، وعن لقائه بحاسدي في غرفة العلية. بينما هو يحكي دون أن يغفل شيئًا من تفاصيل خيانته، شعر علي وكأن عبئًا ثقيلًا ينزاح عن صدره. كان يعلم أن نتائج فعلته ستكون وخيمة، فقد بدا ذلك ظاهرًا على التعبيرات المليئة بالصدمة التي علت الوجوه من حوله. لكن أيًّا كان العقاب الذي سيتلقاه، فقد شعر بالراحة أخيرًا بعد أن اعترف.

قال ابن كمونة بعد أن انتهى علي من الحديث: «هذا كلام في غاية الخطورة. سنضطر لأن نطلب منك الانتظار في الردهة ريثما نتناقش في حكمنا».

قال عمرام بن شيماريا وهو ينهض قائمًا في غضب: «نتناقش؟ ما الذي يستدعي النقاش؟ لقد خاننا. لقد ألقى بتعويذة سحرية على شقيقتي، وها هو يعترف بكامل إرادته».

أضاف إفرايم بن شيماريا قائلًا: «ليس هناك ما يستوجب النقاش.

علينا أن نطرده خارجًا ونمنعه من العودة إلى المعبد. لو كان هو يهوديًّا ونحن مسلمين لكنا في السجن بالفعل الآن».

سأل عمرام للمرة الثانية: «ما الذي يستوجب النقاش؟». وعلت بعض الغمغمات المؤيدة له.

أبقى علي نظرته مثبتة على خفه ولم يرفع عينيه حتى سمع صوت شيماريا الورع.

«يا بني».

عندما رأى العالِم الكبير بملامحه الطيبة وشعره الأبيض الطويل المتشابك مع لحيته، شعر علي بالخزي الشديد، فلم تكن إساءة عمرام وإفرايم ابني شيماريا لتقارن بشعور والدهما بخيبة الأمل. أراد أن يرجو منه الصفح، وأن يمزق جلبابه وينبطح أمام أعضاء المجلس، لكنه كان يعلم أن مثل تلك التصرفات لن تكون في صالحه. لذا التزم الصمت.

قال شيماريا بعد فترة طويلة من الصمت: «إن هذا مثير للقلق لحد كبير. فالسحر الذي تصفه قوي للغاية، ولن أنكر أنني أشعر بالغضب. لكن في مثل هذه اللحظات من الغضب، علينا أن نفكر أكثر في مقدرتنا على الصفح. دعونا لا ننسى أننا من سلالة إبراهيم، الذي صفح عن أبيمالك ثم دعا الله ليغفر لعدوه».

عندما انتهى شيماريا الورع من حديثه، طلب الطبيب ميفوراخ من علي الانتظار في الردهة.

«سنطلبك عندما نتوصل لقرار».

جلس علي معظم فترة العصر في مدخل منزل ابن كمونة وهو يراقب انعكاس وجهه على السطح الغائم لرخام الأرضية. وصل نقاش المجلس لمسامعه كسيل متداخل من الأصوات، تتخلله بين الحين والآخر صيحة أو فترة من الصمت أو كلمة منفردة تتدحرج عبر الردهة مثل كرة لطفل هربت عبر الطريق. بعد فترة من الوقت، جلب أحد الخدم إبريقًا من الشاي وطبقًا تراصت عليه الفاكهة في شكل حلزوني بألوان من الأصفر والأبيض والأحمر، لكنّ عليًّا لم يتمكن من تناول أي شيء. فمجرد التفكير في الأمر، في الفاكهة الملساء وهي تنزلق عبر حلقه بحلاوتها، أثار غثيانه. حملق في باطن قدميه ببشرتهما الداكنة القاسية، وفكر في العبارة القائلة إن الجنة تحت أقدام الأمهات. بدت وكأنها حقيقة، لكن ما الذي كان يدريه هو عن الأمهات؟ ولو كانت الجنة تحت أقدامهم، فما الذي كان تحت أقدامه هو؟ لا شيء سوى جلد نعله المهترئ والتراب، مما يلائم الابن غير الشرعي لسقَّاء.

بدأ الظلام يحل عندما عاد الخادم وقاد عليًّا للساحة مرة ثانية. دون أن يرفع عينيه، جلس على حافة وسادته. كان شيماريا الورع هو أول من تحدث.

«لقد ارتكبت جرمًا كبيرًا».

تدخل عمرام قائلًا: «بل عددًا من الجرائم».

قال شيماريا مواصلًا الحديث وكأنه لم يسمع قول ابنه: «لقد تآمرت ضدنا. وكذبت علينا ودنست أقدس مقدساتنا. وفوق كل هذا، فقد سحرت أصغر بناتي».

بدا من انتقاء شيماريا لكلماته أن التعويذة قد نجحت. حاول علي أن يخرج هذه الفكرة من عقله. حاول ألا يتخيل محبوبته وهي تذوي شوقًا إليه. حاول أن يصب تركيزه على ما يقوله شيماريا الورع.

«سيساعدنا اعترافك على أن نعالج الصبية المصابة».

عندها، انتابت العالم الكبير نوبة من السعال. بعد أن زالت عنه نوبة السعال، أخذ نفسًا عميقًا وحاول مواصلة حديثه. لكن مشاعره غلبته ولم يتمكن من الكلام. في النهاية، أومأ لابن كمونة الذي نطق بباقي الحكم.

«يمكن للمرء أن يجادل قائلًا إنك لم تكن على دراية بما تقترفه، وأن لا أحد قد نهاك بوضوح عن فعل ما أقدمت عليه، وأنك لم تكن تدرك خطأ تصرفاتك. فهذه ليست حججًا قوية، لكن يمكن للمرء أن يقدمها».

توقف ابن كمونة عن الحديث وجال بنظره بين الجلوس.

«لا نشعر بالرضى عن سلوكك، لكننا في ذات الوقت نقدر أمانتك وعملك الجاد. ونحن على دراية أيضًا أن هذا أول تجاوز لك. تطالبنا تعاليمنا بأن نكون في مرونة عود من القصب، لا في صلابة شجر الأرز. لذا فقد قررنا الصفح عنك، لكن بشرط».

زفر علي.

قال الطبيب ميفوراخ: «لو كنت تود الاستمرار في عملك الحالي، فعليك أن تقطع على نفسك عهدين. أولًا، عليك أن توافق على البحث عن زوجة».

قال ابن كمونة: «عندما يتزوج الرجل، تغتفر جميع ذنوبه».

أومأ باقي أعضاء المجلس موافقين، وأضاف إفرايم بن شيماريا حكمة من عنده: «الذي يجد زوجة، يجد السعادة ويحصل على رضى الرب».

واصل الطبيب ميفوراخ قائلًا: «أنت فتى طيب، لكنك أهوج كأي فتى في مثل عمرك. سنمنحك شهرين لتقوّم من سلوكك. عند نهاية تلك الفترة، لو لم تكن قد نجحت في العثور على زوجة، فسوف نضطر للبحث عن شخص آخر ليحل محلك».

انتظر الطبيب ميفوراخ لبعض الوقت كي يفهم علي معنى الكلام الذي قاله بوضوح قبل أن يكمل قائلًا: «بالإضافة للعثور على زوجة، عليك أن تنسى كل ما تعرفه عن لفافة عزرا. لن تذكرها أبدًا في حديثك، فأنت لم ترها أبدًا ولا علم لك بوجودها. ونفس الشيء ينطبق على تعاملاتك مع حاسدي السيفاردي».

فتح علي فمه كي يسأل سؤالًا، لكن ابن كمونة قاطعه.

«حاسدي خطير، لكن سحره مثل سحر تلامذة المدرسة. سنعمل على نفيه خارج الفسطاط. لكن مع ذلك، عليك ألا تذكره أبدًا مرة ثانية. هل هذا واضح؟».

«أجل».

أضاف إفرايم بن شيماريا قائلًا: «عليك أن تفهم أيضًا أن هذا الحكم مشروط. فهناك العديدون بيننا ممن يرغبون في إنهاء عملك

على الفور، لكننا اتفقنا على منحك فرصة أخرى. سيجتمع المجلس ثانية بعد شهرين لاتخاذ قرار نهائي. لو وقعت أي مشكلات خلال تلك الفترة، فأنا أؤكد لك أننا لن نكون متسامحين إلى هذا الحد».

هز علي رأسه.

سأل الطبيب ميفوراخ: «هل هناك أي شيء آخر تحب أن تقوله؟».

كان علي يريد قول الكثير مما لا يكفيه خطاب واحد. لذا اكتفى بنطق أكثر الكلمات أهمية.

«أشكركم».

وقد كان علي يشعر بالامتنان بالفعل. لكن بينما هو يقوم بجولاته في ذلك المساء -وهو يتفحص أركان الساحة الهادئة، ويبحث في المساحة الخالية خلف الخزانة التي يحفظ بداخلها سفر التوراة، وفي الحمامات الخاصة بالاستحمام التعبدي، وخاصة في غرفة العلية- شعر بالرغبة تنتابه مرة أخرى. حتى بعد كل ما قد حدث، فقد بقي جزء صغير منه يتمنى لو كان يستطيع إيجاد طريقة ما تجمعه بمحبوبته. حاول أن يطرد تلك الأفكار بعيدًا. أخبر نفسه أن المجلس عفا عنه ومنحه فرصة ثانية. لو كان يرغب في الحفاظ على ثقتهم والاحتفاظ بعمله، فقد كان يتحتم عليه إخماد رغبته تلك.

عند منتصف الليل، اكتشف طريقة يرغم بها نفسه على النسيان. كان على وشك الانتهاء من جولته الرابعة، بينما يحاول ألا يتخيل رد فعل محبوبته تجاه ما وقع من أحداث ذلك اليوم، عندما أحرق رسغه

على حافة مصباحه دون عمد. صاح متألمًا وأسقط المصباح ليرش رسغه بالماء البارد. كثيرًا ما أحرق علي نفسه من قبل، لكنه لاحظ شيئًا جديدًا في هذه المرة. إلى جانب الألم، كان هناك أيضًا نوع من الراحة وكأن جزءا من همومه قد تبخر عبر الحرق. في المرة التالية التي فكر فيها في محبوبته، ألصق ساعده على حافة مصباحه لبضع ثوانٍ وشعر بنفس الراحة مرة أخرى. خلال تلك الليلة، أحرق علي نفسه تسع مرات، تاركًا علامات حمراء منتفخة بطول ذراعه. كان الأمر مؤلمًا، لكن فعالًا. عندما استيقظ عصر اليوم التالي، شعر برغباته وهي تتلاشى.

❋ ❋ ❋

- ١١ -

كانت شقة السيد موصيري تقع في شارع قصير في المهندسين تحف جانبيه الأشجار، ويقع على مبعدة ثلاثة مربعات سكنية من النيل على ناصية نادي التوفيقية للتنس. لسبب ما، لم يكن شارع جمال الدين هذا مدرجًا في فهرس الخريطة التي بحوزتي. لكن عندما عرفت أين أبحث عنه، لم يكن من الصعب العثور عليه.

قال عبد الله صباح اليوم التالي لزيارتي للمعبد: «ها هو».

أزاح طبقه جانبًا وهو يشير للشوارع الجانبية الصغيرة المتفرعة كشعيرات من شارع السودان.

قرأت بصوت مرتفع من على الخريطة: «جمال الدين. ها هو».

فردت الخريطة على الطاولة وأنا أتناول قضمة من شطيرة زبدة الفول السوداني والشوكولاتة. كان هناك في نفس المكان بالضبط الذي ذكره السيد موصيري، على ناصية نادي التوفيقية للتنس. بعد أسابيع من البحث والتجوال عبر مختلف الشوارع التي تحمل اسم جمال الدين في مدينة نصر وإمبابة وهليوبوليس، أخيرًا وجدت الشارع الصحيح.

كررت قولي: «ها هو». لكن عبد الله كان قد انتقل للسؤال التالي.

«عندما دعاك السيد موصيري، هل ذكر ما الذي يريده؟».

«قال إن بحوزته شيئًا قد يثير اهتمامي».

بمرور أيام ذلك الأسبوع، ظللنا نعيد التفكير في ذلك السؤال. ما الذي كان السيد موصيري يعتقد أنني سأهتم لرؤيته؟ بذلت أقصى جهدي لخفض سقف توقعاتي، وللحد من خيالي. لكن عندما وقفت على الرصيف أمام عمارته، ورأيت العنوان –٧٢ شارع جمال الدين– محفورًا على اللوحة النحاسية المعلقة بجوار المدخل الأمامي، بدا أي شيء ممكنًا.

«مرحبًا». قالها السيد موصيري وهو يجذبني داخل شقته ويعانقني بقوة بدت مدهشة.

«مرحبًا يا صديقي. آمل ألا تكون قد واجهت صعوبة في العثور على العنوان».

«لا، ليس على وجه الخصوص».

«هذا جيد». ابتسم وهو يربت على ظهري ويقودني ناحية غرفة السفرة.

جلست مجموعة من السيدات كبار السن حول المائدة الطويلة المصنوعة من الزجاج والكروم، وهن يتبادلن الحديث بمزيج من اللهجة المصرية واللغة الفرنسية. كان البعض منهن يدخن. ارتفع صوت التلفاز من غرفة المعيشة، بينما تناثرت على المائدة أطباق صغيرة من الحمص

والزيتون والخضراوات المخللة والمكسرات. عندما دخلت أنا والسيد موصيري، انقطع الحديث وسرت موجة من عبارات الترحيب حول المائدة.

قال بعد أن قدم والدته، والسيدة شيماريا، والسيدة ميفوراخ، والسيدة تونسي، ومدام الطنطاوي: «أنا والعجائز. إنهن يرفضن الرحيل، وأنا لن أرحل من دونهن».

قالت السيدة ميفوراخ بينما أنا أجلس على المقعد الخالي عند رأس المائدة: «لقد شعرت بالحزن عندما سمعت خبر رحيل والدك».

أضافت مدام الطنطاوي قائلة: «لقد كان رجلًا طيبًا للغاية».

قالت السيدة موصيري: «فلتحل على ذكراه الرحمة». وأومأ الجميع برؤوسهم موافقين.

شكرتهم ثم استدرت لأستمع للسيدة شيماريا التي كانت في منتصف حكاية ما عن الحمام الذي كان عم والدتي –ابن عم زوجها– يقوم بتربيته على سطح عمارتهم.

قالت: «يا لها من فوضى. لم تشاهدوا مثل تلك الفوضى أبدًا من قبل».

«أحقًّا؟».

قالت وهي تهز رأسها باشمئزاز: «لن تصدقي الأمر».

بينما أنا أستمع إليها وهي تواصل الحديث عن عم والدتي والحمام الذي يقوم بتربيته، تساءلت عما إذا كان هذا هو ما يريد السيد موصيري

أن يريني إياه. كنت أتوقع شيئًا ماديًّا ملموسًا -مثل صورة لوالدي أو مجلد علمي قديم عن الجنيزة- لكن ألم يكن من المحتمل أيضًا أن يكون قد دعاني لألتقي بهذه المجموعة من العجائز اللاتي كن يمثلن على حد علمي آخر يهود القاهرة؟ أو ربما كنت أنا المثير للاهتمام بالنسبة لهن، بصفتي حلقة وصل بعالم لم يعد له وجود.

قالت مدام الطنطاوي وهي تضع يدها على ساعدي لتجذب انتباهي: «في عصر كل يوم، كنت أنا وجدتك نلعب بالبلي في ساحة

منزل والدك. وفي عصر كل يوم كان يعقوب ابن عمي يراقبنا من سطح المنزل المجاور. كانت جدتك فتاة خجولة وطيبة، لم ترفع عينيها أبدًا لتنظر إليه لأكثر من لحظة. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي يراقبنا كل يوم لحوالي ثلاث سنوات. وفي يوم عيد ميلاد جدتك السادس عشر، دخل البيت من بابه وطلب الزواج منها».

قلت: «إذن نحن أقارب؟ ابن عمك هو جدي؟».

هزت مدام الطنطاوي رأسها بأسف وواصلت حكايتها.

«في وقت لاحق من نفس ذلك اليوم، بينما كانت جدتك ووالداها يفكرون في عرضه للزواج، خرج ابن عمي لتناول العشاء مع بعض الأصدقاء، وفي منتصف الوجبة اختنق بسبب عظمة من الدجاج. سقط ميتًا ووجهه في طبق الحساء».

توقفت عن الحديث لتأخذ بعضًا من الفاصوليا الخضراء المطهية على البخار والدجاج، ثم وصلت لمغزى القصة.

قالت السيدة شيماريا وهي تمضغ الفاصوليا الخضراء: «الحياة أقصر من أن نضيعها في الانتظار يا يوسف؛ أقصر كثيرًا. كان فتى طيبًا. يا له من أمر مؤسف أن يموت هكذا، في طبق حسائه».

قضين الوقت طوال الليلة وهن يحكين الحكايات -عن أبناء عمومتهن وأصدقائهن، وعن شجاعة جدي وعن مشاريع جد جدي الفاشلة- ويتحدثن عن الماضي وكأنه حياة أخرى، وربما كان كذلك بالفعل. سألنني عن والدتي وقلن إنها كانت فتاة جميلة. تجادلن حول جودة لحم الضأن الذي تم تقديمه في حفل زفاف منذ خمسين عامًا مضت. تحدثن عن الكريستال والفضة، وعن نادي الجزيرة، وعن قوات الجيش البريطاني، وعن قصر عابدين. ثم عاد الحديث ليدور حول والدي مرة أخرى قرب نهاية العشاء.

قالت السيدة تونسي: «كان رجلًا طيبًا. حتى في أصعب الأوقات، كان دومًا ما يبتسم لي وللجميع».

أومأ البعض برؤوسهم بينما السيدة تونسي تنتقل بالحديث لتحكي كيف طارد والدي ذات مرة بعض صبية الحي الذين وضعوا قنبلة كريهة الرائحة في الحمامات الخاصة بالاستحمام التعبدي. عندما انتهت من الحديث، روت السيدة ميفوراخ حكاية عن عائلة من القطط الحبيسة على سطح المعبد. ثم حكى السيد موصيري حكاية عن والدي عندما كان يعمل في بيع الحاصلات الزراعية، كانت نهايتها أن والدي أعاد عشرة آلاف جنيه لتاجر فاكهة فقير ظل طوال ثلاث سنوات يدفع مبالغ زائدة عن حسابه دون قصد. كنت قد سمعت معظم هذه الحكايات من

قبل –من عمي حسن أو من والدي نفسه– لكن عندما سمعتها تُروى من منظور جديد، بدأت أفهم مكانة والدي عند أولئك النسوة، وأسرهن، والمجتمع الذي قام بخدمته. كان أكثر من مجرد حارس. كان صديقًا وحاميًا وناصحًا وواحدًا من الأعمدة التي يقوم عليها ذلك المجتمع.

قالت السيدة شيماريا بعد أن تم تقديم الشاي: «ما زلت أذكر عندما كان صبيًّا. كان هو ووالدتك لا يفترقان».

ثم شرعت تحكي كيف التقى والداي لأول مرة في ساحة المعبد، فتبدل الجو العام في الغرفة قليلًا وتوقفت المحادثات الجانبية.

أضافت مدام الطنطاوي قائلة: «كانت فضيحة كبيرة. فتاة يهودية وفتى مسلم، حتى لو كان من آل الراقب».

أومأ البعض برؤوسهم مؤمنين على قولها. وعلى الرغم من ذلك بدا الرأي السائد هو أن ما مضى قد مضى. ما يهم في آخر المطاف هو المحصلة النهائية، أي أن علاقتهما قد أثمرت شابًّا يافعًا مثلي.

واصلت السيدة شيماريا الحديث قائلة: «أذكر عندما عاد والدك من باريس. كان مغرمًا للغاية».

وأضافت السيدة ميفوراخ: «ووالدتك كذلك. كانا صغيرين للغاية...».

قبل أن تنهي الجملة، نهض السيد موصيري من على المائدة ووقف فجأة.

قال وهو يختفي في الردهة: «كدت أنسى. أستميحكم عذرًا».

بعدها بلحظات، كان الحديث قد تحول لجدال حول لقب عائلة جدتي قبل زواجها. عندئذ عاد السيد موصيري ومعه صندوق قديم ممزق، ووضعه على المائدة أمامي.

قال: «هذا هو ما كنت أحدثك عنه. هذا ما أعتقد أنه قد يثير اهتمامك».

كان الصندوق يحتوي على مئات الرسائل -معظمها رسائل بريد جوي بلون أزرق شاحب- وبه كروت فهرسة تحدد السنوات ما بين ١٩٥٨ إلى ١٩٧٦. أخرجت كومة من الرسائل وتصفحتها. كانت كلها بخط يد والدتي الدقيق المائل، وكلها مرسلة لوالدي، أحمد الراقب، معبد بن عزرا، مصر القديمة، القاهرة، مصر. لم ألحظ أبدًا أن والدي كان يهتم بالتفاصيل بصورة مبالغ فيها، لكن فيما عدا جفاف الطبقة الصمغية في المظاريف، فقد كانت الرسائل تبدو وكأنها جديدة تمامًا، وجميعها مرتبة ترتيبًا زمنيًّا مثل جنود صغار من الزمن الماضي.

أوضح السيد موصيري قائلًا: «بعد أن ترك والدك المعبد، وجدت هذا الصندوق في ظهر الخزانة في بيت الحارس. حاولت أن أعيده له أكثر من مرة، لكنه طلب مني أن ألقيه في القمامة. وحيث إنني عاطفي للغاية، فلم أستطع أن ألبي رغبته. لذا وضعت هذا الصندوق في قاع حقيبة ونسيت أمره، حتى الأسبوع الماضي عندما سألتني في غرفة العلية عما إذا كان هناك أي شيء آخر».

خلع السيد موصيري نظارته الطبية ومسح العدسات من الغبار.

«اعتقدت أنك قد ترغب في الحصول عليه».

قلت: «شكرًا».

قرأت بضعة أسطر من الرسالة الأولى، المرسلة من باريس للقاهرة في عام ١٩٥٨. ثم طويتها مرة أخرى حيث كنت أرغب في الاحتفاظ بالصندوق لوقت لاحق ذلك المساء وأنا أجلس متربعًا على الأريكة بغرفة معيشتي لأتمكن من قراءة الحكاية بأكملها مرة واحدة.

* * *

ولدت والدتي، كلوديا شيماريا، في القاهرة في عام ١٩٤٨. كانت الابنة الصغرى في العائلة، وتعلقت بوالدها بصورة كبيرة منذ سن مبكر. وبرغم تحذيرات كل من قالوا بأنه سوف يفسدها، فقد سمح لها أن تتبعه في الحي وهي تسير خلفه من المقهى للمخبز حتى سوق الخضراوات.

المكان الوحيد الذي لم يكن مسموحًا لها بدخوله كان المذبح، حيث عمل رجال أسرة شيماريا لسنوات طويلة. كان الأمر ممنوعًا تمامًا. لذا عندما كان والدها ينتهي من جولاته اليومية ويستعد للتوجه للعمل، فقد كان يأتي بها لساحة معبد بن عزرا حيث يلعب أبناء قائد جوقة الترتيل بالمعبد وأبناء شماس المعبد مع أولاد آل الراقب.

بمرور الوقت، باتت والدتي لا تفترق عن تلك المجموعة الصغيرة. كانت تميل بالذات للابن الأكبر لحارس المعبد، أحمد الراقب، وكان هو يرعاها وكأنها شقيقته. قال باقي الأولاد إنهما يحبان بعضهما، وربما كانا كذلك بالفعل بطريقة طفولية. لكن برغم غرابة صداقتهما فلم يعر أحد الأمر أي اهتمام؛ بسبب صغر سنهما، وأيضًا لأنه كانت هناك مسائل أخرى أكثر أهمية تشغل بال الجميع.

في شهر أكتوبر من عام ١٩٥٦، أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر طرد جميع الأجانب من البلاد. كان القرار يتضمن البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين بالإضافة لآلاف الأسر اليهودية التي لم تعرف لها وطنًا آخر. بدأ الأمر تدريجيًّا ثم تسارعت وتيرته. تم الاستيلاء على المشروعات والقضاء على الحريات المدنية. طُرد المدرسون والأطباء والمهندسون اليهود من أعمالهم. تحولت بعض الأسر عن ديانتها، بينما اختبأ البعض الآخر، واستغل البعض صلاتهم ومعارفهم ليتمكنوا من البقاء عامًا وراء الآخر. لكن الغالبية رحلوا بكل بساطة. بعد أكثر من ألف عام من الحياة على ضفاف النيل، تفرق يهود القاهرة ما بين لندن وباريس وساو باولو وتل أبيب وسان فرانسيسكو.

رحلت أسرة شيماريا مغادرة القاهرة إلى باريس في شهر فبراير، عام ١٩٥٨. كانت والدتي آنذاك في العاشرة من العمر، فلم تفهم النتائج التاريخية والعالمية المترتبة على منفاها. كل ما كانت تعرفه هو أن هناك أشياءً سيئة تحدث في مصر، وأن فرنسا –مهد تلك اللغة التي تعلمتها في المدرسة، ومحل ميلاد أولئك الراهبات القاسيات اللاتي كن يعلمنها الحساب والأدب– ستكون أكثر أمانًا. في اليوم الأخير قبل رحيل أسرتها، زارت صديقها أحمد للمرة الأخيرة. وعدته بمراسلته، ووعدها هو أن يزورها يومًا ما.

ولأن الخدمة البريدية بين القاهرة وباريس لم يكن يعتمد عليها، وحيث إن المرء لم يكن بمقدوره أن يتوقع وصول الرسائل بمواعيد منتظمة، في حال إذا ما وصلت من الأساس، فقد كانت رسائل والدتي

تشبه نوعًا من المذكرات المكتوبة على شكل خطابات؛ مثل خطابات لصديق خيالي من عالم بعيد ومختلف للغاية. بدأت الرسالة الأولى بالكلمات التالية: «عزيزي أحمد، ها أنا أراسلك كما وعدتك. باريس تشبه القاهرة تمامًا، لكنها أكبر كثيرًا. لديَّ مدرسة جديدة، وبيت جديد، وأصدقاء جدد. نحن نتناول الخبز الفرنسي بالمربى كل يوم على الإفطار، ونتناول حساء البصل على الغداء».

خلال تلك السنوات الأولى، كانت رسائل والدتي جافة وسطحية. قدمت وصفًا تفصيليًّا لمنزل عائلتها الجديد، وقائمة بالكتب التي قرأتها، وحكايات مطولة عن الخلافات بين أصدقاء الدراسة. لكن بمرور السنوات وبتحول طور الطفولة لسن المراهقة، بدأت ترسل خطابات أطول وأكثر حميمية؛ صفحات وصفحات من أكثر أفكارها حميمية يكتظ بها مظروف بريد جوي واحد. على الرغم من أنها كانت في الغالب رسائل عذرية، إلا أنها في بعض الأحيان كانت تشارف حدود الرسائل الرومانسية. كتبت في شتاء عام ١٩٦٢: «أنا وحيدة هنا والجو ممطر. أفكر في القاهرة كل يوم تقريبًا، وعندها أفكر فيك أنت أيضًا». أخبرت والدي أكثر من مرة أنه أقرب الأصدقاء إليها. «أنت الشخص الوحيد في العالم الذي يفهمني حقًّا». كتبت هذه العبارة في نهاية رسالة من جزأين في شهر مارس من عام ١٩٦٣. «فقط لو كانت ظروفنا مختلفة. فقط لو...».

عندما تولى والدي مهمة حراسة معبد بن عزرا في عام ١٩٦٥، كان هناك أقل من ألف يهودي في القاهرة، وتعرض من بقي منهم لجو من

العداء المتزايد. استهدف المخربون الأعمال المملوكة لليهود، وتم تشويه المعبد الجديد، شعار هاشامايم، عدة مرات بعد خطابات عبد الناصر النارية عبر الإذاعة. نجا معبد بن عزرا من مثل ذلك التخريب، ربما لأنه كان بالفعل في حالة سيئة وبحاجة للترميم. لكن على الرغم من صعوبة عمله، استمر والدي في أداء مهامه بحرص وتفانٍ مثل والده وجده من قبله.

بعد حرب الستة أيام، عندما كانت المشاعر المعادية لليهود في أقصى درجاتها، حاول شقيقه إقناعه بالاستقالة وبالانضمام إليه في عمله في تجارة الحاصلات الزراعية. لا بد أن والدي كان يعلم أن الطائفة اليهودية لن تتمكن من تحمل تكاليف راتبه كحارس لفترة أطول، إلا أنه رفض عرض عمي حسن لالتزامه نحو يهود القاهرة، وأيضًا كما أحب أن أتخيل لأنه لم يكن يرغب في خيانة ذكرى تلك الطفلة الصغيرة البريئة، كلوديا شيماريا، أو صورة الشابة التي صارت عليها. على الرغم من خطها الطفولي، إلا أنه لم يكن هناك شك أن والدتي لم تعد نفس تلك الطفلة الصغيرة.

امتلأت رسائلها التي تعود لهذه الفترة بالشغف والفضول والشكوك الذاتية، وتقدير الجمال المحيط في العالم حولها، كما كانت تفيض بالأفكار التي تعتنقها حول السياسة والثقافة والفن، والتي بدت متناقضة في بعض الأحيان. كتبت قائلة: «بالأمس رأيت شجرة زيزفون يقطر منها المطر، وفكرت في كل عمال العالم الذين يحملون على كاهلهم عبء التاريخ». بدت في بعض الأحيان وكأنها تكتب الرسائل مخاطبة

نفسها، وكأنها تستغل الخطابات كمذكرات تحاول فيها فهم العالم من حولها ومكانتها فيه. في أحيان أخرى، بدا الأمر كأنه حديث حميمي بين صديقين قدامى، ووالدتي تتحدث نيابة عن الطرفين.

كتبت في خريف عام ١٩٦٦، بعد عيد ميلادها الثامن عشر: «لقد ذكرت أنك تريدني أن أرسل لك صورة؛ كي تستطيع أن تتخيل شكل الشخص الذي يقوم بمراسلتك. أتفهم ذلك، وقد فكرت عدة مرات في أن أطلب منك الشيء ذاته. لكنني أشعر بالتردد حيال تلك الخطوة. لماذا؟ لأن لديَّ صورة لك بالفعل، يا عزيزي أحمد.. في خيالي. قد يبدو الأمر غريبًا، لكن الحقيقة هي أنني أستطيع أن أراك بوضوح تام. أراك من خلال كلماتك، وفي انحناءات حروفك، وفي طيات الصفحة التي تكتب عليها، أفضل مما أراك في أي صورة. رغم أنك قد تفكر عند قراءتك لهذه الكلمات: ربما كان هناك سبب ما يجعلها ترفض أن ترسل صورة؟ هل تخفي شيئًا؟ لا تخش شيئًا أيها الصديق الفضولي. أستطيع أن أؤكد لك أنني جميلة للغاية».

في شهر يونيو من عام ١٩٦٨، بعد فترة صمت غير اعتيادية بلغت شهرين، أرسلت أمي خطابًا مطولًا تصف فيه مشاركتها في الثورة الطلابية في ربيع ذلك العام. سيل من الكلمات المتقدة بالحماسة والمثالية ملأت اثنتي عشرة صفحة من الورق السميك الكريمي اللون. حكت الرسالة عن المحاضرات المرتجلة والمناظرات مع زملاء الدراسة حتى وقت متأخر من الليل، والمناوشات الفكرية، وعن تجربة أثرت عليها بشكل كبير عندما ساعدت في العمل في عيادة مؤقتة للإسعافات الأولية وراء

المتاريس. كتبت تقول: «أتفق معك أن أولئك الذين يفتقرون للخيال لا يمكنهم تخيل ما الذي يفتقرون إليه. أكره ديجول من أعماق قلبي. لكن بعد ما رأيته في ذلك اليوم، لست متأكدة ما إذا كان العنف هو الحل». بالإضافة إلى ما حكته عن الثورة، أشارت رسالتها أيضًا لتغيير شخصي عميق. كتبت تقول: «أرى العالم الآن بأعين جديدة. جميعنا متصلون ببعضنا البعض. أرى ذلك بوضوح تام. والحب أقوى من أي شيء آخر. مهما حاولوا أن يسلبونا إياه، فلا يمكن تحطيم كل الاحتمالات الكامنة في علاقة بين شخصين». لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما تقصده بكلامها هذا. ربما كان مجرد غموض كوني، أو ربما كانت تحاول التلميح لعلاقة ما بينها وبين أحد زملائها من الثوريين. وربما كانت تحاول التعبير عن مشاعرها المتشابكة نحو والدي. بصرف النظر عن كل هذا، بدت الرسالة وكأنها نقطة تحول؛ النفس الأخير لشغف فترة المراهقة، قبل أن تنتقل لمرحلة النضج.

في السنوات التالية، حلَّ النضح والوعي بالذات محل الرومانسية الطائشة لسنوات مراهقتها. أرسلت خطابًا كل شهر، لتطلع والدي على أخبار دراستها وعلى نجاح مشروع شقيقها الخاص بتعبئة اللحوم الحلال طبقًا للعقيدة اليهودية، وعملها كسكرتيرة في مكتب محاماة صغير، وعن تفكيرها في دراسة الدكتوراه في الأدب الفرنسي. عندما شرعت تفكر في المستقبل، اتخذ خيالها طابعًا أكثر عملية. كتبت وصفًا مطولًا تحكي فيه تفاصيل الحياة التي تتخيلها لنفسها؛ أين تريد أن تحيا وعدد الأطفال الذين ترغب في إنجابهم وما إلى ذلك. على الرغم من

حرصها الدائم على إبقاء الباب مفتوحًا أمام احتمال وجود والدي في مستقبلها ذاك، إلا أن وعيها بالصعوبات المحتملة لمثل ذلك اللقاء بدا متزايدًا. كتبت في مارس عام ١٩٧١: «لو كانت كل هذه الأحلام زائدة عن الحد، ولو أردتني في أي وقت من الأوقات أن أصمت وأستمر في حياتي وأتوقف عن مشاركة كل هذه الخيالات المجنونة، فأرجو أن تخبرني بذلك؛ لأن كلينا يعلم مدى صعوبة الأمر -مع والداي ووالداك، ومع الجميع- وآخر شيء أريده هو أن أراك وأنت تتألم».

في خريف عام ١٩٧٣، وبعد ثلاثة أسابيع من بداية الفصل الدراسي الأول لوالدتي كطالبة دكتوراه، اندلعت حرب يوم كيبور. بعد نهاية الحرب بأسبوع، أرسلت رسالة قصيرة وغامضة نوعًا ما لوالدي على عنوان عمي حسن في المعادي. كتبت تقول: «عزيزي أحمد، أتمنى أن تعرف كم أهتم لأمرك، وكم أشعر بالإعجاب لتفانيك في عملك. أعتقد أن هذا أمر مفروغ منه، لكن يجب أن أقوله بعد ذلك الأسبوع الذي عانيت منه ولا شك. يجب أن تعرف أيضًا أنني لست وحدي من يشعر بهذا. أنت رجل طيب يا أحمد. ومهما قال أي شخص، فليس لديك أي سبب يدعوك للشعور بالخجل. لقد فعلت الشيء الوحيد الذي كان بوسعك أن تفعله. وأنا عن نفسي، أعتقد أنك تصرفت بصورة بطولية». استمرت الرسالة على نفس هذا المنوال لبضعة أسطر أخرى، وفي الختام، اقترحت أن يأتي لزيارتها في باريس.

عندما بدأت في قراءة تلك الرسالة، شعرت بالترقُّب في أعماقي، حيث إن نقطة التحول كانت هنا، وهنا جوهر المسألة. كنت أعرف

ما حدث لاحقًا، وعلى الرغم من ذلك، شعرت بالاضطراب في هذه اللحظة. فردت الرسالة على الطاولة أمامي، وحاولت تخيل والدتي وهي تجلس في أحد المقاهي أو في المكتبة في الجامعة، وحاولت تخيل ما الذي كانت تفكر فيه وهي تفرد الورقة الزرقاء الخفيفة وتشرع في الكتابة لصديق طفولتها، ذلك الخفي الحاضر دومًا والذي كان بمثابة حلقة الوصل الوحيدة الباقية مع المدينة التي شهدت مولدها. كانت في الخامسة والعشرين من العمر آنذاك، في الفصل الدراسي الأول من دراساتها العليا، وما زالت تحيا مع والديها. كانت تجهل تمامًا كيف ستغير هذه الرسالة مجرى حياتها بشكل جذري. هل فكرت في والدي صباح ذلك اليوم وهي تستقل المترو؟ هل كانت قد شرعت في التفكير في الكلمات التي سوف تنتقيها لمواساته، وهل قررت أن تدعوه للزيارة؟ أم هل صبت مشاعرها على الورقة وأغلقت المظروف قبل أن تعيد التفكير؟ من عساه يدري ما الذي كانت تقصده بعرضها ذاك؟ بطريقة ما، لم يعد الأمر يهم. حيث إن والدي استقل الباخرة بعدها بأسبوعين في طريقه إلى مرسيليا.

لا يوجد ذكر للرحلة سوى في وقت لاحق، لكن يبدو أنها سارت بشكل جيد. عندما عاد والدي من باريس، كانت هناك رسالة في انتظاره في شقة عمي حسن. كتبت والدتي تقول: «عزيزي أحمد، لا أتمنى شيئًا أكثر من أن أكون معك الآن هناك، وأن أرحب بك عند وصولك، وأقضي الليل بين ذراعيك. لكن للوقت الحالي سنضطر لأن تحل هذه الرسالة محلي؛ هذه الرسالة، والذكريات سريعة الزوال للوقت الذي

قضيناه معًا، والأمل أن نلتقي قريبًا مرة أخرى». بعدها بيومين، أرسلت خطابًا أطول تحكي فيه بعض تفاصيل رحلتهما -فيلم شاهداه في منتصف اليوم، وكريب تناولاه معًا في الحديقة، وعطلة غير مخطط لها في نهاية الأسبوع قضياها في وادي اللوار- وتفكر في رد فعلها لشيء ما قاله والدي في اليوم الأخير الذي قضياه معًا. كتبت تقول: «لا أدري لما أثار الأمر استيائي لهذا الحد، فأنا لست متدينة على الإطلاق، ولا أدري إن كنت حتى أؤمن بوجود إله. على الرغم من ذلك، لا أعتقد أنني يمكنني أبدًا أن أتحول لديانة أخرى، حتى لو كان المانع فقط هو أنني أعلم لأي حد سوف يثير ذلك الأمر استياء والداي». بعدها بأربعة أيام أرسلت خطابًا ثانيًا تذكر فيه كم اشتاقت إليه، ثم تلته بخطاب آخر بعد أسبوع.

استمرت الرسائل هكذا لأربعة أشهر، ثم تغير شيء ما. في مارس عام ١٩٧٤، كتبت رسالة طويلة مليئة بالتأملات، ملأت فيها ثلاث صفحات بأفكارها حول التاريخ والثقافة والماضي والمستقبل، ونظرية ابن خلدون عن الحضارة، ونظرية ليفيناس حول مواجهة الآخر. قالت له: «أريد الهروب من أغلال العالم القديم. أريد حياة أفضل لي ولعائلتي. وأكثر من أي شيء آخر، أريد أن نكون معًا. أريد أن أعيش تلك الحياة معك. لكن عزيزي أحمد، يا صديقي الطيب، فإنني في الحقيقة لا أعرف كيف يمكن أن يتحقق هذا. أتمنى لو كان ممكنًا وسهلًا لهذا الحد، لكن مع عائلتي وعائلتك، لا أدري كيف ستنجح الأمور». في نهاية الرسالة، ذكرت بعض الصعوبات التي تواجهها مع والديها، وطلبت منه أن يرسل

جميع خطاباته في المستقبل إلى مكتبها في الجامعة. لكنها أغفلت ذكر أهم خبر على الإطلاق -وفي الغالب سبب مشاكلها مع والديها- فقد كانت حاملًا في الشهر الرابع بطفله هو.

كان إغفالها لذكر تلك المعلومة لافتًا للنظر، لكن يمكن للمرء أن يتخيل مدى صعوبة تلك الفترة بالنسبة لها. فبالتأكيد لم يشعر والداها بالسعادة، خاصة عندما اكتشفا شخصية الأب الذي لم يكن فقط مسلمًا، بل كان أيضًا مجرد حارس بسيط. أعتقد أنهم قد ناقشوا كل الخيارات المتاحة. ففي ذلك الوقت، لم يكن الإجهاض قانونيًّا في فرنسا، لكن لم يكن من الصعب السفر للخارج أو العثور على عيادة سرية ما في باريس. كانت هناك أيضًا طرق متاحة لتدبير إجراءات لعملية التبني في السر بحيث تسافر لسويسرا لبضعة أشهر قبل أن تعود وكأن شيئًا لم يحدث. أيًّا كانت طبيعة النقاشات التي خاضوها -الصحون المحطمة، والحوارات الصريحة، والمكالمات الهاتفية الهامسة مع أصدقاء الأسرة الذين لهم معارف مفيدون- فقد احتفظت والدتي بكل ذلك لنفسها. وفي نهاية المطاف، اتخذت قرارها منفردة.

أرسلت خطابها التالي بعدها بثمان أشهر، من كولفر سيتي بكاليفورنيا. كتبت: «أنا أحيا في لوس أنجلوس الآن. تركت دراستي للدكتوراه، وأقوم بتدريس اللغة الفرنسية في الجامعة هنا. السبب الذي دعاني للكتابة إليك هو كي أخبرك أن لديك ابنًا. اسمه يوسف وعمره ثلاثة أشهر. أعتذر لأنني لم أخبرك في وقت سابق، وأستطيع أن أتفهم

لو كنت تشعر بالغضب لأنني أخفيت عنك هذا الخبر. كانت الأمور في غاية الصعوبة. مرات كثيرة شعرت فيها بالرغبة في الكتابة إليك، وإخبارك بكل شيء. مرات كثيرة تخيلتني فيها وأنا أركب الطائرة المتوجهة للقاهرة، وأستقل سيارة أجرة حتى شقتك، وألقي نفسي بين ذراعيك. لكنني كنت أعلم أن عليَّ اتخاذ هذا القرار بمفردي».

خلال فترة الأشهر الثمانية التالية، كانت رسائلها تتسم بالرقة والحميمية، وتملؤها تفاصيل نموي ووصف حياتنا في لوس أنجلوس. «له نفس ابتسامتك»، كتبتها قبل بلوغي الشهر السادس من العمر ببضعة أسابيع. «وعندما يضحك يتجعد أنفه مثلك تمامًا». مع الوقت بدا أنها تتقبل أكثر فأكثر فكرة تكوينهما أسرة معًا. كتبت تقول: «سوف تحب المكان هنا. الجو دومًا دافئ، ولن تكون بعيدًا عن المحيط أبدًا». في يوليو عام ١٩٧٥، أرسلت والدتي بطاقة بريدية عليها صورة رصيف ميناء سانتا مونيكا، وكتبت عليها «أتمنى لو كنت هنا». وبعد أقل من شهر، كان هناك بالفعل.

رسالتها التالية كان عليها ختم بريدي بتاريخ نهاية سبتمبر، عام ١٩٧٥. كانت عبارة عن تأملات مطولة حول الزيارة التي لم تكن ناجحة على ما يبدو. كتبت تقول: «أنا سعيدة أنك قد أتيت، حقًّا سعيدة؛ لأنني أردتك أن ترى يوسف، ولأن زيارتك تلك ساعدتني كي أتبين ما كنت أعرفه لفترة طويلة، لكنني لم أتمكن من الاعتراف لنفسي به، ألا وهو أن الأمور لن تنجح أبدًا بيننا. كلامي هذا لا علاقة له بشجارنا على الشاطئ، ولا بخلافاتك مع مالك البيت الذي أقيم به. وليس أيضًا

بسبب إنني لا أحبك، فأنا أحبك بالفعل. وليس بسبب اعتقادي أنك لن تكون أبًا جيدًا، فأنا أؤمن أنك ستكون أبًا رائعًا. لكننا مختلفان للغاية يا أحمد. على الرغم من أنني أهتم لأمرك كثيرًا، فالحقيقة هي أن الحياة فرقت بين سبلنا، وأعتقد أنه من الأفضل الاعتراف بذلك الآن، لا في وقت لاحق».

بعد هذا، توقفت رسائل أمي المكتوبة على الأوراق الزرقاء الباهتة، لتحل محلها كومة من الرسائل من والدي كانت كلها لا تزال مغلقة. قطعت المسافة عبر نصف الكرة الأرضية من القاهرة إلى لوس أنجلوس، حتى تعود في نهاية المطاف إلى القاهرة دون أن يقرأها أحد. وبعد خمس وعشرين عامًا، كانت لا تزال لم تفتح بعد. بينما أنا أقرأها، وأفتح المظاريف بحافة ظفر إبهامي، شعرت وكأن والدي يخاطبني بصورة مباشرة. وبطريقة ما فقد كان كذلك بالفعل.

بدأت كرسائل حب، مليئة بالوعود والأحلام. كتب في أكتوبر ١٩٧٥: «أنت نور حياتي، وأقرب صديقة لي، ووالدة ابني. ومن المقدر لنا أن نكون معًا». لكن بمرور الأشهر بدأت نبرة رسائله تزداد يأسًا. كتب في عيد ميلادي الثاني: «يجب أن نكون أسرة واحدة، فوجود أسرة أفضل للجميع. الابن يحتاج لأبيه، لكن الأب أيضًا بحاجة إلى ابنه». عندها كان والدي قد ترك عمله في المعبد وصار يعمل في شركة عمي حسن لتجارة الحاصلات الزراعية، وبدأ يكوّن لنفسه حياة جديدة. على الرغم من ذلك كتب يقول: «سوف أترك كل هذا كي أكون معك أنت ويوسف في لوس أنجلوس أو باريس أو أي مكان تشائينه».

أرسلت له والدتي بانتظام رسالة في أول كل شهر بها صورة لي وأخبار عن تطورات نشأتي. حكت له تفاصيل حول حياتها واقترحت إمكانية قيامه بزيارة أخرى كي يرى بنفسه إلى أي حد كبرت. لكنها كانت تعيد كل رسائله الغرامية دون أن تفتحها. بدا الأمر وكأنها كانت تخشى رد فعلها، وكأنها كانت لا تزال تحارب جزءًا منها يرغب في البقاء معه. أيًّا كان السبب وراء عدم ردها على تلك الرسائل، فقد ظل والدي يكتب رسائله للعدم، مرتين كل شهر لأكثر من عام كامل. استمرت رسائله على نفس ذلك المنوال العنيد والمليء بالوحدة، من القاهرة إلى لوس أنجلوس ثم القاهرة مرة أخرى، حتى فبراير من عام ١٩٧٧ عندما أرسلت والدتي رسالة قصيرة تخبره فيها أنها قد تمت خطبتها. في نهاية تلك الرسالة التي كانت الأخيرة في الصندوق، أخبرته أنها تنتوي زيارة والديها في باريس الربيع القادم مع خطيبها، بيل. كتبت تقول: «ستكون فرصة جيدة كي ترى يوسف».

على الرغم من أن الزيارة وقعت قبل أكثر من عشرين عامًا مضت، إلا أنني ما زلت أتذكر بعض لحظاتها: رائحة شقة جديّ الرطبة، والدرج الرخامي الأبيض خارج عمارتهما، وزيارة حديقة الحيوان في يوم ممطر. كانت هناك بعض الصور أيضًا؛ ألبوم من الصور التي زاد تعرضها للضوء احتفظت به والدتي في ظهر خزانتها. كانت معظمها صورًا لي وأنا أرتدي أفرولًا من قماش بني مضلع وقميصًا بأكمام طويلة مخططًا بالأحمر، بينما أساعد جدتي في إطفاء الشموع على كعكة عيد ميلادها. لكن والدي كان موجودًا أيضًا، يجلس مبتسمًا على الأريكة،

أو يجلس معي على الأرض ونحن نلعب بلعبة على شكل شاحنة من البلاستيك الأزرق.

حتى من دون الصور، كنت أستطيع رؤية وجهه، بحاجبيه وشاربه المتدلي. ومن خطوط ابتسامته المرتسمة، حاولت أن أتخيل شعوره وهو يرى والدتي مع خطيبها الجديد، بينما يجلس معنا في غرفة المعيشة بشقة جدي وهو يعلم أن رحلته ستنتهي بعد بضعة أسابيع، وأن كلًّا منا سيعود لمنزله وكأن شيئًا من كل هذا لم يكن.

* * *

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي -بعد أن نمت على الأريكة- بحثت في الصندوق ثانية، ووجدت الرسالة التي كتبتها والدتي بعد أن زارها والدي في لوس أنجلوس؛ تلك الرسالة التي وضعت حدًّا لعلاقتهما بصورة نهائية. قالت له: «على الرغم من أنني أهتم لأمرك كثيرًا، فالحقيقة هي أن الحياة فرقت بين سبلنا وأعتقد أنه من الأفضل الاعتراف بذلك الآن، لا في وقت لاحق».

قالت والدتي عندما اتصلت بها هاتفيًّا عصر ذلك اليوم: «كان ذلك منذ زمن طويل مضى. أذكر زيارته، أما الرسالة... ».

توقفت عن الحديث بينما حملقت أنا في صفحة الرسالة شبه الشفافة على الطاولة أمامي، وفي خط يد والدتي المنمق الممتد من جانب الصفحة حتى الجانب الآخر. لطالما واجهت صعوبة في رؤية الأمور من منظورها هي، وفي رؤيتها على أي صورة أخرى بخلاف كونها والدتي، لكن بعد قراءة رسائلها، بدأت أدرك طبيعة الوضع،

لكونها قد اقتلعت من جذورها في سن مبكر ثم اضطرارها بعد ستة عشر عامًا لترك أصدقائها وأسرتها والبدء ثانية من جديد في بلد جديد.

قلت لأحضها على الحديث، بينما أطالع كلماتها التي خطتها: «لقد قلت إنه شيء كنت تعرفينه منذ فترة طويلة. لكنك لم تتمكني من الاعتراف به لنفسك».

كنت قد اتصلت لأسألها عن نهاية علاقتهما، وعن رحلة والدي للوس أنجلوس، وما الذي حدث ليجعلها تؤمن أن علاقتهما لن تنجح. لكن بينما أنا أستمع إليها وهي تحاول شرح ما الذي كان يدور في عقلها منذ خمس وعشرين عامًا مضت، ظللت أنظر لتلك الرسالة الأخرى الراقدة على حافة طاولتي، والتي دعت فيها والدي لزيارتها في باريس. كان ذلك هو لب الموضوع، ونقطة ارتكاز الحكاية. وربما كان الأهم من الرسالة ذاتها هو الدافع وراء كتابتها، أي الحادث المخزي الذي دعا والدي لترك عمله كحارس للمعبد. فلو لم يترك المعبد، لما دعته والدتي لزيارتها، ولو لم تقم بدعوته، لما ولدت أنا.

قالت والدتي عندما سألتها إذا ما كانت تتذكر السبب الذي دفع والدي لترك المعبد: «كان ذلك منذ زمن طويل مضى. ولم يكن والدك في الحقيقة من النوع الذي يتحدث عن مشاكله».

«لم تعد رسائله بحوزتك، أليس كذلك؟».

قالت: «أشك في ذلك». سمعتها تقلب في كومة من الأوراق على مكتبها، وكأنها تعتقد أنها قد تجد الرسائل هناك، دفينة تحت طبقة من الفواتير. «لا أعتقد أنني جلبتها معي إلى سانتا في».

توقفت عن الحديث بحيث سمعت نباح كلبهما في الخلفية.

قلت: «حسنًا». لكن بقي أمر لم أتمكن من فهمه. «لماذا أعدت رسائله؟ تلك التي أرسلها بعد أن زارك في كاليفورنيا؟».

قالت: «كنت أعلم أن الأمور لن تنجح بيننا. أيًّا كانت أسبابي آنذاك، فقد كنت متيقنة من ذلك. وكان هو فاتنًا للغاية، أعتقد أنني كنت أخشى لو قرأت أيًّا من رسائله...».

توقفت عن الحديث ثانية، وساد الصمت بيننا لفترة، بينما ذكراه تتأرجح على الخط بيننا، وهي تتخيل ذلك العالم الموازي الذي سمحت لنفسها فيه أن تفتتن بكلماته.

* * *

في يوم الأحد، عندما سألت عمي حسن إذا كان يتذكر السبب الذي دعا والدي لترك عمله في المعبد، حك كفه على مسند كرسيه المفضل ونظر لي بعين نصف مغلقة، وكأنه يحاول تحديد جودة ثمرة من الطماطم المشكوك في أمرها. زرتهم في شقتهم كل أحد خلال الشهر الماضي، لكن فيما عدا تلك الزيارة الأولى، كنا في الغالب نتفادى الحديث عن والدي. تحدثنا عن عمل عمي حسن وعن الانتخابات الأمريكية التي كانت على الأبواب، وعن مبارك والاحتجاجات في الضفة الغربية. لكن على ما يبدو فقد اتفقنا جميعًا على ألا نثير ذكرى والدي.

«كان ذلك هو سبب شعوره البالغ بالخزي». قالها عمي حسن أخيرًا وهو ينظر في قاع كوب الشاي الفارغ وقد تجهمت ملامحه. «شعور بالغ بالخزي».

رفع رأسه لينظر إليَّ ويرى ما إذا كان جوابه هذا كافيًا، لكنه كان يعلم أنه غير كاف.

قالت عمتي بسيمة وهي تعيد ملء كوب زوجها: «يجب أن يعرف».

أضافت عائشة قائلة: «من حقه أن يعرف».

اعترف عمي حسن: «أجل، أعتقد أن ذلك من حقه».

نظر إليَّ وهو ينفخ في كوب الشاي.

«كان ذلك سبب شعوره بالخزي البالغ». كرر قوله: «خزي شديد للغاية. لكن ابنة عمك على حق. فمن حق الابن أن يعرف أسباب فخر والده بالإضافة إلى خزيه».

وهكذا بدأ عمي حسن حكايته.

في تلك الساعات الأولى المليئة بالفوضى من حرب يوم كيبور، وبينما القوات المصرية تعبر قناة السويس والدبابات السورية تجتاح مرتفعات الجولان، كان والدي في مكان عمله في ساحة المعبد. لم يكن هناك أي شيء خارج المألوف حتى وقت متأخر من الصباح عندما سمع جلبة في الشارع المجاور لقاعة الصلاة الرئيسة. عبر البوابة، رأى شرطيين بملابس مدنية وحوالي دستة من الرجال من أهل الحي الذين ارتسم عليهم الغضب. قال الضابطان إن لديهما أسبابًا تجعلهما يشكان في أن اليهود يخفون السلاح في المعبد، وأنهم ينتوون مهاجمة نقطة الشرطة المجاورة. حاول والدي إقناع الضابطين أن هذه مجرد شائعات. وأخبرهما أنه في الواقع يوم عيد لدى اليهود، وأنهم جميعًا يصلون في

المعبد الآخر في وسط البلد. على الرغم من ذلك، أصر الضابطان على تفتيش المكان. قالا إنه في حال رفض والدي التعاون معهما، فسوف يقتحمان المكان ويلقيان القبض عليه.

فتح والدي البوابة، حيث إنه لم يرغب في المجازفة بسلامته الشخصية مما سيعني ترك المكان دون حراسة في مثل هذا التوقيت الحرج. رافق الضابطين أثناء قيامهما بالتفتيش، وهو يجيب أسئلتهما حول الأشياء المختلفة المتعلقة بشعائر المكان. ظل مصرًّا طوال الوقت أنه مهما حدث بين إسرائيل ومصر، فإن يهود القاهرة هم مواطنون مصريون مخلصون ولا يريدون سوى العيش في سلام. لحوالي ساعة ظل والدي يتتبع الضابطين ويفتح لهما الأبواب ويتأكد أنهما لم يقوما بتخريب أو سرقة أي شيء. بعد تفتيش الساحة وقاعة الصلاة والحمامات الخاصة بالاستحمام التعبدي، طلبا رؤية غرفة العلية.

أخبرهما والدي أنها خالية ومظلمة ويصعب الوصول إليها، لكن الضابطين أصرا. لذا رفع السلم المترب على مضض وأسنده على حافة المدخل. صعد ثلاثتهم وأضاء الضابطان الغرفة بكشافيهما. قلبا دلوًا معدنيًّا قديمًا، ونظرا داخل صندوق خشبي مليء بزجاجات الكلور. لكن فيما عدا أدوات التنظيف هذه وبعض المصابيح المحطمة، بدت الغرفة خالية.

بينما هما على وشك الرحيل، لاحظ أصغر الضابطين سنًّا شقًّا في الألواح الخشبية للجدار، فركع ليتفحصه عن كثب. اتضح أن اللوح الخشبي هو باب كوة سرية اختبأت بداخلها لفافة توراة قديمة. برغم

احتجاج والدي، أخرج الضابطان لفافة عزرا وأصرا على اصطحابها لقسم الشرطة للمزيد من الفحص. بينما هما يحملانها خارج غرفة العلية حتى ساحة المعبد، ظل والدي يحاول التفاهم معهما وإقناعهما أنها مجرد كتاب؛ كتاب مقدس قديم لا يجب إخراجه من المعبد تحت أي ظرف من الظروف. لكنهما رفضا الاستماع إليه.

في محاولة أخيرة لإيقافهما، حاول والدي منعهما من الخروج بأن وقف أمام بوابة المعبد عاقدًا ذراعيه أمام صدره. طلبا منه أن ينتحي جانبًا، وعندما رفض أوقعه أكبر الضابطين حجمًا بلكمة واحدة. بينما هما يغادران، بصقا على الأرض جوار رأسه.

اختتم عمي حسن الحكاية قائلًا: «لم يكن ذنبه. ماذا كان بوسعه أن يفعله غير ذلك؟ لا شيء. لم يكن هناك شيء آخر ليفعله. على الرغم من ذلك، فلم يستطع أن يسامح نفسه أبدًا».

لام والدي نفسه؛ لأنه فتح البوابة ولم يقاوم بشدة أكبر، ولأنه سمح للضابطين بتدنيس شرف المعبد وسرقة أعز ممتلكاته. في اليوم التالي لانتهاء الحرب، قدم استقالته من عمله. قُبلت الاستقالة؛ لأنه لم يعد هناك من المال ما يكفي لدفع راتبه، ولأنه كان هناك العديد من أفراد الطائفة اليهودية الذين لاموه على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء آخر يمكنه فعله. بعدها بعدة أسابيع، بينما هو يشعر بالاضطراب ولا يدري ماذا يفعل بالتحديد، استقل سفينة متوجهًا إلى فرنسا.

كرر عمي حسن قائلًا: «لم يستطع أبدًا أن يسامح نفسه. ظل يشعر بالاكتئاب لسنوات طويلة».

«ولفافة عزرا؟» سألته وأنا أتذكر تلك القصاصة من الصحيفة التي وجدتها في غرفة والدي، وعلامة الاستفهام الصغيرة بجوار لفافة التوراة التي يمسك بها السيد موصيري.

«لفافة عزرا؟».

سوى عمي حسن أطراف شاربه وهو يهز رأسه ببطء.

«لم يرها أحد بعدها ثانية».

* * *

- ١٢ -

في طفولتهما، لم يكن من الغريب أن تستيقظ الشقيقتان وسط الظلام بينما ينتابهما ذلك الشعور الغريب بالازدواجية وهناك صورة عالقة في عقليهما لحصان أو سفينة أو رجل له أنف قبيح، لكن مارجريت وأجنيس لم تتشاركا في حلم لحوالي ثلاثة عقود. لذا بدا الأمر طفوليًّا وغريبًا إلى حد ما وهما تنظران لبعضهما في الضوء غير المألوف لغرفة الفندق للتأكد مما كانتا تعرفانه بالفعل. كان من الطبيعي أن تتشاركا في الأفكار، فقد كانتا توأمًا. فعندما تتوافر لهما نفس المعلومات كان من الطبيعي أن تتوصلا أحيانًا لنفس النتائج. لكن كيف يمكن للمرء أن يفسر تشاركهما في ذات الحلم؟

«ما زلت أشم رائحة الغبار».

غمغمت مارجريت موافقة. فقد كانت تشم الرائحة هي أيضًا، وترى مقبرة الأوراق والكتب، وتلك العاصفة من الأرواح الصاعدة للسماء وكأنه يوم الحساب. لم يكن كابوسًا، لكن على الرغم من ذلك بقي الحلم عالقًا في ذهنيهما برائحة الغبار وكل تلك الأرواح الهشة وهي تدور في دوامة.

سألت أجنيس بينما هما تقومان بتمارين الصباح: «ماذا يعني ذلك الحلم في اعتقادك؟».

«ربما له علاقة بالاجتماع الذي رتبنا له».

«أجل...» ابتسمت أجنيس وهي تنحني للأمام. «وسيتم الإفراج عنا جميعًا كي نخرج من جحيم هيئة الجمارك».

في مساء اليوم السابق بينما هما تستعدان للنوم، وصلت للشقيقتين رسالة من الآنسة دو ويت. كتبت تخبرهما أن عمها أرسل برقية يخبرهما فيها أن القنصل العام سوف يسعده أن يلتقي بهما في العاشرة من صباح اليوم التالي لو كان ذلك ملائمًا لهما. لم تصدق أيٌّ منهما الفتاة عندما أخبرتهما أن عمها قد يتمكن من تدبير اجتماع مع اللورد كرومر. على الرغم من ذلك، فقد كانتا في غاية السعادة عندما ثبت لهما خطأهما.

بعد أن تم تحديد موعد الاجتماع، كانتا على يقين أنه لن يكون من الصعب إقناع القنصل العام بالأهمية الكبيرة لوثائق الجنيزة. ففي قلب كل مسؤول إداري في الحكومة الاستعمارية يقبع تلميذ مدرسي منبهر بغموض الشرق. وبعد أن تتمكنا من إقناعه بأهمية وثائق الجنيزة، سيكون بمقدور اللورد كرومر تحريرهما من روتين هيئة الجمارك المصرية بإشارة من إصبعه. سيتم الإفراج عن الوثائق، دون الحاجة للاعتماد على السيد بيخو ومعارفه البغيضين.

قالت مارجريت متعجبة وهي تغلق الأزرار في ظهر ثوب شقيقتها: «تلك الفتاة أمرها غريب للغاية».

وافقتها أجنيس وهي تتقدمها نزولًا على الدرج في طريقهما لردهة الاستقبال بالفندق: «أجل، لست متأكدة من أمرها».

عندما جلستا لتناول الإفطار، كانت غرفة الطعام تضج بالسياح والحجاج. كان معظم نزلاء فندقهما بريطانيين –فقد كان اسمه فندق أنجلوتير– مع بعض الألمان والسلاف بالإضافة لمجموعة من القساوسة من اليونان الأرثوذكس الذين كانوا في طريقهم لسيناء. تعرف بعض البريطانيين الذين كانوا يتناولون إفطارهم على مارجريت وأجنيس بوصفهما من مواطني بلدهم، وتبادلوا الابتسامات كدليل على أصولهم المشتركة. رسمت الشقيقتان على وجهيهما ابتسامتين صغيرتين مما مكنهما من الحفاظ على خصوصية طاولتهما دون أن تبدو عليهما الفظاظة.

قالت مارجريت عندما دقت الساعة معلنة الوقت: «الساعة التاسعة». فقامت الشقيقتان معًا لركوب عربتهما.

على الرغم من أن الاجتماع كان في العاشرة، فقد طلبت مارجريت من العربة الحضور في الساعة التاسعة. كانت تعلم أن المرء عليه أن يمنح سكان هذه البلاد وقتًا إضافيًّا على سبيل الاحتياط لو كان يرغب في الحفاظ على مواعيده. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هي وشقيقتها بالطبع تشعران بالحماس. لم يكن اللورد كرومر يلتقي كل من هب ودب، فقد كان منشغلًا بإدارة البلاد بمفرده تقريبًا، وكانتا تقدران ذلك الوقت الذي اقتطعه لهما.

قالت أجنيس بينما هما تستقلان العربة التي كانت في انتظارهما

خارج فندقهما: «محل سكن القنصل العام البريطاني».

أضافت مارجريت قائلة: «٣٠ شارع المغربي».

فقد بحثت عن العنوان في الدليل الذي كان بحوزتها في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، حتى لا تكونا تحت رحمة سائق العربة.

سأل السائق بتردد: «٣٠ شارع المغربي؟».

ردت مارجريت بحدة: «أجل. ذلك هو ما قلته».

قادهما السائق عبر شارع العباسية ثم الطرف الشمالي للمدينة القديمة، وبعد ربع ساعة توقفت العربة أمام مبنى فخم يبدو عليه أنه آيل للسقوط في شارع المغربي، وكان من الواضح أنه ليس محل سكن أقوى رجل في مصر. غطت واجهة المبنى طبقات من الأتربة، بينما كانت هناك نافذتان في الطابق الثالث مغلقتان بالألواح الخشبية.

قال السائق وهو يشير بيده دون حماس: «٣٠ شارع المغربي».

قالت أجنيس: «لا أعرف أين اصطحبتنا، لكن هذا بالتأكيد ليس محل سكن القنصل العام البريطاني».

نزل السائق من مقعده وهو يغمغم لنفسه بكلمات غير مفهومة وتوجه ناحية بواب العمارة.

عند عودته، قال: «لقد انتقل اللورد للإقامة في مكان آخر».

«هل تعلم أين يقيم الآن؟»

قال: «أجل، في جاردن سيتي بجوار مستشفى القصر العيني».

«كم يستغرق الوصول هناك؟».

«ليس الكثير من الوقت».

قالت مارجريت: «حسنًا إذَنْ، علينا الذهاب الآن».

بينما هما في طريق العودة عبر شارع العباسية تجاه النيل، شعرت كل من أجنيس ومارجريت بالقلق من التأخر على الاجتماع. ومما زاد الأمر سوءًا أن اللوم كان يقع عليهما وليس على أي شخص آخر. التزمتا الصمت وهما تراقبان المدينة في مرورهما، حتى انعطفت العربة من شارع القصر العيني وتوقفت أمام سكن القنصل العام. كان مبنى من الرخام الأبيض اللامع تملؤه الأعمدة وله حديقة زاهية الخضرة أكثر من أي حديقة أخرى شاهدتاها منذ شهور.

قالت أجنيس للشابين الأنيقين اللذين وقفا لحراسة البوابة: «نحن هنا من أجل اجتماع مع اللورد كرومر».

أضافت مارجريت وقد توقعت سؤالهما: «السيدة لويس والسيدة جيبسون».

قال الحارس الأطول بعد أن تأكد من تفاصيل الاجتماع في السجل الذي بحوزته: «أتمنى ألا تمانعا السير لمسافة قصيرة. لأسباب أمنية، هناك حظر لدخول عربات السكان المحليين إلى المدخل».

«بالطبع».

كانتا تعلمان أن هذه البقعة الصغيرة من الأرض تعد من الناحية القانونية تحت سيادة الملكة، لكن لم تتوقع أي من أجنيس أو مارجريت

أن تشعرا أنهما في وطنهما لهذا الحد. كان شعورًا غريبًا، ففي جو مصر القاسي بحرارته ورطوبته وعلى مسافة تقل عن مائة ياردة من شاطئ النيل، تمكن اللورد كرومر بصورة مثالية من خلق جو بيت في الريف الإنجليزي. كانت الحديقة منظمة وأنيقة، وتصطف على جوانبها أشجار الحور والشجيرات المقلمة بعناية. في نهاية الممر المؤدي للمدخل، أسلمهما الحارس لخادم قادهما عبر ردهة المدخل حتى السلم الرئيس ومنه لغرفة مكتب صغيرة بدت مثل مكتب أستاذ في كامبريدج. طلب منهما الخادم الجلوس، فجلستا، إلا أن القنصل العام دخل بعدها بلحظة عبر باب داخلي فوقفتا لتحيته.

قال: «السيدة لويس والسيدة جيبسون، أنا سعيد بلقائكما أخيرًا».

كان رجلًا وسيمًا بدرجة أكبر مما تظهره عليه صوره في الصحف، بعينين زرقاوين مفعمتين بالحيوية، وشارب أبيض عريض، وكرش بحجم بطن امرأة حامل في شهرها السادس.

«نحن أسعد».

أشار لهما بالجلوس، بينما جلس هو في كرسيه خلف مكتبه واضعًا ساقًا فوق الأخرى.

«كيف تفضلان تناول الشاي؟».

قالت مارجريت: «كمية قليلة من الكريمة ومن دون سكر».

أومأت أجنيس موافقة بينما دخل خادم آخر الغرفة وطلب منه

اللورد كرومر إحضار ثلاثة فناجين من الشاي بكمية قليلة من الكريمة ومن دون سكر.

قال: «لقد طلبت صندوقًا من شاي دارجيلنج الأسبوع الماضي، من شركة تايلورز هاروجيت. إنه يعد نوعًا من الرفاهية، لكنني واثق أنكما ستتفقان معي أنه رفاهية هامة بسبب انخفاض جودة الشاي المتوفر في مصر».

اتفقت الشقيقتان معه بشدة على أهمية مثل تلك الرفاهية، وعلى رداءة أنواع الشاي الموجود في مصر.

قال اللورد كرومر وهو يضع كفيه فوق بعضهما البعض على حجره: «حسنًا، إذَنْ. لقد ذكر كلود أنكما على علاقة بابنة أخيه، الآنسة دو ويت؟».

أومأت كلتاهما برأسها، برغم أن هذه كانت هي المرة الأولى التي تسمعان فيها اسم كلود.

«وحسب ما فهمت فقد كان لكما دور في اكتشاف مجموعة مخطوطات سانت كاترين؟».

قالت أجنيس: «أجل». فقد كانت هي من اكتشف المخطوطات.

أمال اللورد كرومر رأسه جانبًا ثم للجانب الآخر، وكأنه يحاول أن يخرج من أذنيه بعض الماء المتخلف عن الاستحمام.

«هل صحيح أن المخطوطات كانت تستخدم كطبق للزبد عندما عثرتما عليها؟».

قالت أجنيس وهي تبتسم لتخفي تجهمها: «ليس تمامًا. كانت في حالة سيئة عندما عثرنا عليها، لكن حكاية طبق الزبد، رغم كونها حكاية فاتنة، ما هي إلا محض خيال لمحرر إحدى الصحف».

قال اللورد كرومر: «يهيأ إليَّ أن رهبان سانت كاترين ليس لديهم الكثير من الزبد على أي حال، وأنهم يستخدمون زيت الزيتون بصورة أساسية». تبادلت أجنيس ابتسامة مع مارجريت، وقد أدركت فطنة ونفاذ بصيرة مضيفهما.

«بالضبط».

«إلى جانب اهتمامكما بالأمور الأكاديمية، فأنتما حسب ما فهمت منشغلتان أيضًا بتأسيس سنودس للكنيسة المشيخية في كامبريدج».

«أجل». قالتها مارجريت وهي تفترض أن اللورد لم يكن يشاركهما نفس المذهب، ولن يتحمس لانشغال النساء بمثل تلك الأمور، ففعلت ما بوسعها للتقليل من أهمية دورهما في تأسيس السنودس. «نحن مخلصتان للغاية لكنيستنا».

بينما هو ينفخ في فنجان الشاي، سرح اللورد بنظرته، وشعرت مارجريت باهتمامه يتحول ناحية كومة من الأوراق التي علت مكتبه. أوحت نظرته بأنه على الرغم من استمتاعه بالحوار معهما، فسيتوجب عليه إنهاء الحديث بعد وقت قصير.

قالت أجنيس: «سيدي، لدينا طلب صغير». فضم اللورد كرومر يديه معًا أمام فمه مشيرًا إلى أنه على استعداد لدراسة طلبهما.

«ربما يكون عم الآنسة دو ويت قد أشار إلى أن كبير حاخامات مصر، الحاخام بن شيمون، قد قام مؤخرًا بمنحنا نحن والدكتور شيختر حق التصرف في محتويات غرفة العلية بمعبد بن عزرا».

«أجل».

واصلت مارجريت حديثها قائلة: «محتويات غرفة العلية مذهلة للغاية. لم يتسن لنا الوقت الكافي للاطلاع على كل الوثائق بعد، لكن يمكنني القول بأنه سيصير أهم كشف في الكشوف المشابهة خلال الخمسين عامًا الماضية».

أومأ اللورد كرومر برأسه ليبين أنه يتفهم تمامًا أهمية كشفهما.

«بالرغم من أن كبير الحاخامات قد منحنا الإذن لنقل الوثائق والعودة بها إلى كامبريدج، إلا أننا واجهنا بعض الصعوبات في التعامل مع هيئة الجمارك».

بينما مارجريت تواصل الحديث، كتب اللورد كرومر بعض الكلمات في دفتر ملاحظات أمامه.

قال وهو يرشف الشاي بصوت مرتفع: «سأتولى حل هذا الموقف. هل هناك شيء آخر يمكنني مساعدتكما بشأنه؟».

سوت مارجريت ثوبها بينما تنظر لشقيقتها، وهي غير متأكدة إذا ما كان هذا السؤال إشارة لانتهاء اللقاء أم دعوة لمواصلة الحديث. كانت هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن يساعدهما فيها اللورد كرومر. بجرة قلم منه، يمكنه بناء مدرسة أو حماية مبنى أو الزج بأحدهم في السجن. ببضع كلمات، يمكنه تغيير مجرى التاريخ.

ترى ماذا سيقول اللورد كرومر لو أخبرتاه عن السيد بيخو ورحلتهما للبساتين وتوقعاتهما بخصوص لفافة عزرا؟ ازدحم عقل مارجريت بكل الاحتمالات الممكنة، لكن قبل أن تتمكن من تلخيصها في طلب واحد، أنهت أجنيس اللقاء.

«أنا متأكدة أنك منشغل للغاية». قالتها ونهضتا معًا. «شكرًا جزيلًا على مساعدتك».

في مساء ذلك اليوم، بينما هما ترتديان ملابسهما لتناول العشاء، تلقت الشقيقتان خبرًا مفاده أنه تم التصريح بخروج الوثائق خارج البلاد. إلى جانب هذه الرسالة الرسمية، كانت هناك رسالة شخصية من اللورد كرومر يشكرهما فيها على زيارته. ومع الرسالة، كانت هناك علبة من شاي دارجيلنج الخاص باللورد كرومر، مصحوبة بتمنياته أن تكفيهما لما تبقى من فترة رحلتهما.

على الرغم من أنهما قد حققتا كل ما سعيتا لتحقيقه -وإلى جانب ذلك حصلتا على علبة من الشاي- فقد شعرت كل من أجنيس ومارجريت أنهما قد تم التلاعب بهما. ربما كان هذا هو طبيعة الحال مع اللورد كرومر. فهو يجامل المرء ويلاطفه ويقدم العون، قبل أن يرسله للخارج. على أي حال، فقد شعرت الشقيقتان أنهما قد فاتهما اغتنام الفرصة؛ فالوجود في حضرة هذه القوة والحزم كان كفيلًا بجعل المرء ينتشي ويشعر بأنه من الممكن تحقيق أي شيء.

* * *

بعد أن نجحتا في الحصول على موافقة هيئة الجمارك المصرية، أخذت الأمور تسير بسرعة متزايدة. تم حجز عربات القطار وإرسال التلغرافات وختم الاستمارات بالأختام الرسمية. تطوعت الآنسة دو ويت للسفر بصحبة الوثائق –حتى الإسكندرية ثم إلى مارسيليا ودوفر وكامبريدج– كي يتمكن الدكتور شيختر من السفر ومقابلة شقيقه في فلسطين. كان قد فكر في تغيير خططه كي يتمكن من توصيل صناديق الوثائق بنفسه حتى كامبريدج، لكن الآنسة دو ويت نجحت في إقناعه ألا يفعل ذلك. تعهدت بالعناية بالصناديق بنفس الحرص الذي ستعتني به بمولودها. وعلاوة على ذلك، فقد قالت إن عمها قد خطط للانضمام إليها خلال النصف الثاني من رحلتها.

لكن قبل مارسيليا، وقبل فلسطين ومكتبة جامعة كامبريدج، وقبل أي من ذلك، كان عليهم تعبئة الصناديق وكتابة البيانات عليها وغلقها وتوصيلها لمحطة القطار بالقاهرة كي تلحق بقطار الإسكندرية السريع في يوم الثلاثاء.

قالت الآنسة دو ويت عندما رأت حجم المهمة الملقاة على عاتقهم: «لا أعتقد أن ذلك سيمثل مشكلة كبيرة. عن نفسي، فأنا أستمتع بحزم الأغراض».

لو كانت هناك أي شكوك متبقية لدى أجنيس ومارجريت حيال شخصية الفتاة، فقد زالت تمامًا في تلك الأيام الأخيرة التي قضوها بصحبة الغبار والشمع الأحمر الخاص بالأختام. سار العمل بسرعة أكبر مما كان متوقعًا بفضل معاونتها لهما لدرجة مكنتهن من قضاء

معظم عصر يوم الإثنين في ردهة استقبال الفندق وهن تحتسين شاي دارجيلنج الذي أهداه لهما اللورد كرومر.

قالت الآنسة دو ويت عندما سألتها أجنيس عن إحدى تفاصيل خطط عمها للسفر: «كدت أنسى. لقد تسلمت رسالة منه بالأمس. سألني عنكما وطلب أن أرسل لكما تحياته».

«هل عمك من جامعة كامبريدج؟» سألتها مارجريت وهي تتخيله أستاذًا ما من أساتذة الرياضيات الذين تقوم هي وشقيقتها بدعوتهم على الغداء مرة أو مرتين كل عام.

«كلا، فهو يعيش في لندن».

كررت أجنيس قائلة: «وطلب منك أن تبلغينا تحياته؟».

قالت مارجريت كي تصل لصلب الموضوع: «ذكرينا باسم عمك، يا عزيزتي. أخشى أننا لم نعد على دراية كافية بلندن كما كنا من قبل».

«السيد كلود مونتفيوري».

نطقت الاسم بنبرة تساؤل، لكنهما بالطبع كانتا تعرفانه. كان السيد مونتفيوري واحدًا من أغنى الرجال في إنجلترا، كما كان أكبر متبرع للدكتور شيختر.

«بالتأكيد أخبركما الدكتور شيختر عمن يكون عمي».

بينما الآنسة دو ويت تنقل نظرها ما بين أجنيس ومارجريت، تضرج وجهها بالحمرة عندما أدركت حقيقة الوضع. فلم يذكر الدكتور شيختر من يكون عمها؛ لم يهتم بإخبار الشقيقتين أن الشابة التي تساعده في

البحث هي أيضًا ابنة شقيق السيد مونتفيوري. لو كانتا تعلمان -لو أخبرهما الدكتور شيختر أن الآنسة دو ويت قد أتت للقاهرة بصفتها مبعوثًا عن عمها- فلم تكن الشقيقتان لتشكان أبدًا في سلوكها. لكن الدكتور شيختر كان يتصف بالسرية التامة فيما يتعلق بالأمور المالية، ولم يكن يحبذ الحديث عن ممموليه. لذا فقد ترك خيالهما يتولى تفسير سبب وجود الآنسة دو ويت. وماذا كان بوسعهما تخيله غير ذلك؟ فلم يكن هناك الكثير من الأسباب التي تدعو شابة للسفر مع رجل متزوج عبر نصف الكرة الأرضية.

«حسنًا». قالتها الآنسة دو ويت وهي تعجز عن النظر في عينيهما مباشرة. لمست عنقها وقامت واقفة، ثم جلست مرة أخرى. «لا يمكنني أن أتخيل...».

ساد الصمت بين ثلاثتهم لفترة من الوقت، وشعرت أجنيس ومارجريت بالحرج من شكوكهما، بينما شعرت الآنسة دو ويت بالخجل عندما أدركت ما فكرت فيه الشقيقتان.

سألتها أجنيس وهي تغير الموضوع فجأة: «هل تنوين التواجد في كامبريدج في الربيع؟».

رفعت الآنسة دو ويت عينيها عن فنجان الشاي.

«أجل».

واصلت مارجريت الحديث قائلة: «لن نعود قبل شهر آخر على أقل تقدير. لكن عند عودتنا سيسعدنا للغاية أن تقومي بزيارتنا».

قالت الآنسة دو ويت: «سيسعدني ذلك للغاية».

وافقت أجنيس قائلة: «نحن دومًا نهتم بالمساعدة في تعليم الفتيات الشابات، خاصة أولئك الواعدات من أمثالك».

قالت: «أشكرك». وبعد فترة صمت قصيرة، أعادت أجنيس توجيه دفة الحوار إلى تفاصيل الرحلة التي ستقطعها الصناديق.

لم تتمكن الشقيقتان من مناقشة سوء التفاهم الذي حدث إلا في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم عندما عادت الآنسة دو ويت لفندقها كي تغتسل.

سألت مارجريت بنبرة غاضبة: «ما الذي كان علينا أن نتخيله؟ كان على الدكتور شيختر أن يخبرنا أن عمها هو السيد مونتفيوري».

فكرت أجنيس في الأمر لبضع لحظات قبل أن تجيب شقيقتها.

وافقتها قائلة: «كان عليه أن يخبرنا، لكن كان بمقدورنا أيضًا أن نسأله».

قالت مارجريت: «هذا صحيح».

نظرت كلتاهما خارج النافذة في صمت بينما تراقبان سربًا من طيور الزرزور الذي أخذ يروح ويجيء في تشكيلات وسط الزرقة العميقة للغسق. لم تثر أي منهما سيرة الأشياء التي تغافلتا عن ذكرها، وأنصاف الحقائق التي قامتا بحكايتها، والتجاوزات التي قامتا بها. وفي صمتهما، اتفقتا على أنه من الأفضل الاحتفاظ بكل ذلك بينهما. فمن الأفضل عدم إخبار الدكتور شيختر عن لفافة عزرا ولا عن تسرب الوثائق من

الجنيزة ولا عن شكوكهما بخصوص السيد بيخو. فلم يكن هناك شيء يُكتسب من وراء ذلك، بينما من الممكن خسارة الكثير. استمرت أجنيس ومارجريت في مراقبة الطيور لفترة طويلة، حتى اختفى السرب في ظلمة الليل ولم يتبقَ منه أكثر من صوت حفيف.

فتلك طبيعة الحياة، تمر بسرعة حتى تصل لخاتمتها.

قالت أجنيس: «بسرعة كبيرة. بسرعة كبيرة».

كانت كل منهما تعلم أنهما ربما لا تعودان للقاهرة مرة أخرى. وكانتا تعلمان أن قطار الساعة الرابعة قد يكون هو آخر قطار تستقلانه من محطة السكة الحديد في القاهرة، وأن هذه قد تكون آخر رحلة لهما للصحراء التي تحبانها بشدة. ظلتا دومًا تشعران بالامتنان للفرص التي أتاحت لهما زيارة القاهرة والقدس وإستامبول وكل الأماكن الأخرى التي قامتا بزيارتها. فقد كان غالبية الناس يعدون أنفسهم محظوظين لو سنحت لهم زيارة باريس أو روما، بينما هما قد تمكنتا من السفر حول العالم مرات عديدة. على الرغم من ذلك، كان من الصعب ألا يتوق المرء للمزيد – المزيد من الرحلات، والمزيد من الكتب، والمزيد من الاكتشافات. كان من الصعب ألا تتساءلا عما قد تكتشفاه لو بقيتا في القاهرة بضعة أيام أخرى. لكن دومًا ما ستكون هناك لفافة أخرى، أو بعض الوثائق المخبأة، أليس كذلك؟ في بعض الأحيان تصبح المثابرة فضيلة من الفضائل، لكن في أحيان أخرى يصير من الأفضل التخلي عن الأمور.

بعد فترة من الوقت، نهضت مارجريت وأخرجت قصاصة الورق التي جلبتها من الجنيزة منذ بضعة أسابيع مضت.

«كنت أفكر» قالتها بعد أن حملقت فيها لبضع لحظات، «كنت أفكر أن هذه القصاصة قد تكون هدية ملائمة كي نشكر السيد الراقب على كرمه».

قالت أجنيس: «فكرة رائعة».

بينما هما تحملقان في الظلمة خارج النافذة، سرحت أفكارهما في اللغز الأخير المتعلق بلفافة عزرا، وتذكرتا كلمات عالم اللاهوت المفضل لوالدهما، هيو من سانت فيكتور.

«إذَنْ من المفيد للعقل المستنير أن يتعلم تدريجيًّا أن يحد من تعلقه بالأمور المادية الزائلة، حتى يستطيع بعد ذلك أن يتخلى عنها تمامًا. فالرجل الذي يتعلق بوطنه هو مبتدئ غض، والرجل الذي يعد كل الأوطان بمثابة وطنه قوي بالفعل، بينما الرجل الكامل هو من يعد العالم بأسره أرضًا غريبة».

كانتا تعلمان أن أكثر الناس ذكاء هم أولئك الذين يدركون حكمة الله البالغة بكل تعقيدها الذي يصعب فهمه، وأن العالم مليء بالألغاز التي لن يتم العثور على جوابها أبدًا.

* * *

- ١٣ -

في الأسابيع التالية لمحاكمته، قضى علي معظم الوقت بمفرده. قام بجولاته واعتنى بالقطط وأدى صلواته. وفي تلك المرات التي اضطر فيها لمغادرة المنزل -للذهاب لسوق الخضراوات أو للمخبز- وجه نظره للأسفل وحرص على تفادي اللقاء مع أي فرد من أعضاء المجلس القضائي. فعلى الرغم من كرمهم في الحكم الذي أصدروه، إلا أنه كان يعلم أن هناك العديد من الذين لم يسامحوه بعد. ولِمَ يسامحوه في حين أنه هو لم يسامح نفسه بعد؟

وأكثر من أي شيء آخر، كان علي يشعر بالرعب من رؤية شيماريا الورع وابنيه، لأنه خان ثقتهم، وأيضًا لأنه كان يخشى أن تعيد إليه رؤيتهم كل تلك المشاعر التي عمل على كبتها بكل صعوبة. فعلى الرغم من كل شيء، كان لا يزال يشعر بالرغبة كامنة في أركان عقله المظلمة. فمجرد التفكير في محبوبته كان كفيلًا بجعل آثار الندوب على ذراعه تنبض بالدم، وكان يعلم أن أقل إثارة كفيلة بجعله يرتد لحاله السابق.

كان عزاؤه الوحيد خلال تلك الفترة هو تعاطف قططه، ففي تلك الأيام التي كان علي يشعر فيها بالإحباط البالغ، كان يمسك بقطة من

القطط في حجره ويداعبها بينما يشكي لها همومه. وعلى الرغم من أنه لم يتلقَ منهم أي رد، إلا أن عليًّا كان يشعر أنهم يتفهمون حديثه. فقد كانوا هم أيضًا أيتامًا مثله، وعلى مشارف النضج ويحاولون أن يشقوا طريقهم للحياة في هذا العالم لأول مرة. بينما هو جالس معهم، كان علي يتذكر الكلمات الحكيمة للنبي محمد الذي كان يتيما هو الآخر. «شراركم عزابكم. النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

كان علي يعلم أن عليه أن يبحث عن زوجة. فقد منحه المجلس مهلة شهرين لينجز ما طلب منه. لكن لم تكن لديه فكرة عن المكان الذي عليه أن يبحث فيه، وبالإضافة إلى ذلك كان يشعر بالقلق من ألَّا يوافق عليه أحد إذا ما تقدم طالبًا الزواج. بمرور الأيام، واقتراب نهاية فترة المهلة التي حددها المجلس، أقنع علي نفسه أنه لا يوجد حل لمشكلته. وفي نهاية المطاف استسلم لفكرة فقدان عمله في المعبد. سيكون ذلك عقابًا مناسبًا، وربما كان ذلك هو ما ينتويه المجلس منذ البداية. سيعود ليعيش في منزل خاله ويمضي بقية حياته في العمل كسقاء وضيع.

حتى كان عصر أحد الأيام، قبل أقل من أسبوع من نهاية فترة المهلة التي تم تحديدها ليجد زوجة، قرر علي فجأة أن يزور ضريح السيدة نفيسة. لم يكن من عادته الوثوق في فعالية أضرحة الأولياء، لكنه كان بحاجة للتصرف بطريقة ما ولم يستطع التفكير في أي حل آخر ساعتها.

في صباح اليوم التالي، بعد أن سلم الزكري نوبة الحراسة، جهز علي كيسًا ملأه بالطعام واتخذ طريقه متوجهًا إلى الضريح. بينما هو يمر عبر بوابات الفسطاط، انضم لصف من الحجيج الذين كانوا يشقون

طريقهم عبر السهل الخالي. كان هناك شيوخ بعصي خشبية وأطفال مرضى بين ذراعي آبائهم، وزوجات لتجار أثرياء وحمار يحمل شواهد قبور رخامية، وأكثر من سيدة من السيدات الحوامل، كلهم في طريقهم لزيارة ضريح السيدة نفيسة. تبعًا لخالته فاطمة، فقد كانت والدته تزور الضريح كلما انتابتها الهموم أو القلق، أو عندما كانت تحتاج لمن يرشدها. وفي الواقع فقد زارت الضريح قبل ولادته بأسابيع. لم تكن لدى علي فكرة عما تمنته ساعتها، لكن فكرة والدته وهي حبلى به وتصلي عند ضريح السيدة نفيسة منحته قدرًا كبيرًا من الراحة.

بعد أن سار لفترة طويلة من النهار، رأى علي حدود المئذنة في الأفق تحيطها الأكواخ المصنوعة من الطين، وبعض الأشجار المتناثرة والمقابر العشوائية لأولئك الذين كانوا يرغبون في البقاء أبد الدهر إلى جوار السيدة. عندما اقترب وشق طريقه عبر أطراف هذه القرية العجيبة -مدينة الموتى هذه- لاحظ أن المباني كلها قد ازدانت بالمصابيح والقماش الأخضر اللون. ازدحمت الشوارع من حوله بالمتسولين والحجيج والمؤمنين وأصحاب الآمال والمتشائمين، وعلى أطراف الحشد كانت هناك حلقة من الباعة الذين يعرضون الأطعمة وقصاصات من الأوراق التي يمكن للمرء أن يخط عليها الدعاء. ترامى إلى سمعه حديث سيدتين تتحدثان عن المولد، وأدرك أنه قد أتى للضريح في أكثر أيام العام قداسة، أي يوم الاحتفال بمولد السيدة نفيسة. شق علي طريقه وسط الحشد، حتى وقف أمام المسجد الكبير بلونه الأصفر، والذي يرقد داخله جثمان السيدة نفيسة.

امتلأ المكان خارج المسجد بأولئك الذين أتوا للتوسل لصاحبة الضريح، واضطر علي للتدافع حتى يصل للمدخل. عندما وصل، خلع خفَّه ووضعه وسط كومة النعال وخاض بين الحجيج وهو يدفع قدميه الحافيتين عبر السجاد حتى وجد نفسه على مسافة أقل من ذراع أمام الضريح. كانت السيدة نفيسة سيدة الرحمة والمعجزات، والعالمة التي لا مثيل لعلمها وورعها، حفيدة النبي محمد وواحدة من ثلاثة أولياء صالحين بالقاهرة. قال الناس إن قداستها أضفت على ضريحها قوى عظيمة، فكانت تمنح النساء العاقرات الخصوبة، وتنعم بالثراء على أشد الرجال فقرًا. ركع علي وشبك أصابعه خلال الشبكة المعدنية التي تحمي الضريح. لم يكن يطلب معجزة. ولم يكن يرغب في الشفاء من مرض ما. كما لم يطلب المال أو تغيير حاله إلى حال آخر. كان فقط بحاجة لبعض الإرشاد.

أراح علي جبهته على المعدن البارد وقام بالدعاء للسيدة نفيسة ولجدها النبي محمد. ثم توجه بالصلاة للإله الواحد الحق الذي كانت له أسماء عديدة – الله، أو ديوس أو إلوهيم – لكن لا يمكن تقسيمه.

«علي».

في وسط صلاته، سمع علي صوتًا يناديه فالتفت وراءه ليرى امرأة شابة تقف عند مدخل الضريح. لم يكن هناك ما يميزها سوى أنها كانت تشبه ابنة خاله فوزية إلى حد كبير. اعتقد علي أن هذه الشابة قد تكون هي ابنة خاله، فوقف محاولًا الخروج من بين الحشد. عندما وصل للمدخل، كانت قد اختفت.

كان طيشًا منه أن يقطع صلاته ليطارد هذه الشابة. بينما هو يستعيد خفَّه وينضم لصف أصحاب المطالب الذين كانوا في طريقهم خارج المسجد، وبَّخ عليٌّ نفسه. لقد فقد فرصته الوحيدة كي يطلب النصح من السيدة نفيسة. ولِمَ فعل هذا؟ لأجل نزوة طائشة. كيف يمكنه أن يأمل في العثور على زوجة وهو لا يستطيع حتى أن يتم صلاته؟

جلس علي في ظل قبر أحد الأثرياء والشعور بالإحباط يغمره، وترك رأسه تسقط بين كفيه. عندما انتهى من تأنيب نفسه على حماقته تلك، انتقل لقائمة أخرى من الاتهامات المألوفة، فقد كان كاذبًا ومخادعًا. لقد خان من ائتمنوه وأضاع ما رزقه به حسن الطالع. لم يكن يستحق أن يكون حارس بن عزرا وبالقطع لم يكن يستحق زوجة.

رفع علي رأسه وتحسس الندوب التي خطت ساعده. بينما هو يفعل ذلك، طرأت على باله فكرة غريبة بدت له حمقاء في بادئ الأمر، لكن كلما أطال التفكير، كلما بدت وكأنها معقولة. بمزيد من التفكير، كان الشيء الوحيد الذي تعجب منه هو أن الأمر لم يطرأ على باله من قبل. كان حلًّا رائعًا لمعضلة بدت وكأنها دون حل. فكر علي متسائلًا، أليس من المحتمل أن تكون هذه الفكرة هي الإجابة المادية لصلاته، وأن صورة الشابة عند مدخل الضريح كانت هي يد السيدة نفيسة وهي توجه أفكاره؟ على أي حال، فقد صار يعرف ما الذي عليه أن يفعله.

سار علي لفترة طويلة عصر ذلك اليوم، وعندما وصل لباب زويلة، كانت الشمس قد وصلت لمستوى الحافة العليا للبوابة. أومأ برأسه للحارس واستمر في طريقه عبر الشارع الحجري الواسع الذي يقطع

حيه القديم. انحرف يسارًا عند دكان الجزار ثم يمينًا عند المسجد حتى وصل لوجهته. بدا باب منزل خاله راشد أصغر مما كان يتذكره، وقد بهت دهانه الأبيض اللون واتسخ الدرج أمامه بقشور بذور عباد الشمس. ألقى علي نظرة على الحمامة الجالسة تصدر هديلها على الإفريز بالأعلى قبل أن يبتلع مخاوفه ويطرق الباب.

«من بالباب؟».

«خالي راشد، إنه أنا، ابن شقيقتك علي».

«علي». هتف خاله بنبرة منغمة، قبل أن يصيح موجهًا حديثه تجاه الغرفة الخلفية بالمنزل: «لقد قرر الشيخ علي أن يزورنا».

قال علي وهو يدلف للغرفة الرئيسة بالمنزل: «إنه يوم جميل».

أجابه خاله ساخرًا من نبرة علي الرسمية: «إنه كذلك بالفعل».

تردد علي وهو لا يدري هل من الأفضل أن يتقدم بطلبه وهو واقف أم أن عليه الجلوس.

قال خاله بنبرة آمرة: «تعال، واجلس. هل عليَّ أن أخبرك بكل شيء؟».

جلس على إحدى الوسائد القريبة من المطبخ وتجول بنظره في أرجاء الغرفة. كانت أرض الغرفة نظيفة وقد كُنست منها القشور التي اتسخ بها الدرج، لكن الجدران كانت لا تزال تفوح منها رائحة نبيذ النخيل والفول غير الطازج. بعد أقل من بضع لحظات على وجوده في بيته القديم، بدأ علي يتشكك في حكمة القرار الذي اتخذه. كان يعلم

أنه يتصرف بتسرع، لكن هذه كانت هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنه بها الحفاظ على عمله وبيته والحياة التي اعتادها. بالإضافة إلى ذلك، فسوف تمكنه خطته تلك من توفير حياة أفضل لابنة خاله.

نطق علي أخيرًا وقال: «خالي راشد، لقد أتيت لأطلب منك شيئًا».

«فلتطلب إذَنْ».

واصل علي قائلًا: «لقد جئت لأطلب يد ابنة خالي فوزية للزواج».

بمجرد أن نطق باسمها، خرجت فوزية من المطبخ حاملة صينية القهوة.

سألها والدها وهو يبتسم وقد أظهر أسنانه المبقعة باللون البني: «هل سمعت ذلك؟ سوف تتزوجين أنت وعلي».

تضرج وجهها بالحمرة ووجهت نظرها للأسفل عند قدميها كي تخفي ابتسامتها الواسعة. ثم ركضت عائدة للمطبخ كي تخبر والدتها.

قال خاله راشد: «لقد أسعدتها للغاية. فقد بدأنا نفقد الإيمان بجدوى صلواتنا».

عندئذ أدرك علي أنهم كانوا يتوقعون منه هذا الطلب. لم تكن فكرته حمقاء على الإطلاق. رفع خاله راشد كأسًا وشربوا معًا متمنين صحة الأحفاد وأحفاد الأحفاد لسلالة العائلة.

* * *

تبعًا للنبي محمد، فالرجل بعد الزواج يكون قد أتم نصف دينه. أما النصف الثاني فيتمه بتقوى الله. وعندما استيقظ علي عصر اليوم التالي،

شعر كأنه يبدأ حياة جديدة. كانت قدماه تؤلمانه كما احترقت رقبته من الشمس، لكن حتى هذه المضايقات بدت وكأنها تأكيد لحسن الطالع. بعد تناول وجبة صغيرة، اغتسل ثم ارتدى أفضل جلباب لديه وسار مباشرة حتى دكان الأقمشة الخاص بإفرايم بن شيماريا. عندما اقترب، توقف الحديث والتفت كل الرجال ناظرين تجاهه.

سأله إفرايم: «أين كنت؟».

جال علي بنظرته بين الجالسين في الدائرة، وعندما رأى بينهم العديد من الرجال الذين أصدروا الحكم عليه نسي للحظة ما قد أتى ليخبرهم به. فتح فمه ورمش بعينيه.

سأله الطبيب ميفوراخ: «ماذا هناك؟ تبدو متعبًا».

نطق علي أخيرًا وهو غير واثق من أفضل طريقة يفتح بها الموضوع، لذا قال مباشرة: «لديَّ بعض الأخبار. خطبت ابنة خالي فوزية بالأمس، وسنعقد قراننا خلال ثلاثة أيام في المسجد بالقرب من باب زويلة».

قال إفرايم: «مبروك». وبعد لحظة من الصمت نهض واقفًا ليصافح عليًّا. «أتمنى لك كل خير».

حذا باقي الرجال الجالسين في الدائرة حذوه. وقفوا الواحد وراء الآخر مصافحين علي ومتمنين له الخير.

علق الطبيب ميفوراخ: «خطبتان في أسبوع واحد». فصمت باقي الرجال.

سأل علي وهو يحاول ألا يبدو عليه الفضول الزائد: «خطبتان؟».

قال ابن كمونة بعد أن تبادل نظرة مع إفرايم بن شيماريا: «لقد حلَّت علينا بركات مضاعفة هذا الأسبوع. فمنذ يومين، خطب ابني الأكبر شقيقة إفرايم».

ازدرد علي ريقه وشعر بوخز الألم في ذراعه. بينما هو يحملق في طرف جلباب ابن كمونة المطرز، شعر بالرجال في الدائرة من حوله وهم يراقبونه. كان يعلم ما عليه أن يقوله، لكن عندما تخيل محبوبته في ليلة زفافها راقدة على الفراش في غرفة الابن الأكبر لابن كمونة، انحشرت الكلمة في حلقه كقطعة من اللحم غير الممضوغ. تطلب الأمر منه جهدًا بالغًا لإخراجها.

قال وهو يصافح يد الجميع كما سبق وقاموا هم بمصافحته: «مبروك».

قال الزكري: «ألف مبروك لكلا الزوجين». وردَّ باقي أفراد المجموعة بالمثل.

«ألف مبروك».

عرض إفرايم على علي كوبًا من الشاي، وقبل علي حيث إنه كان يعاني من جفاف بالغ في الحلق. جلس في مكانه المعتاد بالقرب من مدخل الدكان وهو يحتسي الشاي الداكن المحلى ويستمع للرجال وهم يتناقشون حول ما إذا كان من المحلل أكل نوع معين من الأسماك. لم يعاتبه أحد ولم يلق أحد تجاهه بأي نظرات قاسية. على الرغم من

ذلك، شعر علي أن هناك خطبًا ما. بدا الرجال جميعهم وكأنهم يدركون وجوده بينهم ويلاحظونه بطريقة لم يلحظوه بها من قبل.

قال علي في لحظة من الصمت سادت وسط الموضوعات المختلفة المطروحة للنقاش: «هل يمكنني أن ألقي عليكم سؤالًا؟». لم يكن ينتوي أن يقول أي شيء، لكن ما إن نطق بالكلمات، لم يعد بمقدوره التراجع.

قال الطبيب ميفوراخ: «بالطبع. ما الذي يشغل بالك؟».

احتسى علي القليل من الشاي ثم وضع الكوب جانبًا وألقى عليهم بالسؤال الذي ظل يشغل باله لفترة من الوقت.

«لماذا سامحتموني؟».

رد الرجال بالعديد من الإجابات المعقولة وهم يكررون العديد من الأسباب التي سبق وأن ذكروها من قبل: أن دينهم يعلمهم الرحمة وأنهم يتشبهون بالنبي إبراهيم، لكنه لم يجد أيًا من هذه الإجابات مرضية بدرجة كافية.

أخيرًا نطق إفرايم بن شيماريا قائلًا: «ربما يمكنني أن أحكي حكاية».

سأله الزكري: «حكاية الشقيقين؟».

أكد الزكري قائلًا: «حكاية الشقيقين». وبينما جلس باقي الرجال في أماكنهم، شرع هو في حكايته.

«كان هناك شقيقان متقاربان للغاية، لأقصى درجات القرب الممكنة بين الأشقاء. كانا يدرسان معًا ويتناولان الطعام معًا، وعندما جاء الوقت الذي كان عليهما فيه أن يختارا مهنة، قررا الاشتراك في التجارة معًا. لسنوات طويلة كانا ناجحين للغاية. وفي مساء أحد الأيام، بينما الشقيق الأصغر، نوح، يراجع بعض الحسابات، وجد بعض التضارب المثير للشكوك. في صباح اليوم التالي، واجه شقيقه، يعقوب، الذي أقر بسرقة المال. غضب نوح غضبًا عارمًا، وعندما ترجاه يعقوب أن يسامحه، رفض تمامًا. في نهاية الأمر، اتفقا على أن يرحل يعقوب عن القرية بينما استمر نوح بالعمل في التجارة وحده.

في السنوات التالية، واجه نوح العديد من المصاعب في عمله وفي حياته. لم يتزوج أبدًا، وخسر كل أمواله تقريبًا بسبب سفن البضائع الغارقة. وفي تلك الأثناء، أسس شقيقه يعقوب تجارة ناجحة وتزوج وأنجب ثلاثة أبناء. وقد أثار هذا ضيق نوح أكثر من أي من متاعبه الشخصية. فلماذا عليه هو أن يعاني هكذا بينما حلَّت البركة على شقيقه الذي يفتقد للأمانة؟ قال حاخام القرية إنها مشيئة الرب، لكن هذه الإجابة لم ترضِ نوحًا الذي ذهب للقاء حاخام بلدة مجاورة، فأخبره الحاخام أن لله حكمته التي تخفى علينا. لم يرض نوح بهذا الجواب أيضًا. لذا، قرر أن يجوب العالم حتى يجد جوابًا يرضيه.

ظل نوح يتجول لسنوات وسنوات، وهو يسأل كل من يلتقيه نفس السؤال. في نهاية المطاف، وصل لمملكة بعيدة على مبعدة أشهر طويلة من السفر من قرية مولده. عندما وصل للعاصمة، طلب أن يتحدث مع

أكثر رجال المدينة حكمة فدلوه على شيخ من أتباع القبالة كان على فراش الموت. حكى له نوح حكايته، وعندما شارف نهايتها، سأل نفس السؤال الذي كان يسأله دومًا. لماذا عليه هو أن يعاني بينما شقيقه الذي يفتقد للأمانة ينعم بحسن الطالع؟ أجابه القبلاني بسرعة، وكأنه قد فكر في جواب هذا السؤال منذ فترة طويلة.

قال: «عندما خلق الرب العالم، كان قائمًا على فكرة العدل التام. كل تصرف يتسم بالخيانة أو العنف كان يلقى عقابًا مساويًا لدرجة الفعل. سرق رجل عنزة جاره، فمرضت مواشيه هو. ضربت امرأة طفلها، ففسد الطعام الذي تعده. لكن بعد فترة قصيرة من الوقت، انهار ذلك العالم تحت وطأة تلك العدالة البالغة. لذا عندما شرع الرب في إعادة إعمار الكون، أسسه على مبدأ المحبة والعطف اللامتناهي. في ذلك العالم، كل تصرف يتسم بالخيانة أو العنف كان يلقى جزاءه بالتسامح التام.

سأله القبلاني العجوز: «هل يجيب هذا على سؤالك؟». فانفجر نوح بالبكاء.

قال: «أجل، أجل. فقط أتمنى لو سنحت لي الفرصة كي أسامح شقيقي».

عندها كشف القبلاني العجوز عن شخصيته.

قال بابتسامة وهو يمد يده: «لا يزال بمقدورك أن تفعل ذلك. ألا تعرفني؟».

عندها تعانق الرجلان وماتا وهما يحتضنان بعضهما.

عندما انتهى من حكايته، التمعت عينا إفرايم بابتسامة بينما هو يصب لنفسه كوبًا آخر من الشاي.

قال الزكري: «رائع». فالتفت الرجال جميعًا ناحية علي.

قال علي: «أعتقد أنني فهمت الآن». على الرغم من أنه لم يكن متأكدًا تمامًا أنه يفهم بالفعل.

كانت حكاية عن أهمية التسامح، لكن في نفس الوقت فإن نهايتها توحي بأنه يوجد بالفعل نوع ما من العدالة في هذا العالم. وإلا لِمَ سنحت لنوح الفرصة كي يسامح شقيقه؟ بدت القصة وكأنها تأكيد لقول الحاخام الثاني بأن لله حكمته التي قد تخفى علينا.

قال ابن كمونة: «فكر في الأمر». ورد علي أنه سيفعل.

* * *

بذل علي أقصى جهده كي يفهم حكاية إفرايم. لكن في الأيام الثلاثة التالية انشغل باله بمشكلة تكاليف زواجه المقبل. كانت حفلات الزفاف بالغة التكلفة، مهما كان حجم الحفل. وبما أن خاله راشد لم يكن لديه أي مال ولا عمل، فقد كان على علي أن يتحمل وحده التكلفة بالكامل. بالإضافة لتكلفة العازفين والصدقات للفقراء والتبرع المقترح للمسجد، كانت هناك تكلفة ملابس زفاف فوزية وحنتها وزينتها. اشترى علي لنفسه طقمًا جديدًا من الثياب، كما اشترى لخاله وخالته. وبالإضافة لكل ذلك، دفع ثمن معظم الملابس والفرش والحلي في جهاز ابنة خاله. كان علي قد طلب من الزكري مبلغًا مقدمًا من راتب

الشهر المقبل، لكن حتى ذلك لم يكفِ. في اليوم السابق للزفاف، أقنعته خالته فاطمة أن يرجع للزكري مرة ثانية ويطلب مبلغًا آخر من المال كي يدفع ثمن المشط المصنوع من الفضة والذي أصرت أنه جزء هام من أي جهاز محترم للعروس. كان في طريقه للخروج عندما تحدثت فوزية.

قالت: «لا يهم، فلديَّ مشط بالفعل».

نظر علي لابنة خاله وهي تقف في باب المطبخ، وأدرك لحظتها أنه اتخذ قرارًا صائبًا. لم تكن فوزية جميلة ورقيقة، ولم تكن من النوع الذي يلهم المرء بالشعر أو يجعل دقات قلبه تتسارع، لكن كانت هناك فتنة من نوع ما في ابتسامتها، وفي الهدوء والثقة التي تتابع بها الأمور. وفي الشهور الماضية كانت قد نضجت كامرأة.

عندما رأى علي عروسه في اليوم التالي بملابس الزفاف –وقد ارتسمت يداها بالحناء واصطبغ شعرها بالزعفران وتزينت عيناها بالكحل، بينما تلتمع وجنتاها بالسعادة لمستقبلهما معًا– شعر بالذهول، فلم يكن بمقدوره تخيل امرأة تفوقها جمالًا. بعد أن تلا الإمام بضع كلمات، وضع كل من العروس والعريس يديهما معًا على المصحف وقاما بتلاوة الفاتحة معًا. بينما هو يتلوها، رأى علي الكلمات على الصفحة تتجسد أمامه. «بسم الله الرحمن الرحيم... مالك يوم الدين... اهدنا الصراط المستقيم..». وهكذا تم عقد قرانهما. بعد انتهاء المراسم، تجمع علي وفوزية ووالداها وبعض سكان الحي في ساحة المسجد. استمعوا لتلاوة من القرآن ووزعوا الصدقات على الفقراء. لم يحضر

أحد من معبد بن عزرا الزفاف، مما كان أمرًا يمكن تفهمه. لم يتوقع علي حضورهم، فلم يكن حتى قد دعا أحدًا منهم بشكل رسمي.

بعد انتهاء الحفل، قاموا بتحميل جهاز فوزية على عربة يجرها حمار وتوجها معًا لبيتهما الجديد. بينما هو في طريقه إلى الفسطاط وعروسه إلى جواره وشمس الخريف الدافئة تلفح وجهه، فكر علي في الكلمات الأولى من سورة الفاتحة. «بسم الله الرحمن الرحيم». فكر أن تلك الصفات الإلهية، وأسماء الله تلك، هي الصفات التي علينا أن نحاول أن ننميها في أنفسنا. فمن خلال كرمنا ومحبتنا وتسامحنا، نعكس كرم الله ومحبته ومغفرته، مثل قطعة من الحديد تدفئها أشعة الشمس.

كان علي مستغرقًا في التفكير في ذلك الأمر وهو يحاول أن يربط بينه وبين حكاية الشقيقين، عندما وصلت العربة أمام بوابة المعبد. وجدا حشدًا من الأطفال في استقبالهما.

صاحوا: «مرحى بعلي، مرحى بالحارس!».

بينما العريس والعروس يبادلان الأطفال الابتسامة، انفتحت بوابة المعبد فشاهدا الساحة وقد تم إعدادها لوليمة كبيرة. كان الجميع حاضرين -كل أعضاء المجلس القضائي، والرجال الذين يجلسون أمام دكان الأقمشة المملوك لإفرايم بن شيماريا، وعدد آخر من الذين لم يتعرف عليهم علي- وقد ارتدوا جميعًا أفخر ملابسهم.

ساعدت زوجة الطبيب ميفوراخ فوزية في النزول من فوق العربة وقادتها لجانب النساء، وفهم علي أنه كان هو وزوجته ضيفي الشرف.

قبل أن يتمكن من الحديث، حملوه ليجلس على رأس مائدة عامرة بصنوف الطعام، ثم بدأ الاحتفال. كانت وليمة عظيمة، فاضت بالنبيذ واللحوم والفطائر، وكانت كلها للاحتفال بزفاف اليتيم الفقير، حارس معبد بن عزرا.

بينما هو يفتح جرة من نبيذ النخيل، وضع الزكري كفه على كتف علي.

قال وعيناه تلتمع بالسعادة: «كنت أعلم أنني محق. لو كان هذا زفاف ابني، لما شعرت بقدر أكبر من الفخر».

وافقه شيماريا الورع قائلًا: «أنت فتى طيب، وستصير رجلًا أفضل».

عند نهاية الاحتفال، بعد أن أكل أكثر من كفايته من لحم الضأن المشوي والبقلاوة بالفستق وشرب العديد من أكواب الشاي بالنعناع، ظن علي للحظة أنه لمح هيئة محبوبته السابقة وهي تقف في ركن الساحة، في ذات المكان الذي لاحظها فيه لأول مرة. شعر بموجة من الرغبة تجتاحه وتنتشر من أعماقه حتى أطراف أصابعه. حتى في ليلة زفافه لم يستطع التخلص منها. كان هناك جزء صغير منه لا يزال يرغب أن يكون برفقتها. فالحب لا يموت، بل فقط يحول مساره. كان علي يدرك ذلك، لكنه في نفس الوقت كان يعلم أنه اتخذ قرارًا صائبًا. فقد كان يحب فوزية، ويشعر بالسعادة لأنها ستشاركه حسن طالعه.

عندما انتهى الاحتفال وتوقفت الموسيقى، وعندما عاد الجميع لمنازلهم واصطبغ الأفق ببدايات شفق اليوم الجديد، قاد علي عروسه لبيتهما الجديد. تتبع نظرها الذي يجول في الغرفة بين المعلقات على

الجدران للأبسطة التي تغطي الأرض والمطبخ الصغير النظيف، وهو يمتلئ بالفخر الذي يستشعره رجل يدرك أنه قد وفر لزوجته أكثر مما كانت تحلم به في أي وقت. عندما لاحظت القطط التي ترقد نائمة في ركن الغرفة، طقطقت فوزية بلسانها وعبرت الغرفة تجاههم. للحظة، شعر علي بالقلق من أن تطلب طردهم خارج المنزل، لكن عندما شاهد كيف انحنت تداعبهم برقة، أدرك أنها ستحبهم تمامًا مثلما يحبهم هو.

في فصل الربيع، رزق علي وفوزية بأول مولودة لهما. أطلقا عليها اسم نفيسة، تيمنًا بالسيدة نفيسة التي جمعتهما معًا بحكمتها. وفي العام التالي، رزقا بابن آخر أسمياه حسنًا، تلاه الحسين ثم زينب. كان منزلهما عامرًا وأطفالهما أصحاء، وشعر علي وسط أسرته بسعادة لم يكن يتخيلها.

وهكذا توالت الأجيال الواحد تلو الآخر. مات الشيوخ وشاخ الشباب. توفي شيماريا الورع وسط أحفاده الأحباء، وانضم ابن ابن كمونة لوالده في عضوية المجلس القضائي. بقيت لفافة عزرا مختبئة في خزانتها المظلمة، وملأ نسل قطط علي الساحة باللون الرمادي، بينما قضى حاسدي السيفاردي أيامه في المنفى. بمرور الوقت، اتخذ علي اسم مهنته كلقب؛ الراقب أو الحارس واستمر في منصبه حتى أتم حوالي الخمسين من العمر. عندها قرر كبار معبد بن عزرا أن يوكلوا مهام علي لابنه، حسن، الذي سلم مهام عمله بمرور الوقت لابنه هو أيضًا، والذي كان اسمه علي. وهكذا استمرت سلالة الراقب عبر القرون، خلال المجاعات والطاعون، والحرائق والطوفان، والحرب

الأهلية والاحتلال، والخراب والتهجير، وخلال أحداث الشغب والاغتيالات والقمع العنيف للاحتجاجات. استمرت حراستهم خلال كل ذلك، من أب لابنه، ومن الأب الذي يليه لابنه، امتدت سلالة واحدة عبر ألف ربيع وألف عام جديد.

❊ ❊ ❊

- ١٤ -

كانت الخريطة التي رسمها لي السيد موصيري -خطها بقلمه الحبر على ظهر فاتورة غدائنا الذي تناولناه في فندق النيل هيلتون- تحدد مكان قبر والدي بمربع صغير وحرفين من الأحرف الهجائية العبرية. قام برسم سور حول الركن الشمالي الشرقي للمدافن ليحدد المنطقة الصغيرة المخصصة لغير اليهود حيث تم دفن والدي. ببضعة خطوط قصيرة ودائرة، حدد المدخل الرئيس ومنزل الحارس وشجرة ضخمة بالإضافة لضريح مويس قطاوي. لكن الخريطة لن تكون ذات جدوى حتى أجد المدافن نفسها.

«مدينة الموتى». قلتها وأنا أجلس في الكرسي المجاور للسائق في سيارة أجرة فارغة عند الفندق الكائن على الجهة المقابلة من الشارع أمام شقتي.

لم تكن مدافن اليهود -البساتين- محددة على أي خريطة من الخرائط. لكن تبعًا لما قاله السيد موصيري، فلم يبدُ العثور عليها أمرًا شاقًّا، وهي تختبئ عند سفح هضبة المقطم بين القلعة والمدافن الجنوبية، في مكان ما من تلك المدافن الضخمة المعروفة باسم مدينة الموتى.

سألني السائق باللغة الإنجليزية: «إلى أين أنت ذاهب؟».

كررت قائلًا: «مدينة الموتى، المدافن الجنوبية».

كنت قد قضيت معظم الأسبوع الماضي وأنا أحاول فهم أهمية ما حكاه لي كل من والدتي وعمي حسن. أعدت قراءة رسائل والدي، وتحدثت مع عائشة وعمتي بسيمة والسيد موصيري، وأنا أحاول جمع أجزاء الحكاية. لم يكن من الصعب الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بوالدتي. أما تلك المتعلقة بوالدي -شعوره بعد أن أخذت لفافة عزرا من المعبد، وإحساسه بعد أن انتقل للإقامة مع شقيقه الأصغر، ولماذا رسم علامة استفهام على قصاصة الصحيفة تلك، والمكان الذي اعتقد أن لفافة عزرا قد توجد فيه، وتساؤلاته عما إذا كانت هناك طريقة ما لإنقاذ شرفه- كانت تلك أسئلة لم أتمكن من الإجابة عنها.

والآن هأنذا أتوجه جنوبًا بحذاء النيل تجاه مدينة الموتى في طريقي لأسأله بنفسي، كما قال عبد الله.

«إلى أين أنت ذاهب؟ ومن أين أتيت؟» قالها سائق السيارة الأجرة بنبرة منغمة وهو يلتحم بالزحام المروري المحيط بنا. «إلى أين أنت ذاهب؟ ومن أين أتيت؟».

لم تكن أغنية في الواقع، على الأقل ليس بالمعنى الصريح للأغاني، بقدر ما كانت تعويذة منغمة، كأنها تعليق شاعري على طبيعة الحياة الزائلة.

قلت له: «أنت فيلسوف».

ابتسم السائق ابتسامة عريضة ثم رفع إصبعه ناحية السقف المتداعي للسيارة ليشير إلى أن كل شيء بيد الله. لو كانت لديه أي ميول فلسفية، فقد كان يدين بها للرب.

قال وهو ينطق كل كلمة بوضوح: «إن شاء الله». لو شاء الرب.

ثم أشار لحامل علبة المناديل الورقية ذي اللونين الأخضر والذهبي اللامع المثبت على لوحة قيادة السيارة. لم أتمكن من تفسير الخط العربي المكتوب على جانب العلبة، لكنني افترضت أنه يذكر شيئًا ما عن مشيئة الرب.

«إن شاء الله». كررتها فابتسم ثانية.

سألني بعد بضع دقائق عندما وصلنا أمام مدخل المدافن الجنوبية: «هل تعلم إلى أين أنت ذاهب؟».

أخبرته أنني ذاهب للبساتين، أي المدافن اليهودية، فهز رأسه.

قال: «في المدافن الجنوبية يوجد مسجد قايتباي ومسجد برقوق والكثير من الفقراء الذين يعيشون في المقابر. لا توجد بساتين». ثم رحل مبتعدًا بالسيارة.

كانت مدينة الموتى عبارة عن منطقة عشوائية بنيت فوق المدافن. أو ربما كانت مدافن بنيت فوق منطقة عشوائية. لم يكن الدليل السياحي يوضح أيهما نشأ قبل الآخر. أيًّا كان الأمر، فقد استمر ذلك الوضع لمئات السنين. تراصت على جوانب الطرقات الترابية الواسعة للمكان مقابر حجرية مزخرفة وأضرحة، يسكن في كل منها أسرة ما

أو دكان صغير يبيع السجائر والحلوى. كان حيًّا سكنيًّا كاملًا به باعة الخضراوات وسيارات الأجرة والتيار الكهربائي المسروق من محطة كهرباء صغيرة قريبة.

لا أريد أن أضفي طابعًا رومانسيًّا على الحياة بالغة الصعوبة لأولئك الذين اختاروا السكنى هناك. على الرغم من ذلك، كان هناك طابع عاطفي للمنطقة لا يمكن تجاهله. بدا السكان جميعهم وكأنهم يتمتعون بنوع من السكينة والتعايش دون تعقيدات مع المتوفين من القضاة والتجار الذين يحيون بين قبورهم. المرأة التي تطل من بين الشيش الذي له نفس اللون الأخضر الزاهي للضريح المجاور له، والرجل الذي يبيع شواحن للهواتف الجوالة تحت القبة المضلعة لضريح أحد الأولياء، والفتاة الشابة التي تقوم بتنفيض سجادة معلقة بين شاهدين من شواهد القبور: كانوا جميعًا حراسًا للماضي، يحرسون ذلك الحد نصف الشفاف القائم بين الحياة والموت.

بعد أن تجولت في الحي لحوالي عشر دقائق أو ربع ساعة، توقفت لشراء زجاجة من المياه المعبأة من دكان مرتجل على أحد النواصي. على الجانب الآخر من الطريق، كانت امرأة ترتدي جلبابًا منزليًّا له لون بنفسجي باهت تكنس الأرض أمام الضريح الذي بدا أنها تسكنه مع أسرتها.

ناديتها قائلًا: «أستميحك عذرًا، هل تعرفين أين يمكنني أن أجد المدافن اليهودية؟».

«المدافن اليهودية». كررتها وهي تهز رأسها لغرابة الفكرة، قبل أن

تعاود الكنس مرة أخرى. «لا يوجد يهود هنا».

سمع رجل كبير في السن يجلس على صفيحة وقود فارغة حوارنا، فأشار لي أن أجلس بجواره.

سألني: «هل تبحث عن المدافن اليهودية؟» فرددت عليه بالإيجاب.

قال: «لم يعد لها وجود. قام مبارك برصف الطريق فوقها منذ ثلاث سنوات. يوجد مكانها الآن مركز تجاري. وقريبًا، سيتحول كل هذا أيضًا لمراكز تجارية».

كنت أعلم أن ذلك غير حقيقي. لا يمكنه أن يكون كذلك. لو كان الطريق فوق المدافن قد تم رصفه، فكيف كان والدي مدفونًا هناك؟ لكن في مدينة الموتى، بدا أي شيء ممكنًا، ولو حتى للحظة.

بعد ساعة من البحث دون جدوى، توقفت للراحة تحت ظل مبنى قصير له قبة متوجة. تبعًا للدليل السياحي، كان هذا هو قبر الخلفاء العباسيين، وواحدًا من الأضرحة المميزة في المدافن الجنوبية. نظرت في الداخل فرأيت أنه مزين بالمقرنصات الجصية المتراكبة حتى قمة القبة. كنت على وشك الدخول عندما شعرت بأحدهم يقف إلى جواري.

قال: «رسم الدخول عشرة جنيهات».

لم يبد أنه حارس رسمي، بسترته القديمة وجلبابه الرمادي القذر. لكن كان من الصعب في بعض الأحيان أن تفرق بين السلطات الرسمية وبين من يقومون بتعيين أنفسهم؛ أولئك الصغار من رجال الأعمال

الذين يمنحون أنفسهم حق السيادة على مواقف السيارات المختلفة ونواصي الشوارع والمزارات السياحية. وإلى حد ما، لم يكن هناك فارق يذكر بين الاثنين. فلو وقفت أمام شيء ما، صرت حارسًا له.

قلت له: «أنا أتأمل المكان فقط».

دون أن يرمش له جفن، مد الحارس يده قائلًا: «التأمل سيكلفك خمسة جنيهات».

ضحكت وناولته المبلغ. بعد أن قضيت معظم النهار محاطًا بالفقر المدقع وأنا أبحث عن والدي وعن مقبرة قد لا يكون لها وجود، شعرت بالسعادة لكوني طرفًا في واحدة من المعاملات التجارية البسيطة؛ تبادل المال مقابل الجهد. بينما أنا أناوله خمسة الجنيهات، تراجعت خطوة للوراء كي أتمكن من تأمل المبنى وتبعني الحارس وهو مصمم على تقديم خدماته مقابل ما دفعته من مال. انطلق يتلو قائمة من أسماء الخلفاء العباسيين ثم شرح كيف نقلت جثامينهم من بغداد للقاهرة في القرن الثالث عشر، بعد أن اجتاح المغول بغداد.

أضاف قائلًا وهو يحمي عينيه من الشمس بينما يشير لقبة المسجد التي تعلو فوق رؤوسنا: «الجميع يريدون أن يكونوا بالقرب من ضريح السيدة نفيسة، حتى الخلفاء العظماء، فهي حامية القاهرة. إنها تحمي أم الدنيا».

دومًا ما بدت لي تلك المقولة غريبة –القاهرة أم الدنيا– لكن بينما أنا أتأمل مسجد السيدة نفيسة بقبته الحجرية الصفراء التي تشرف على الماضي والحاضر، والأحياء والأموات، وأولئك الذين سيولدون في

المستقبل، فهمت كيف يمكن أن تكون هذه المدينة المتربة قد أنجبت باقي العالم.

سألني الحارس وهو يتوقف ليتفحص ملامحي بينما هو يقودني للقسم التالي من الجولة: «هل أنت مصري؟».

أوضحت قائلًا: «لقد ولدت في أمريكا، لكن والداي من مصر».

قال وهو يصافحني وكأنه يهنئني على حسن طالعي لميراثي ذاك: «أجل. كنت على يقين من ذلك. فأنا أتعرف على المصريين دومًا».

قلت له: «في الحقيقة أنا أبحث عن قبر والدي».

«هل تعرف أين تم دفنه؟».

قلت: «في البساتين». ثم صمتت برهة قبل أن أتابع قائلًا: «في مدافن اليهود».

«مدافن اليهود؟» كررها الحارس وهو يضيق عينيه ويتفحصني عن كثب أكثر.

قلت: «لم يكن والدي يهوديًّا. والدتي يهودية، لكن والدي...».

توقفت عن الحديث وحاولت أن أبدأ من جديد، أن أشرح لماذا دفن والدي المسلم في مدافن اليهود، لكن قبل أن أتمكن من النطق بالكلمات، وضع الحارس يده على كتفي.

قال وهو يمد ذراعيه ليشير لكل المقابر والمساجد وشواهد القبور التي تحيط بنا: «هذه هي المدافن التي تبحث عنها. عندما نموت، لا

يعود هناك يهودي ولا مسلم ولا مسيحي. ففي مدينة الموتى، لا يوجد سوى إله واحد».

كان محقًّا بطريقة ما. فقد كانت هذه هي المدافن التي أبحث عنها بصرف النظر عمن كان والدي أو أين تم دفنه. فالموتى يحيطون بنا دومًا، في رسائلهم وحكاياتهم، وفي أشجار الدلب هذه وفي تلك السحابة البيضاء الناعمة التي تخترق السماء كالنهر. بينما أنا أقطع طريقي عائدًا من وسط المقابر إلى شارع الخليفة، فكرت في حيوات أولئك المدفونين من حولي، وهي تتداخل وتتقاطع مع حيوات ملايين الأرواح التي تمر حاليًا في عالم الأحياء. تلك المرأة التي تبيع عصير قصب السكر، والرجل الذي يحرس قبر الخلفاء العباسيين، والخلفاء العباسيين أنفسهم، والمغول، وآل الراقب وآل شيماريا، وذلك القط الصغير المبرقش الذي يبحث عن الطعام وسط أكوام القمامة، كنا جميعًا نحيا في ذات المدينة. فكل مدينة هي مدينة للموتى، وكل واحد منا يحيا في هذا العالم الذي هو بمثابة منطقة عشوائية.

* * *

وجدت رسالتين صوتيتين عندما استيقظت من النوم لاحقًا في عصر ذلك اليوم. كانت واحدة منهما من عائشة، وقد اتصلت لتعرف ما إذا كان لديَّ وقت لنتناول الغداء معًا، والأخرى من السيد موصيري ليخبرني أن السبت القادم هو عيد بهجة التوراة وسيسعده أن أنضم له في احتفال خاص بمعبد بن عزرا. قال إنه سيكون هناك رقص وفودكا، ولو أسعدنا الحظ فقد ينضم إلينا أيضًا الحاخام سعدة. عاودت الاتصال به

على أمل أن يتمكن من وصف الطريق للمدافن بطريقة أفضل، لكن كل ما كان يرغب في الحديث عنه هو عيد بهجة التوراة فقط.

قال: «إنها النهاية، والبداية أيضًا. فالتوراة دائرة دومًا ما تعيد خلق ذاتها، وهي دومًا في طور التشكل. عيد بهجة التوراة هو تلك النقطة التي ينطوي فيها الكتاب على ذاته ليولد من جديد. نحتفل بنهاية الحكاية ثم نبدأ من جديد من نقطة البداية؛ من سفر التكوين، «وقال الله ليكن نور، فكان نور».

«لكن المدافن...» شرعت في الحديث وأنا أحاول أن أعود لسؤالي الأصلي.

قال: «أجل، أجل. بالطبع. يمكننا التحدث في الأمر يوم السبت».

قبل أن أنهي المكالمة، قال السيد موصيري إنه قد يكون من الصعب العثور على المعبد ليلًا. على الرغم من أنني زرته قبل بضعة أسابيع، فقد كرر وصفه للطريق مرتين: اتخذ الطريق الذي يقطع منتصف الحي، وانحرف يمينًا عند دير مار جرجس للراهبات، ثم يسارًا عند كنيسة أبي سرجة. لو وجدت نفسي عند مدخل مقابر الروم الأرثوذكس فهذا يعني أنني ابتعدت أكثر من اللازم.

بعدها ببضعة أيام، عندما تركتني سيارة الأجرة وسارت مبتعدة في الظلام، شعرت بالراحة لأن السيد موصيري قد صمم على تكرار إرشاداته. بعد مرورها من بين البوابات الرئيسة للقاهرة القديمة، استقرت أشعة ضوء القمر وسط ظلمة بنفسجية يتخللها ضجيج محطة

مترو الأنفاق القريبة. باستثناء ماكينة صراف آلي محطمة ومطعم يقدم ما بدا من رائحته أنه حساء العدس، فقد كانت واجهات المحلات كلها مغلقة بالأشياش المعدنية. العدد القليل من الناس الذين رأيتهم في الطريق كانوا إما يغلقون دكاكينهم وإما يسرعون في طريقهم لمنازلهم، وإما متكومين في أحد الأركان المظلمة لقضاء الليل. اتبعت إرشادات السيد موصيري وانحرفت يمينًا عند دير راهبات مار جرجس، ثم يسارًا عند ما اعتقدت أنه كنيسة أبو سرجة، لكنني لم أتمكن من العثور على المعبد. مهما سرت في أي اتجاه، ومهما قضيت من الوقت محاولًا فهم الكتابات المنقوشة على الجدران، كنت أجد نفسي المرة تلو الأخرى عند مدخل مقابر الروم الأرثوذوكس.

كنت قد ابتعدت كثيرًا للمرة الرابعة، وبدأت أشك أنني لا أتذكر الطريق بصورة صحيحة، عندما سمعت دقات لحن من ألحان الموسيقى الشعبية المصرية آتية من وراء جدار حجري. بمزيد من البحث، دخلت لزقاق مظلم حتى وصلت لبوابة حديدية مرتفعة تعلوها نجمة داوود. وحتى عندئذ، كدت لا أتعرف على المكان. كانت الساحة مظلمة تمامًا فيما عدا ضوء القمر وقوسًا من الضوء الأصفر الساطع الذي تسرب عبر الباب المفتوح لقاعة الصلاة. جلس السيد موصيري ورجل آخر افترضت أنه الحاخام سعدة عند طرف القوس يستدفئان حول مجمرة من الفحم المشتعل. كان هناك جهاز تسجيل على الأرض، بينما الحاخام سعدة يمسك بلفافة توراة في حجره.

«ها هو!».

قفز السيد موصيري من مقعده وقدمني للحاخام سعدة ولخالد، أحد حراس كنيسة أبي سرجة الذي كانوا يدفعون له مقابل أن يأتي ليلاحظ المعبد بين حين وآخر.

سألت وأنا أجول بنظري حول الساحة: «هل أتيت مبكرًا؟». فيما عدا زوجًا من القطط الرمادية اللون التي تتسلل حول أطراف الضوء، لم يكن هناك سوى نحن الأربعة.

قال الحاخام سعدة: «لا، لا. لقد أتيت في الوقت المناسب تمامًا».

أوضح السيد موصيري قائلًا: «لقد أقيمت الصلوات في وقت سابق من مساء اليوم في المعبد الجديد بوسط البلد. لكن هذا شيء نحب أن نفعله على سبيل التسلية. إنه احتفال خاص».

أخرج زجاجة من الفودكا من أسفل كرسيه وهو يغمز بخبث، وصب جرعة كبيرة لكل منا. ناول الحاخام سعدة لفافة التوراة للسيد موصيري للحظة، وألقى نخبًا قبل أن نشرب جميعًا. أحرقت الجرعة الأولى حلقي عندما ابتلعتها، لكن الثانية كانت ألطف، بينما لم أشعر تقريبًا بالثالثة. بينما أستمع دون تركيز للحاخام سعدة وهو يشرح الفصل الأخير من سفر التثنية -كيف رأى موسى أرض الميعاد من قمة أحد الجبال دون أن يصل إليها بنفسه- تركت نظري يسرح للباب المفتوح المؤدي لقاعة الصلاة، وللمقاعد الخشبية الطويلة وللخزانة التي يحفظ بداخلها سفر التوراة حتى المنصة الرخامية البيضاء التي تتوسط القاعة.

قال الحاخام سعدة: «وهكذا نمضي، وكل جيل يبني على الجيل الذي سبقه. يمكننا أن نتسلق الجبل، ولو أسعدنا الحظ فقد نلمح أرض الميعاد. لكن يجب أن نعتمد على الجيل القادم كي يكمل رحلتنا».

لطالما كانت أرض الميعاد بعيدة المنال؛ دومًا تقع بعد قمة المرتفع التالي. على الرغم من ذلك، استمر التجوال، جيلًا بعد جيل. تتكرر نفس الحكايات، عامًا بعد عام، ودومًا على أمل أن نهاية الرحلة قد صارت وشيكة. بعد كل هذه السنوات من التجوال، لا بد وأن هناك شيئًا ما في نهاية المطاف.

إلا بالطبع لو كان التجوال هو صلب الحكاية، وهدف في حد ذاته. في تلك الحالة، فلن يكون هناك شيء سوى الصحراء؛ مساحة لا متناهية من الرمال مع الأمل بوجود واحة ما في طرف من أطرافها المترامية. وبعد مائتي أو ثلاثمائة عام، لن تختلف معابد سان فرانسيسكو أو نيويورك عن هذا المعبد؛ مجرد قشور خاوية متربة لفخامة قد انقضت، قد يتوقف المرء لزيارتها في طريقه لجسر البوابة الذهبية أو لتمثال الحرية. بدت الفكرة مريحة بطريقة غريبة، أنه بعد بضعة قرون من الآن، ستحكي مجموعة من اليهود نفس هذه الحكايات في بانكوك أو كالكتا، وهم يؤمنون مرة أخرى أنهم قد وصلوا لمينائهم الآمن، وأن رحلتهم الطويلة قد وصلت لنهايتها أخيرًا.

«وهذه هي نعمة الرب». ختم الحاخام سعدة حديثه. وضع يده في المكان الذي يفترض أن يوجد فيه كتف التوراة، لو كان للتوراة أكتاف. «دفن يوسف والده بيديه. وقام موسى بحراسة عظام يوسف. أما دفن

موسى فقد أشرف عليه الرب نفسه».

قال السيد موصيري وهو يصب لنا المزيد من الفودكا: «رائع. إنه لمن المؤسف حقًّا أننا لا يمكننا الاستعانة بك هنا طوال العام».

راقبت الحاخام سعدة وهو يتجرع كأسه.

قلت: «كنت أعتقد أنك أنت الحاخام هنا، في القاهرة».

بينما الكلمات تتعثر خارجة من فمي، سمعت أثر الفودكا على نطقي للحروف.

قال الحاخام سعدة ضاحكًا: «لا، بل أعرض خدماتي كحاخام مقابل المال. لقد ولدت هنا في المعادي، لكنني عشت معظم حياتي في إنجلترا، على الجهة المقابلة من الطريق أمام الجنيزة».

«الجنيزة؟».

كرد فعل تلقائي، التفت لغرفة العلية في المعبد، ولاحظت سلمًا خشبيًّا قديمًا مستندًا على مدخل الغرفة المفتوح.

صححه السيد موصيري قائلًا: «وثائق الجنيزة». ثم استدار ناحيتي. «معظم وثائق الجنيزة في كامبريدج».

«كامبريدج». قلتها وأنا أحاول أن أتذوق الكلمة على لساني. «وكيف...».

ظهرت ملامح فكرة ما، ثم اختفت وسط الضباب.

قال الحاخام سعدة وهو ينهض مستندًا على ركبتي قبل أن يجذبني كي أنهض أنا الآخر: «والآن، نحتاج لبعض الموسيقى».

رفع خالد صوت جهاز التسجيل الخاص به، وبينما نبض الموسيقى يسري في جسدي، شبك السيد موصيري وخالد والحاخام سعدة أيديهم معًا. داروا حولي جميعًا وهم يرقصون رقصة الهورا بشكل مرتجل. كان الرقص بطيئًا لدرجة تسمح للحاخام سعدة بمجاراتهما، لكن في ذات الوقت كانت السرعة تصيبني بالدوار.

قال السيد موصيري وهو يناولني لفافة التوراة: «أمسكها كما تمسك طفلًا رضيعًا».

لم يسبق لي وأن حملت رضيعًا من قبل، لكنني كنت أعرف الفكرة الأساسية: أن أمسك الرأس في يدي وأسند الجسد. أغمضت عيني وأنا أتمايل مع الموسيقى. شعرت بالنبض المنتظم الصادر من اللفافة وبدفئها كأنها حجر رقد اليوم بأكمله تحت حرارة الشمس. كان هناك ثلاثة أشخاص فقط في الدائرة، لكن من ورائهم استشعرت وجود كل أولئك الذين سبقونا؛ كل آل شيماريا وآل الراقب الذين تمحورت حياتهم حول هذا المكان، أولئك الذين قاموا بالصلاة في المعبد وأولئك الذين قاموا بحراسته.

بعد بضع أغنيات، جلسنا ثانية وأخذ السيد موصيري اللفافة للداخل. كانت المقاعد الخشبية الطويلة تلتمع كأنها في مشهد من أحد الأفلام، أو مثل بطاقة بريدية في حلم ما. تكسر الضوء بينما أنا أراقب السيد موصيري وهو يصعد الدرج للقسم المخصص للسيدات. اختفى وراء مجموعة من الأعمدة، ثم صعد لمنتصف السلم المؤدي لغرفة العلية وهو لا يزال يحمل اللفافة كالرضيع. ساعتها فقط فكرت

في طبيعة ذلك الشيء الذي حملته. في غيابها شعرت بذلك الإحساس بالوخز كتيار كهربي طفيف. نقلت نظري بين الحاخام سعدة وخالد بينما أنا أحاول أن أصيغ سؤالًا ما، عن اللفافة، وعن والدي، وعن قصاصة الورق تلك، وعن وثائق كامبريدج.

«هل كانت هذه...».

قبل أن تكتمل الفكرة في عقلي، خرج السيد موصيري خالي الوفاض وابتلعت أنا باقي كلمات الجملة.

* * *

سألني عبد الله في وقت لاحق من ذلك المساء بعدما حكيت له عن الحاخام سعدة وعن اللفافة: «هل تعتقد أنها كانت لفافة عزرا؟».

قلت: «لا أدري».

كنت لا أزال أشعر بالدوار من أثر الفودكا، وأشعر بوقع الموسيقى. لم أرغب في الحديث عن أي شيء من ذلك. تمددت على الأريكة وحاولت جذبه نحوي.

قال عبد الله بتصميم وهو يجلس معتدلًا: «ربما كان عمك مخطئًا. ربما لم تُسرق اللفافة. ربما استعادوها من الشرطة».

قلت: «ربما».

عدلت وضع رأسي على مسند الأريكة وتأملت انعكاسات الثريا على الجدار بينما أحاول تذكر ما قاله الحاخام سعدة عن موسى على قمة الجبل، وعن عظام يوسف وعن أرض الميعاد. فكرت في أمر

الجنيزة -كل تلك الوثائق وكل تلك الحكايات- كمية لا متناهية من الأوراق مبعثرة في المكتبات حول العالم، بينما الجنيزة ذاتها قد صارت مثل المنجم الخاوي. فكرت في والدي، وهو يحزم أغراضه ويرحل ليستقر في شقة شقيقه الأصغر، وتخيلته جالسًا هناك على الكرسي البرتقالي في ركن الغرفة وهو يتحسس حافة القصاصة بإصبعه.

كانت قصاصة الورق تلك هي الشيء الوحيد الذي يمتلكه؛ صلته الوحيدة بعالم لم يعد له وجود، حتى من قبل حرب يوم كيبور، وقبل ناصر وجولدا مائير، وقبل خلق دولة إسرائيل وظهور القومية العربية. كانت هي الدليل الوحيد أن حكاياته أكثر من مجرد خيال. كانت هي الشيء الوحيد الذي يمتلكه، والدليل المادي الوحيد على ما فقده. وعلى الرغم من ذلك، كنت أحب أن أتخيل أنه حتى وهو غارق في الاكتئاب، ويمرر أنامله فوق أحرف الكلمات على القصاصة، ويتذكر تفاصيل خزيه العظيم، كنت أحب أن أتخيل أنه حتى في تلك اللحظات كان يفكر فيَّ. وربما كان يسعده ذلك، أن يفكر أنه في يوم ما قد يعطي تلك القصاصة لابنه، للحلقة الأخيرة من السلسلة التي امتدت طوال ألف عام.

سألني عبد الله ثانية ليعيدنا للسؤال الأصلي مرة أخرى: «ماذا تعتقد أنت؟ هل تعتقد أنها كانت اللفافة؟».

قلت وأنا أنقلب لأتمدد على بطني: «لا أدري».

سيكون أمرًا لطيفًا لو تمكنت من تكفير ذنب والدي وإعادة كتابة نهاية حكاية عمي حسن، وإثبات أن الأمر كله كان مجرد سوء تفاهم،

وسر أخفته الطائفة اليهودية حتى عن حارسها الأمين.

«لكن...».

لكن بطريقة ما، فلم يكن يهم ما إذا كانت اللفافة لا تزال هناك، مخبأة في غرفة العلية بالمعبد. فقد كان ما يهم هو السؤال، لا الإجابة. فأي قوة قد تمتلكها لفافة عزرا لم تكن كامنة في اللفافة ذاتها؛ لم تكن كامنة في الرق نفسه ولا في الأحرف المكتوبة ولا حتى في اليد التي خطتها. كان سحر لفافة عزرا، لو كان هناك سحر بالفعل، يكمن في احتمال وجودها وفي مجموع الحكايات التي تدور حولها. والقلب النابض لأي حكاية هو سؤال لا يمكن الإجابة عنه.

* * *

- ١٥ -

«هل أريتكم رسالتي التي كتبتها لصحيفة التايمز؟».

كان الدكتور شيختر والآنسة دو ويت والشقيقتان يقفون معًا على رصيف محطة القطار على مبعدة بضع مئات من الياردات من ضجيج محطة السكة الحديد بالقاهرة وهم يراقبون مجموعة من الحمالين الذين يحملون صناديقهم الثمينة داخل المقصورة ذات اللون الأزرق التي حجزها لهم اللورد كرومر.

قالت أجنيس وهي تحاول كتم سعالها: «لا. لكن لو كانت لديك نسخة فسيسعدنا الاطلاع عليها».

لحسن الحظ، كانت معه نسخة، وبحركة مسرحية أخرج الدكتور شيختر الرسالة المطوية من جيب سترته الداخلي وشرع يقرأ بصوت مرتفع. بعد بضع فقرات من المقدمة، قدمت الرسالة وصفًا تفصيليًّا للجنيزة.

«إنها ساحة للمعارك بين الكتب، وقد كان للنتاج الأدبي لقرون عديدة نصيب في تلك المعركة. والآن، ترقد أشلاؤهم المتناثرة مبعثرة

في المكان. لقد هلك بعض المتحاربين تمامًا، وقد انسحقوا حرفيًّا ليصيروا ترابًا وسط ذلك التقاتل الرهيب للحصول على حيز، بينما هناك آخرون لم ينجحوا في الهرب من الانسحاق وسط الزحام فانضغطوا على شكل كتل كبيرة مشوهة».

استمرت الرسالة في وصف الأشكال المختلفة من المتحاربين في معركة الكتب هذه –أناجيل قديمة، وعقود إيجار عتيقة، وعقود زواج، وكتب عقلانية تنكر وجود الملائكة والشياطين، وتمائم تستعين بالشياطين لقضاء حوائج متعلقة بأمور القلب– لكن الدكتور شيختر لم يذكر ولو لمرة واحدة مساعدة أو مشاركة أي شخص آخر، لا الآنسة دو ويت ولا السيدة جيبسون والسيدة لويس. كانت الشقيقتان قد اعتادتا ذلك النوع من التجاهل، إلا أن الأمر كان لا يزال مؤلمًا. عندما انتهى من القراءة، أعاد الدكتور شيختر طي الرسالة ورفع رأسه ليطالع مستمعيه.

قال وكأنه يضيف جملة أخيرة في نهاية الرسالة: «لم أكن لأتمكن من إنجاز الأمر دون مساعدتكن».

ابتسمت مارجريت قائلة: «أجل، شكرًا جزيلًا لأنك ذكرت ذلك».

لم تكن مارجريت متأكدة ما إذا كان الدكتور شيختر قد انتبه لنبرة السخرية في صوتها. فقد كان دومًا ما يفسر الأمور بطريقة حرفية للغاية، وبالإضافة إلى ذلك فلم تكن متأكدة مما إذا كان قد سمع عبارتها من الأساس. فبينما هو منشغل بطي الرسالة، تحول انتباهه إلى زوج من الحمالين كانا يحاولان حشر صندوق ضخم عبر باب مقصورة القطار.

«بحرص،» صاح باللغة العربية بينما هو يسرع تجاههما كي يرشدهما للطريقة الصحيحة للتعامل مع الصناديق. «أرجو أن تتعاملا معها بحرص».

قالت الآنسة دو ويت بعد أن ابتعد لدرجة تمنعه من سماعها: «إنه يشعر بإثارة بالغة».

«يبدو أنه كذلك بالفعل».

«وهو يقدر مساعدتكما بالفعل».

فكرت مارجريت قائلة: «أجل، يبدو أن لكل شيء قيمته. أليس كذلك؟».

كانت لدى الدكتور شيختر أسباب وجيهة كي يشعر بالإثارة، فقد حصل على وثائق الجنيزة. ورسالته لصحيفة التايمز -التي وافق المحررون على عدم نشرها حتى تصل الوثائق بسلام إلى مكتبة جامعة كامبريدج- سوف تساهم في نشر اسمه في أرجاء إنجلترا. هل كان بوسع أجنيس ومارجريت لومه على إغفال ذكرهما، الأرملتان العجوزتان اللتان أسهمتا في نجاحه؟

بينما هما تراقبان الدكتور شيختر وهو يعطي تعليماته للحمالين، لاحظت الشقيقتان شعورًا جديدًا بالثقة يشع منه من وراء مظهره الأكاديمي المألوف. كان المستقبل زاهرًا بالنسبة للدكتور شيختر، فستتم دعوته ليلقي المحاضرات في الأوساط العلمية، وسيتلقى الدعوات لتناول الغداء مع النبلاء، وبعد تناول بضعة مشروبات، سيروي حكايته،

الحكاية الشهيرة المتعلقة بكيفية اكتشاف الدكتور شيختر للجنيزة. لكن حيث إنه كان يهوديًّا، فلن يصير بمقدوره بالطبع أن يصبح أستاذًا في كامبريدج. إلا أنه على الرغم من ذلك سيتمتع بمستقبل مهني لامع. في يوم ما، سيتردد اسم سولومون شيختر على ألسنة أطفال المدارس حول العالم.

سألت الآنسة دو ويت: «هل سترحلان غدًا؟».

أكدت مارجريت قائلة: «في قطار بريد الساعة الرابعة المتجه إلى السويس. سنلتقي مع الجمال هناك ونتوجه للصحراء».

على الرغم من أنهما كانتا تتطلعان لزيارة الصحراء، إلا أن الشقيقتين كانتا تشعران بالحزن نوعًا ما لأنهما كانتا ستخلفان وراءهما القاهرة – ولفافة عزرا.

قالت الآنسة دو ويت وهي تصفق بيديها: «يا له من أمر رائع. لكنكما زرتما الصحراء من قبل مرات عديدة، لذا فهي غالبًا ما تبدو لكما بمثابة بيتكما الثاني».

قالت أجنيس: «سيدهشك مدى صعوبة أن يتأقلم المرء معها. حتى بعد كل هذه الزيارات العديدة، فلا تبدو الليالي الباردة أقل برودة ولا الرحلات الطويلة على ظهور الجمال أقل طولًا».

أضافت مارجريت قائلة: «إن المدى الشاسع للمكان يتجاوز قدرة البشر المحدودة على الفهم. أعتقد أن حتى البدو أنفسهم يستيقظون كل صباح ويغمرهم الشعور بالدهشة».

بينما هي تحاول أن تشرح ذلك الإحساس -أن تستيقظ وحيدًا وسط الصحراء- وصل كبير الحاخامات والسيد بيخو في عربة تحمل ستة ألواح خشبية طويلة. كانت هي ذات الألواح التي أشار إليها الدكتور شيختر أثناء زيارتهم الأولى للمعبد.

قال الحاخام بن شيمون وهو ينضم للسيدات بينما ذهب السيد بيخو ليساعد في الإشراف على الحمالين: «نشعر بالسعادة البالغة لأن الدكتور شيختر وافق على أن يجد لهم مكانًا ملائمًا. وبالطبع كنا نرغب في وسيلة لنعبر بها عن شكرنا».

أوضح قائلًا إن هذه الألواح ظلت لمئات السنين تستخدم كحدود حول مدخل المعبد. نقشت على كل لوح فقرة من الكتاب المقدس، أو بضع كلمات للإهداء، تتمنى البركة لأولئك الذين ساهموا في ترميم المعبد. بينما هي تراقب أحد الألواح الطويلة وهو يختفي داخل عربة القطار، خيل لأجنيس أنها قد تعرفت على عبارة من إحدى المزامير المفضلة لديها.

غمغمت قائلة: «ادخلوا أبوابه بحمد، دياره بالتسبيح. احمدوه، باركوا اسمه».

قال الحاخام بن شيمون وكأنه يرد على المزمور: «أرجو أن تخبرانا لو كانت هناك أي طريقة نشكركما بها على كرمكما وعلى مهارتكما في التعامل مع هيئة الجمارك».

بدا وكأن الشقيقتين ستفوتان عرضه هذا. صمتت كلتاهما للحظة، بينما هما تراقبان الألواح التي يتم حملها من العربة إلى القطار مثل

أجزاء من تاج محطم. ثم تحدثت مارجريت قائلة:

«قد يكون هناك شيء ما».

«نحن في خدمتكما».

«لقد افتتنت أنا وشقيقتي مؤخرًا بلفافة عزرا».

لم توضح أكثر من ذلك. وعلى الرغم من أنها لم تطلب بصورة مباشرة، إلا أن كبير الحاخامات سعل سعلة خفيفة أوضحت أنه يفهمها تمامًا.

قال وهو يلقي بنظره عبر رصيف المحطة ناحية السيد بيخو: «أعتقد أنه ربما يمكننا ترتيب شيء ما. هل لديكما أي ارتباطات الليلة؟».

«لا شيء على الإطلاق».

«إذَنْ سألتقيكما في فندقكما في الساعة التاسعة».

أكدت أجنيس قائلة: «الساعة التاسعة مساء».

أضاف الحاخام بن شيمون قائلًا: «السيد الراقب يتحدث عنكما بتقدير بالغ». وكأنه يوحي أن دعوته لهما تعتمد بشكل كبير على تزكية الحارس لهما.

قالت أجنيس: «أظن أنه سيكون موجودًا الليلة. فلدينا هدية بسيطة نرغب في تقديمها له على سبيل الشكر».

«هدية على سبيل الشكر؟» ألقى السيد بيخو السؤال وهو يقحم نفسه وسط دائرتهم بعد أن عبر رصيف المحطة بسرعة. «أنتما من تستحقان الشكر، يا سيداتي الرائعات، وليس العكس».

انحنى وهو يمسك بيد كل سيدة منهن.

قالت مارجريت: «وأنت يا سيد بيخو، لا بد أنك تشعر بالسعادة البالغة الآن لأنك تعرف أن وثائق الجنيزة صارت آمنة».

قال «بالطبع». ثم توقف عن الحديث ليعدل من وضع زر على كم قميصه. «لكن هناك شيئًا واحدًا...».

قالت أجنيس على الرغم من أن نبرة صوتها لم تكن ودودة: «أجل».

«هل سنحت لكما الفرصة لكتابة خطاب التزكية لابني، مارسيل؟».

فتحت مارجريت فمها وهي تنتوي إلقاء الخطبة العنيفة التي أعدتها خلال أيام الماضية. لكن عندما شعرت بيد شقيقتها على مرفقها، تريثت لتعيد التفكير في أسلوبها.

قالت أجنيس: «لم نقم بكتابتها بعد، لكننا سنفعل عصر اليوم. وأعتقد أنك ستسعد بالنتيجة».

حملقت مارجريت في شقيقتها غير مصدقة بينما شكرهما السيد بيخو وقبّل يديهما مرة ثانية قبل أن يستدير منصرفًا.

سألت في طريق عودتهما للفندق: «هل حقًّا ترغبين في كتابة تلك الرسالة؟».

قالت أجنيس: «لا ذنب للفتى. بل إنه في الواقع يستحق تعاطفنا».

صمتت للحظة ثم أمالت رأسها وكأنها تحاول استرجاع ذكرى معينة.

«ماذا قال والدنا بعد تلك المشكلة مع ابن عمه؟».

قالت مارجريت وهي تقلد صوت والدهما الغليظ الأجش: «الرحمة أقوى من العدل، والتسامح أعظم من الانتقام».

اقترحت أجنيس قائلة: «أعتقد أن اللورد كرومر قد يوافق على التوسط لمارسيل».

«أعتقد أنه قد يفعل». قالتها مارجريت وهي تبتسم لنفسها بسبب تعاطف شقيقتها غير المتوقع. «أعتقد أنه قد يفعل لو طلبنا ذلك منه».

* * *

بينما هما جالستان بالقرب من بعضهما في عربة كبير الحاخامات، تركز انتباه أجنيس ومارجريت على ضوء مصباح العربة، وصوت حدوات الخيل وهي تطرق الطريق، وروائح الغداء الذي يتم إعداده في المنازل المحيطة. كم طال انتظارهما لهذه اللحظة؟ كم ليلة سهرتا وهما تفكران في احتمال وجود لفافة عزرا؟ والآن، ها هما في طريقهما لرؤيتها. كان عليهما أن يسألا بالطبع، فعلى المرء دومًا أن يسأل عما يريده. لكن ما إن قدما طلبهما حتى تم تلبيته بكل بساطة.

سأل السيد الراقب وهو يفتح بوابة المعبد: «ألن ينضم إلينا السيد بيخو؟».

لم يرد الحاخام بن شيمون، لكنهما تبادلا نظرة تنم عن وجود تفاهم بينهما، هز الحارس رأسه على إثرها. لاحظت أجنيس ومارجريت ما حدث، وأدركتا أنه لا حاجة بهما لفضح أمر السيد بيخو. كان الحاخام بن شيمون والسيد الراقب يعلمان بالفعل بأمر تسرب الجنيزة وتجار

الوثائق في السوق السوداء والمقبرة، بالإضافة للكثير مما لا يمكن للمرء تخيله. فعلى الرغم من أنه لم يتم الحكم على السيد بيخو بعد، إلا أنه كان على وشك مواجهة أقسى أنواع المحاكمة على يد الغاضبين من أعضاء طائفته.

قال السيد الراقب وكأنه يرحب في بيته ببعض الضيوف الذين أتوا للزيارة فجأة: «تفضلوا من هذا الطريق».

بعد المعلومات التي صارت لديهما الآن، شعرت الشقيقتان بسخافة شكوكهما السابقة في السيد الراقب. لكن إحساس المرء بالحرج دومًا ما يكون أشد بالطبع عندما يتأمل المواقف في وقت لاحق بعد حدوثها.

قالت أجنيس وهي تنحني انحناءة صغيرة: «شكرًا».

بينما هم يسيرون في طريقهم نحو الوميض الذهبي للضوء الذي ينير المعبد من الداخل، ألقت أجنيس نظرة تجاه منزل السيد الراقب. على عتبة بابه كانت هناك حوالي دستة من القطط التي لها لون رمادي فاتح متجمعة حول قدمي فتى لا يزيد عمره عن ستة عشر عامًا، بدا وكأنه يطعمهم بقايا عشائه. بدت القطط وهي متجمعة حول الطعام وكأنها كائن واحد يلتمع باللون الفضي تحت ضوء المصباح.

قال السيد الراقب: «ابني الأصغر، راشد». ثم أضاف وكأنه يشعر بالحرج من كرم الفتى: «إنه متعلق للغاية بتلك القطط».

نظرت كلٌّ من أجنيس ومارجريت للفتى. كان هو الابن الذي تم ضبطه متلبسًا في علاقة مع مارسيل بيخو. كان فتى ضئيل الحجم له

عينان خضراوان وشعر مهوش له لون بني داكن. عندما لاحظ الشقيقتين وهما تراقبانه، جمع أشياءه ودلف للداخل.

قال السيد الراقب وكأنه يحدث نفسه: «إنه فتى طيب، لكنه بحاجة لشيء يبقيه منشغلًا».

قالت مارجريت: «لو لم يكن لديك مانع، أعتقد أننا ربما يكون لدينا شيء مناسب. عندما قابلنا اللورد كرومر منذ بضعة أيام، ذكر أنه يبحث عن شخص ليساعد في أعمال المنزل. لو كنت تعتقد أن ابنك قد يوافق...».

رفعت أجنيس حاجبًا. فلم يقل اللورد كرومر أي شيء من هذا القبيل، لكنها كانت فكرة جيدة للغاية. سواء كان يبحث عمن يعاون في أعمال المنزل أم لا، فقد كان بمقدور القنصل العام بالتأكيد أن يجد عملًا مناسبًا للفتى، بعيدًا عن نظرات الناس له في القاهرة القديمة.

قال السيد الراقب: «أجل، شكرًا».

أضافت أجنيس قائلة وهي تمد يدها في حقيبتها: «كدت أنسى، فلديَّ أنا وشقيقتي هدية بسيطة لك تعبيرًا عن شكرنا».

كانتا قد قضتا فترة من الوقت عصر ذلك اليوم للعثور على إطار زجاجي وعلبة من الجلد الأحمر تلائم القصاصة التي أرادتا إهداءها للحارس.

قالت مارجريت: «هذا أقل ما يمكننا أن نفعله، بعد كل مساعدتك لنا».

شكرهما السيد الراقب مرة أخرى بينما هو يقلب العلبة بين يديه قبل أن يفتحها ويتفحص اللوحة النحاسية التي بالداخل ويتحسس البطانة المخملية السوداء بإبهامه. بصرف النظر عما إذا كان يدرك أهمية القصاصة التي ترقد داخل العلبة أم لا، فقد بدا عليه أنه يقدر المشاعر التي دفعتهما لتقديم الهدية. بعد أن حملق فيها لفترة طويلة، أغلق العلبة ووضعها في جيب جلبابه، ثم قادهم ناحية الضوء الأصفر الدافئ الصادر من المعبد.

قال الحاخام بن شيمون وهو يتنحى جانبًا ويمد ذراعه: «ها هي».

في منتصف قاعة الصلاة، كانت هناك لفافة توراة عتيقة مفرودة على منصة رخامية سداسية الأضلاع. حبست أجنيس أنفاسها بينما تقدمت مارجريت ومالت للأمام لتتفحص اللفافة، بحيث كاد وجهها يلتصق بالرق. كان مشققًا وتميل أطرافه للون البني، وقد فتح على الفقرة الخاصة بسفر الخروج حيث شاهد موسى شجرة تتقد بالنار دون أن تحترق. فكرت أجنيس: قبل المسيح بأربعمائة عام، أخذ عزرا –الكاتب العظيم، والزهرة التي تفتحت على الأرض– أخذ على عاتقه مهمة جمع نسخة لا يرقى لها الشك من النصوص المقدسة العبرية، دون خطأ أو تزييف. وها هو، النص الأصلي الذي تقارن به كل النصوص الأخرى. لقد سُمِّي المعبد على اسمه؛ بن عزرا. فقد كان كل المؤمنين، بطريقة أو بأخرى، أبناء عزرا. كانوا جميعًا يدينون بأساس إيمانهم لنصه هذا.

ارتجفت مارجريت وهي تقرب أنفها من الرق العتيق لتستنشق رائحته التي تميل للرطوبة. لا يمكن للمرء أن يسمع كلمة الرب سوى

داخل قلبه الذي ينعم بالسكون. كانت تؤمن بذلك بكل جوارحها. وعلى الرغم من ذلك، بينما هي تقف بجوار المنصة شعرت بدفء يشع من تلك الأحرف المزخرفة المائلة بنعومة ويلفح وجهها. لو كانت لديها شجرة متقدة تخصها، لكانت هي هذه اللفافة.

قالت وهي تبتسم مبتهجة كصبية قبل أن تبتعد لتعطي شقيقتها فرصة كي تلقي نظرة هي الأخرى: «رائع».

أول ما لاحظته أجنيس بخصوص اللفافة هو لون الرق، خاصة من الخلف. عبر القرون، اصطبغ بذلك اللون الرمادي المائل للبني المميز لجلد الماعز المعالج. لكن ما لفت نظرها بصفة خاصة هو النعومة البالغة لسطح الرق، مما يدل على أنه قد تمت إزالة شعر الماعز باستخدام الكلس. كان ذلك الأمر مثيرًا للشك، فتبعًا لما هو متعارف عليه، بدأت عملية إزالة شعر الحيوانات من الجلود باستخدام الكلس في إيطاليا حوالي ألف عام بعد ميلاد المسيح. قربت أجنيس وجهها من الرق بدرجة أكبر. كادت تشم رائحة الكلس، بعد أكثر من ألف عام من استخدامه.

كان من المحتمل بالطبع أن هذه الطريقة في معالجة الجلود قد نشأت قبل فترة زمنية أكبر مما هو متعارف عليه. ومن المحتمل أيضًا أن يكون عزرا قد اختار جلد الماعز لكتابة لفافته بدلًا من جلد العجول أو الخراف اللذين كان الناس يفضلونهما في العادة . على الرغم من كل ذلك، لو كان على أجنيس أن تخمن دون أن تعرف أي شيء عن أصل اللفافة، لقالت بأنها تعود لوقت ما في الفترة الزمنية بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر. كما كانت ستخمن أن اللفافة قد تم إعدادها في

مكان ما من جنوب أوروبا.

قالت أجنيس وهي تتفادى نظرة شقيقتها: «رائع». ثم استدارت للحاخام بن شيمون: «شكرًا جزيلًا على هذه الفرصة».

ماذا كان بوسعها أن تقوله غير ذلك؟ فلم يكن بمقدورها أن تخبرهم عن نظريتها. فلو فعلت، ستحرم الطائفة اليهودية من أكثر ممتلكاتها قداسة. أما ما هو أفدح من ذلك، فستبدو وكأنها تتهم الحاخام بن شيمون بتزييف الحقائق عن عمد. لذا احتفظت بأفكارها لنفسها حتى انفردت مع شقيقتها في غرفة فندقهما بينما هما ممددتان في الظلام.

همست قائلة: «ميجي».

«ماذا هناك؟».

قالت: «إنها اللفافة. فأنا شبه متأكدة إنها من جلد الماعز المعالج بالكلس».

كانت معلومات مارجريت أقل بكثير من معلومات شقيقتها فيما يتعلق بالتعرف على الوثائق القديمة، لكنها فهمت على الفور أهمية هذا التخمين. ساد بينهما الصمت لفترة طويلة، مدت خلالها أجنيس يدها لتمسك بيد شقيقتها.

سألت مارجريت: «إلى أي درجة تشعرين أنك متأكدة؟».

«ليس بوسعنا التأكد تمامًا من مثل هذه الأمور».

«ليس بوسعنا التأكد تمامًا من أي شيء، أليس كذلك؟».

«كلا، لا أعتقد أنه يمكننا ذلك».

ربما كان من الأفضل لو لم تشاهدا اللفافة أبدًا؛ لو تمكنتا من الاستمرار في تخيلها بصورة مثالية. وفي ذات الوقت، كانت كلٌّ منهما تشعر بالراحة إلى حد ما في غياب اليقين التام، وفي تلك المساحة الغائمة ما بين كلمة الرب الحق وتفسير تلك الكلمة. ألم يكن السعي وراء معنى ماهو مقدس هو ما يمنح لحياتنا مغزى؟ تلك المسافة الفاصلة في الإيمان بين القربان المقدس ودم المسيح، وفلسفة كيركجور، والمسافة بين سلسلة رواة الحديث والكلمات الحقيقية لمحمد، والقماش الأسود الذي يعزل الكعبة عن الحجاج الطائفين حولها، وتوق اليهود العارم لسكنهم في القدس، ولهيكل تم تدميره؛ كل هذه القفزات الإيمانية تمتلئ بالقداسة في حد ذاتها. لذا فإن فكرة اللفافة تعد حقيقية تمامًا كاللفافة نفسها.

وكان لا يزال بمقدورهما الشعور بالأمل، أليس كذلك؟ ألم يكن من المحتمل أن اللفافة التي شاهدتاها لم تكن سوى نسخة على سبيل الخداع؟ وفي هذه الحالة، فإن لفافة عزرا موجودة بالفعل، تختبئ داخل خزانة في مكان ما، في انتظار أحد العلماء كي يكتشفها. أو ربما لم يكن من المفترض الكشف عن اللفافة الحقيقية. ربما كان من المفترض أن تبقى لفافة عزرا مختبئة للأبد في خزانتها المظلمة في الشوارع الخلفية للقاهرة القديمة، منسية دون أن يمسها أحد أو يكتشفها أحد حتى نهاية البشرية.

* * *

- ١٦ -

قبل مغادرتي للقاهرة ببضعة أيام، ذهبت لزيارة عمي حسن وعمتي بسيمة كي أتناول غداء يوم الأحد معهما للمرة الأخيرة. أعدت عمتي بسيمة طبقي المفضل منذ طفولتي، الدجاج المتبل بالليمون والمغطى بالبقسماط، وتحدثنا عن خططي للفصل الدراسي القادم. شكرتهما على كرمهما، وبينما هو يعانقني مودعًا أخبرني عمي حسن أنني مرحب بوجودي في أي وقت.

قال وهو يمسك بكتفي كي يتأملني بصورة أفضل: «أنت فتى طيب. كان والدك سيشعر بالفخر».

بعد تناول الغداء، عرضت عليَّ عائشة أن تقوم بتوصيلي. عم الصمت بيننا لفترة وهي تقود السيارة في الطريق مرورًا بمدخل نادي المعادي الرياضي بلافتته المكتوبة بأحرف مذهبة، وفوق قضبان مترو المعادي ثم خلال قلب المعادي بشوارعه المزدحمة بمطاعم الوجبات السريعة والباعة الذين يعرضون الأجهزة الإلكترونية على الأرصفة. بعد أن انحرفت إلى الطريق الرئيس المؤدي شمالًا ناحية وسط البلد، ظهرت هيئة هضبة المقطم وهي ترتفع في الأفق.

سألتها: «هل تعرفين الطريق إلى البساتين؟».

قالت: «المدافن؟ بالطبع، فهي متفرعة من الطريق إلى هليوبوليس».

قلت: «هل تمانعين لو توقفنا هناك في الطريق إلى البيت؟».

«لا، على الإطلاق».

بعدها بعدة دقائق كنا على الطريق المؤدي إلى هليوبوليس، وقد تناثرت على جانب الطريق السريع العمارات السكنية والمراكز التجارية التي لم يكتمل بناؤها بعد، بينما الجانب الآخر انتشرت فيه المصانع وأبراج الإرسال اللاسلكي والمنشآت العسكرية. بعد فترة، انحرفنا من الطريق ودخلنا في طريق فرعي ترابي يؤدي لمنطقة صناعية ازدحمت بقاطعي الأحجار وصانعي الطوب. تعفر الجو بمواد البناء المسحوقة، بينما كانت المركبات الأخرى الوحيدة الظاهرة هي الرافعات الشوكية والشاحنات المحملة بالقرميد والأعمدة الحجرية والرجال المتعبين الذين تكسوهم الأتربة.

بعد المخازن، وعند منحنى في الطريق السريع، وجدنا المدافن اليهودية، البساتين، وبوابتها الأمامية مغلقة بسلسلة سميكة وقفل بدا كأنه لم يُفتح منذ سنوات طويلة. انتظرت عائشة في السيارة بينما بحثت أنا عن مدخل آخر وصحت مناديًا على شخص ما يمكنه مساعدتي في الدخول. بعد بضع لحظات، أتى قاطع أحجار من إحدى الورش القريبة ليستطلع الأمر.

قال وهو يشير إلى القفل: «ممنوع الدخول».

سألته: «هل تعرف ما إذا كانت هناك طريقة أخرى للدخول؟ والدي مدفون هنا».

هز قاطع الأحجار رأسه، وبعد التفكير في الموضوع، شبك يديه ووقف بجوار البوابة الأمامية.

قال وهو يرفعني أعلى السور: «كن على حذر. فهناك أشباح بالداخل».

بعد أن دخلت المدافن، تمكنت من العثور على قبر والدي دون صعوبة تذكر. كان القسم المخصص لغير اليهود محاطًا بسور قصير من الطوب، ويقع في الركن البعيد بين البوابة الرئيسة وضريح مويس قطاوي. كان قبر والدي في الخلف، له شاهد بسيط أسود اللون وقد نقش عليه اسمه وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته، بالإضافة إلى آية قصيرة من القرآن: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾. وقفت جوار القبر لفترة طويلة. ثم ركعت وأرحت جبهتي على الرخام الأسود الدافئ. أغلقت عيني، وعندما فتحتهما ثانية شاهدت تكثف أنفاسي على السطح الحجري.

كانت هناك الكثير من الأشياء التي أرغب في إخباره عنها: عن القصاصة، وعبد الله، والسيد موصيري، وعن اللفافة التي حملتها مثل الرضيع، التي ربما تكون أو لا تكون هي ذات اللفافة الموجودة في قصاصة الصحيفة، والتي ربما تكون أو لا تكون هي ذات اللفافة التي

أُخذت من المعبد. لكن في نهاية المطاف، بدلًا من أن أخبره أي شيء، سألته السؤال الذي كنت أرغب في إلقائه عليه لسنوات طويلة.

«هل يمكنك أن تروي لي حكاية؟».

انتظرت للحظة، ورفعت رأسي ناظرًا لهيئة هضبة المقطم وأنا أستمع لضجيج قاطعي الأحجار والطريق السريع والطيور المغردة بين أفرع شجرة الدلب القريبة. ثم نهضت واقفًا وأنا أنفض التراب عن ركبتي ووضعت حجرًا صغيرًا أعلى قبره. في طريقي للخروج، وجدت شاهدي قبر جدَي والدتي. بعد أن قدمت التحية لهما ولصف كامل من آل شيماريا، قفزت من أعلى السور مرة أخرى وطلبت من عائشة أن توصلني للمنزل.

سألتني عندما عدنا للطريق الرئيس مرة أخرى: «هل وجدته؟».

قلت: «أجل. كان هناك طوال الوقت».

قضيت أيامي الأخيرة في القاهرة وأنا أحاول إنهاء أموري المعلقة، وأحزم أغراضي، وأشتري الهدايا من خان الخليلي. لكنني خصصت مساء اليوم الأخير لعبد الله. لم يتمكن من ترك عمله حتى وقت متأخر من ذلك المساء، لذا تناولنا العشاء معًا على الدرج الأمامي للعمارة. بعد أن انتهينا، كورت الورق الذي كان يلف الطعام، وأعدت خصلة شعر نافرة لمكانها خلف أذنه.

قلت دون جدية: «يجب عليك أن تعود معي».

هز رأسه.

قال: «سوف تعود». وكان محقًّا.

عبر السنوات، عدت لزيارة القاهرة لمرات أكثر من أن أحصي عددها: سواء للبحث العلمي أو للمتعة. لزفاف عائشة ولميلاد ابنتها الأولى، مريم. لندوات عن دول حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى، ولسقوط مبارك، ولدراسة شعر العربية اليهودية، ولزيارة السيد موصيري وتقديم التعازي له بعد وفاة والدته. ولرعاية قبور آل شيماريا وآل الراقب، وللعناية بذكريات أولئك الذين لم يعد نسلهم يذكرون شيئًا. لكن في ذلك المساء، بدت المدينة وكأنها قد تجمدت في المكان. قام عبد الله بتشغيل شريط لفان موريسون، واستمعنا للوجه الأول ونحن نحتسي شراب فيروز بنكهة التفاح الأخضر، ونشعر بخفة الحب بينما نراقب المدينة وهي تعبر كالنجوم عبر سماء صحراوية.

❋ ❋ ❋

في السنوات التالية، كثيرًا ما تساءلت -لأجل والدي ولأجلي أنا أيضًا- عن إذا كانت تلك هي بالفعل لفافة عزرا المستندة على الكرسي بين السيد موصيري والحاخام سعدة. هل كان من الممكن أن تكون تلك اللفافة هي ذاتها التي حاول والدي حمايتها من الشرطة، وهي التي استغل علي الراقب قدراتها السحرية اللامعة لكسب قلب محبوبته، وهي ذلك النص المثالي الذي رغبت أجنيس ومارجريت بشدة في اكتشافه؟ يطل السؤال برأسه في أوقات غريبة من النهار، بينما أنا أقف منتظرًا في الصف في الكافيتيريا، أو أجلس منكبًّا فوق عقد زواج عتيق. قد تثيره

رائحة رق جلدي أو ارتعاشة ضوء مصباح فلوريسنت تم إشعاله، أو التماع الشمس على صفحة نهر كام.

أيًّا كان ما حملته تلك الليلة في ساحة المعبد، فقد أتى بمفعوله. في صباح اليوم التالي بعد أن رقصت مع السيد موصيري والحاخام سعدة وخالد، استيقظت بصداع يدق في رأسي، وبفم جاف، وبرغبة شديدة لا يمكن إثنائي عنها في أن أقضي الفصل الدراسي القادم في كامبريدج، برفقة وثائق الجنيزة. قمت بتغيير تذكرة طائرتي في عصر ذلك اليوم. أخبرت المشرف على رسالتي إنني أنتوي مد إجازتي ووجدت مستأجرًا جديدًا لشقتي في بيركلي. ساعدني الحاخام سعدة في العثور على وظيفة في وحدة أبحاث الجنيزة، وبقيت هناك منذ ذلك الحين.

ليست حياة بالغة الإثارة، فأنا أستيقظ كل صباح في السابعة، وأتناول إفطارًا سريعًا قبل أن أعبر البلدة متوجهًا ناحية المدخل الخلفي لمكتبة جامعة كامبريدج. تقع وحدة أبحاث وثائق الجنيزة في الطابق الثاني، بين أرفف الكتب وصفٍّ من المكاتب الإدارية. يقع مكتبي في طرف غرفة الترميم. كان عبارة عن طاولة رسم هندسي قديمة يعلوها ورق نشاف خالٍ من الأحماض وصندوق حفظ معدات أزرق اللون يحتوي على أدواتي التي أستخدمها في العمل؛ الفرش والشفرات والعدسات المكبرة والغراء المصنوع من دقيق القمح، والشرائح البلاستيكية المستخدمة للحفظ في الأرشيف. فيما عدا بعض الرقوق الجلدية الممسوحة أو المخطوطات المذهبة بين حين وآخر، كان العمل بسيطًا إلى حد كبير. عليَّ في البداية أن أخرج القصاصة من علبتها، ثم أزيل

أثر أي فتات قديمة بالفرشاة. وبعد ذلك، أقص شريحة من البلاستيك بالحجم المناسب وأثبت القصاصة في البلاستيك بغرزة واحدة من الخيط الخالي من الأحماض. وأخيرًا، أقص قطعة أخرى من البلاستيك وأخيطها في الأولى من الحواف. عندما أنتهي من ذلك، أسجل بيانات القصاصة لأغراض الفهرسة قبل أن أرسلها للتصوير، ثم أبدأ مرة أخرى من البداية.

هناك مئات الآلاف من القصاصات التي تقبع في الانتظار داخل خزانة يتم التحكم بدرجة الحرارة والرطوبة بها في الطابق الثالث من هذه المكتبة الحجرية الضخمة. أجرينا بعض الحسابات منذ بضعة أيام بينما كنا نتناول الغداء. بوجود ثلاثة منا نعمل أربعين ساعة في الأسبوع، لمدة خمسين أسبوعًا كل عام، سيستغرق الأمر حوالي ثلاثمائة عام كي نتمكن من الانتهاء من كل تلك القصاصات. يشعر المرء بضآلته، وهو يعمل في مشروع يتجاوز مداه عمر البشر. لكن في لحظات الشك التي تنتابني، أذكر نفسي بكلمات الحاخام طرفون التي نطق بها منذ حوالي ألفي عام: «لست ملزمًا بإتمام المهمة، لكن في ذات الوقت لا يمكنك التخلي عنها أيضًا».

بمرور السنوات، أتقنت اللغتين العبرية والعربية إلى حد كبير. ويمكنني قراءة السريانية، كما أنني على دراية بالقواعد النحوية للعربية اليهودية. لكن كي يتمكن المرء من فهم قصاصات المخطوطات تلك، فعليه أن يتقن لغة أخرى، هي لغة الأوراق والأتربة، والخط المائل لكاتب يشعر بالقلق وهو يحاول أن ينتهي من كتابة رسالة قبل غروب

الشمس، وأهمية طي ما في الورق له شكل غريب. عليك أن تتمكن من قراءة المعاني الدفينة وراء بقع الطعام والتلف الناتج عن الشمس والأخطاء الكتابية والكلمات نصف الممسوحة. كل قصاصة تحوي عشرات الحكايات المخبأة في نسيج الورق وفي طريقة معالجة الرق وفي تحلل أنواع الأحبار المختلفة. ومهمتي هي إعادة الحياة لتلك الحكايات، وتحريرها وحمايتها، وحفظها لعلماء المستقبل.

في بادئ الأمر، أخبرت نفسي أنها مجرد مهمة مؤقتة، شيء ما أقوم به قبل عودتي لبيركلي وإنهائي للدكتوراه. أو ربما فكرت أنه يمكنني أن أبدأ من جديد في كامبريدج، وأحصل على الدكتوراه في الدراسات الشرق أوسطية. وربما أقوم بذلك بالفعل يومًا ما. لكن في الوقت الحالي، فأنا أشعر بالسعادة في الحياة التي اخترتها. أعلم أن والدي كان سيفتخر بي. كما أن والدتي كذلك وافقت على الأمر في نهاية المطاف. عندما أتت هي وبيل لزيارتي منذ بضع سنوات، أخذتهما لمكتبي الصغير وبينما كنت أشرح لهما أسماء الأدوات التي أستخدمها في عملي وما الذي تقوم به هذه الأدوات، اغرورقت عيناها بالدموع. خلعت نظارتها الطبية وعندما عانقتني، شعرت بدموعها على خدي.

قالت: «كل ما تريده الأم هو أن ترى أبناءها وهم سعداء».

وكنت سعيدًا بالفعل. بعد سنوات كثيرة من الدراسة الأكاديمية، كان أمرًا رائعا أن أعمل بيدي، وأن أشعر بملمس الحكايات بين أناملي. فأنا قارئ قبل أي شيء، وشاهد على هذه الزيجات والخلافات الأسرية، واتفاقات العمل التي أُبرمت بين أناس ماتوا منذ قرون مضت.

لكن وسط تدفق كل هذه الحكايات، لم يبد الأمر مفاجئًا عندما شعرت بالرغبة في تدوين حكايتي أنا في نهاية المطاف. منذ بضع سنوات، وبعد وقت قصير من الثورة في يوليو ٢٠١١، شرعت في الكتابة في أوقات الصباح قبل العمل، وفي إجازات نهاية الأسبوع والعطلات، وأنا أحاول ترتيب شظايا تاريخ أسرتي بشكل موحد ومتكامل.

عدت لزيارة القاهرة مرة ثانية في العام الماضي كي أقابل السيد موصيري ومدام الطنطاوي، وعمي حسن وعمتي بسيمة. ألقيت عليهم كل الأسئلة التي ادخرتها لسنوات. لماذا أعطى يهود القاهرة وثائق الجنيزة لسولومون شيختر؟ ومن حكى لوالدي كل تلك الحكايات التي قصها هو عليَّ؟ قضيت أسبوعًا وأنا أفتش في أرشيف الطائفة اليهودية. بحثت عن أبناء العمومة البعيدين ونقلت نسخًا من النقوش الموجودة على شواهد القبور في البساتين. شيئًا فشيئًا، بدأت الحكايات تتضح. حكى لي السيد موصيري أساطير عن الأسرة لم أسمعها أبدًا من قبل. ووصفت لي عمتي بسيمة المرة الأولى التي التقت فيها بجدي، وكيف أعجبتها أناقة حلته. وروت لي مدام الطنطاوي حكاية عن عم والدي، راشد -أصغر أبناء محمد الراقب- الذي ضبط متلبسًا في شبابه في علاقة، تبعًا لوصفها، مع صبي يهودي اسمه مارسيل بيخو.

تبعًا لمدام الطنطاوي، عمل عمي راشد لسنوات عديدة في مطبخ منزل القنصل العام البريطاني، ثم وجد عملًا في فندق النيل هيلتون، وترقى في عمله حتى صار كبير الطهاة. تذكره عمي حسن بوصفه رجلًا حازمًا ومتحفظًا إلى حد ما، لكن لا هو ولا السيد موصيري كانا يعرفان

المزيد عن حياته. لم يعرفا كيف حصل على عمله في منزل اللورد كرومر، وما إذا كان لذلك علاقة بطريقة ما بفضيحته مع مارسيل بيخو. لم أعرف الحكاية، أو جزء منها على الأقل، حتى عدت لكامبريدج ووجدتها في أوراق أجنيس ومارجريت.

قبل مغادرتهما القاهرة متجهتين إلى سيناء، كتبت الشقيقتان رسالة للورد كرومر قامتا فيها بتزكية شاب باسم راشد الراقب. عند عودتهما لمنزلهما بعد ثلاثة أسابيع، وجدتا رسالة من الشاب نفسه يشكرهما فيها على مساعدتهما. «لا يمكنكما أن تتخيلا كيف ساعد هذا الوضع الجديد على تحسين موقفي، الذي أعتقد أنكما على دراية به. أتمنى أن أتمكن من رد كرمكما يومًا ما».

في البداية أردت تأليف كتاب يحوي كل هذه الحكايات؛ ألف صفحة تتضمن ألف عام من حياة اليهود في القاهرة. لكن بمرور الوقت، اتخذ مشروعي شكلًا أكثر تواضعًا: هذه الحكايات المجزأة عن الآباء وأبنائهم، وأبناء العمومة والغرباء، والحزن والتسامح والحب المحرم. أدرك جيدًا مواطن ضعف الكتاب، فهو منقوص وغير كامل. لكن أي رواية من الروايات ليست كذلك؟ فاللغة ما هي إلا إشارة -إصبع يشير إلى القمر، وليست القمر ذاته- وفي نهاية المطاف يجب أن تصل كل الحكايات لنهايتها.

أيًّا كان مصير هذه الصفحات، فقد شعرت بالرضى أثناء كتابتها. لقد وجدت ذاتي بأكثر من طريقة، في أبحاثي، وفي شكل نظامي اليومي، وفي الغراء المصنوع من دقيق القمح والخيوط الخالية من الأحماض،

وفي الساعات الطويلة التي أقضيها منكبًّا على الأوراق القديمة، وفي خطواتي على ضفة نهر الكام أثناء سيري عائدًا للمنزل. لا أعد نفسي متدينًا تبعًا للمفهوم التقليدي للكلمة –فذلك يتطلب مني أن أختار ديانة بشكل فعلي– لكن صار بداخلي شرارة ما لم تكن موجودة من قبل. ومن أنا حتى أحدد ماذا تكون أو لا تكونه؟ مثل والدي، ووالده من قبله، ما أنا إلا مراقب، وحارس أحمي وثائق الجنيزة، وأشعر بالرضى لاستمراري في العمل مع غموضها.

❊ ❊ ❊